الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون

ثقافة المتنبي وأثرها في شعره

المتنبي

هدى الأرناؤوطي

منشـورات وزارة الثقافـة والفنـون ـ الجمهوريـة العـراقيـة

صـدر بمناسـبة مهرجـان المتنبي ـ بغـــداد
تشرين الثـاني ١٩٧٧

ثقافة المتنبيّ وأثرها في شعره

لهدى الأرناؤوطي

مقدمة

اخترت ثقافة المتنبي موضوعا لهذه الرسالة إدراكا مني للواقع العلمي والأدبي لعصر الشاعر ، وللبيئات التي عاش فيها أو اتصل بها ، وفهما لجوانب شخصية الشاعر ومدىٰ استفادته من ثقافة عصره وبيئته .

وقد لفت انتباهي الاهتمام الكبير الذي لقيته مادة شعره لدىٰ النقاد كصورة من صور الخلاف بين أنصار الطبع وأنصار الصنعة ، حول التزام الشاعر بالتقاليد الموروثة ، أو استخدامه لما يدركه عقله من معارف عصره ، وقد رأينا هذا الاتجاه لدىٰ أبي القاسم الاصفهاني في «الواضح في مشكلات شعر المتنبي» ، ولدى الصاحب بن عباد في «الكشف عن مساوىء شعر المتنبي» ، ولدى الحاتمي في «الرسالة الحاتمية» ولدى الثعالبي الذي خص الشاعر بدراسة مستفيضة في يتيمة الدهر ، أشار فيها الى بعض الجوانب التي كان الشاعر متأثراً فيها بثقافته ، إلى جانب المؤلفات التي أحصت سرقات الشاعر التي شغلت جانبا من الدراسات النقدية التي فاز المتنبي بنصيب عظيم منها .

وقد كانت هذه الآراء التي أوردها النقاد القدامى وغيرها مادة لدراسات الباحثين المحدثين ، حيث نرىٰ في كتاب «مع المتنبي» لطه حسين كثيرا من الملاحظات تناثرت خلال المؤلف لعل أبرزها حديثه عن أثر الموروث الشعري ، كذلك أشير الى ما كتبه شوقي ضيف في «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» الذي تعرض لبعض جوانب ثقافته في إطار التصنع الثقافي في شعره حسب مصطلحات شوقي ضيف ، وما أشار اليه محمد عزت عبد الموجود في بحثه عن الظواهر اللغوية والنحوية في شعر المتنبي ، بالاضافة الى ماتضمنه مؤلف «المحصول الفكري» للمتنبي .

وقد رأينا اننا باختيارنا لهذا الشاعر نقدم صورة لاستجابة الشعراء للتيارات الثقافية التي عرفها القرن الرابع الهجري ، ومدى قدرة الشاعر على استخدام المعرفة في تقديم شعر معبر عن انفعال عقل الشاعر بالثقافة المتاحة .

وتقوم هذه الدراسة على الاشارات المختلفة التي التقطتها من ديوان المتنبي وتكشف عن معارفه ، وعلى الآراء التي صدرت عن الشاعر في المناقشات التي دارت بينه وبين غيره من العلماء الذين التقى بهم ، والملاحظات التي رافقت أماليه لديوانه ، إلى جانب ما نقله المؤرخون والنقاد من أخبار اطلاعه على بعض المؤلفات أو صلته ببعض الجماعات .

وقد حاولنا أن نرجع كثيرا من الآراء والأفكار والأساليب التي نحاها في شعره الى أصولها التي استمدت منها ، مع مقارنة لغة شعره بلغة غير شعرية من تصورنا للعلوم أو المعارف التي تكون منها اطار ثقافته .

وتضم الرسالة مدخلا وستة فصول . أما المدخل فقد عرضت فيه صورة لموقف الأدباء والنقاد العرب من الملكة الأدبية وما تحتاج اليه من صقل ، حيث اتضح لنا خطان ، يمثل الأول منها الجهد الذي يبذله الشعراء في تطوير أدواتهم استعدادا لعملية النظم ، ويمثل الثاني نتاج المطالعات والاهتمامات المتنوعة التي تختلف من شخص لآخر ومن عصر لآخر .

ثم تحدثنا عن تكوين المتنبي الثقافي حيث تناولنا جذوره الأولى من خلال دراسة نشأته العلمية ومن اتصل بهم من العلماء ، ثم البيئات التي عاش فيها وطبيعة الاطار الثقافي لكل منها .

وقد قام تصنيف الفصول على تصورنا لمكونات ثقافته وأثرها في شعره ، فدار الفصل الأول حول الثقافة اللغوية . وقد تطرقنا الى الحديث عن مصادر هذه الثقافة ، وروافدها ، ثم معرض هذه الثقافة في أحاديث الشاعر ومناقشاته وأشعاره .

وقد تناول الفصل الثاني ثقافته الأدبية ، فأشرت في مقدمته الى

تصور المتنبي لدور الموروث الشعري وأثره في عملية النظم ، والجهد الذي بذله الشاعر في تكوين هذا الموروث ، ثم تتبعنا المصادر التي استقى منها الشاعر مادته والكيفية التي عامل بها الشاعر موروثه الشعري ، وإلى أي حد كان تأثره به واستمداده منه في إطار البيت الواحد أو القصيدة الكاملة .

وفي الفصل الثالث تطرقت الى الثقافة الدينية وقد بدأت بتصور للمهاد العقائدي الذي حدد جوانب هذه الثقافة ، ووجه مسارها في مختلف مراحل حياته ، وعرضنا مكونات هذه الثقافة من قرآن ومأثورات دينية يهودية ومسيحية وإسلامية إلى جانب بعض الآراء المتصلة بديانات أخرى كالمجوسية .

كما تناول البحث تأثر الشاعر ببعض الجماعات الدينية التي اتصل بها كالصوفية والفقهاء .

أما الفصل الرابع فقد عرضنا فيه الظروف التي هيأت للشاعر ثمار الثقافة الفلسفية ، وناقشنا آراء القدامى والمحدثين حول هذا الجانب من ثقافته ، وبينا مكونات هذه الثقافة من آراء الفلاسفة والمتكلمين حول بعض القضايا التي شغلت جانبا واضحا في الفكر الديني والفلسفي ، الى جانب حكم فلاسفة اليونان وخاصة أرسطو .

ودار الفصل الخامس حول ثقافته من التاريخ - خلاف ما أتصل بالأديان - وقد عرضنا فيه الصور التي استعان فيها الشاعر بحصيلته من تاريخ الأمم القديمة والبائدة ، وتاريخ العرب في الاسلام والعصرين الأموي والعباسي ، إلى جانب تاريخ الأنساب .

أما الفصل السادس فقد جمعنا فيه ما عرض الشاعر من معارف اتصلت بعالم الحيوان والفلك ، لما رأيناه من تقارب في مصادر ثقافته في هذين الجانبين سواء من ممارسة حياة البادية ومعاشرة الاعراب ، أو من ثقافته اللغوية التي شغل هذان الجانبان قسما من مؤلفات علمائها ، الذين أثبت البحث معرفة الشاعر لآرائهم واطلاعه على مؤلفاتهم ، إلى جانب المؤلفات التي

وضعها غير اللغويين من العلماء فيها .

والدراسة بهذه الصورة لا تدعي انها تحيط احاطة شاملة أو تكشف كشفا دقيقا مستفيضا عن ثقافة المتنبي بجميع أبعادها ، لأنها تدرك ان جزءا من ثقافة الانسان - قد يكون صغيرا وقد يكون كبيرا - لا يظهر على لسانه وان كان يؤثر تأثيرا كبيرا في سلوكه أو ذوقه ، أو تفكيره أو خياله . كذلك فان الاشارات التي استقصتها هذه الدراسة لا يمكن الادعاء بأنها ثقافة خاصة بالمتنبي ؛ لأنها تدرك ادراكا واعيا ان جزءا من هذه الثقافة لم يحصل عليه الشاعر عن طريق الاطلاع الشخصي أو الاجتماع الخاص بالعلماء وذوي المعرفة ، وانما تسرب اليه عن طريق المجتمع الذي عاش فيه وتأثر بفكره فهي اذاً ثقافة المجتمع وليست ثقافة الفرد .

مدخل

١ - الملكة والثقافة
٢ - تكوين المتنبي الثقافي

الملكة والثقافة

الشعر فن من فنون كلام العرب ، عماده وسر وجوده الموهبة أو الملكة أو الاستعداد الفطري لدى المرء في فن الشعر بعينه . غير ان هذه الملكة بحاجة الى أدوات تعينها على الظهور حتى تملك زمام أمرها وتقتدر في فنها . وقد اشتملت هذه الأدوات على إطار شعري يمثل صلة الانسان بالتراث القديم في هذا الفن ، اذ أن الشعر ككل فن ليس خلقا على غير مثال ؛ واشتملت على علوم مقومة لأداة التعبير عن هذه الموهبة ، وبالاضافة الى هذين العنصرين كانت المعرفة لها أثرها البعيد في الفن الشعري .

وبالرغم من حاجة الشاعر الى هذه المقومات أو الخبرات فانها لاتؤتي ثمارها مالم تتوفر لها تربة خصبة مؤهلة لهذا الفن ، وقد أجاد ابن الأثير في تصويره حين قال : «متى لم يكن ثم طبع لم تفد تلك الآلات شيئا البتة ، فمثل الطبع كمثل النار الكامنة في الزناد ، ومثل الآلات كمثل الحراق والحديدة التي يقدح بها ، ألا ترى أنه اذا لم يكن في الزناد نار لا يفيد ذلك الحراق ولا تلك الحديدة شيئا ؟»[1].

ويمكن أن نقول ان وجود الفنان أو الشاعر مرتبط بانبثاق هذه الملكة في نفسه ، ومتى حرمها فالاولى به ان ينصرف عن هذا الفن ، وألا يضني نفسه في التماسه ، ولكن هذه الملكة قد يلحقها العجز ما لم يتعهدها الشاعر بالعناية ويزودها بما تفتقر اليه ، فالموهبة وحدها لا تخلق شاعرا قويا ، وهذا لا يعني أن ننكر على المطبوع قدرته على الخلق والابداع ، فقد يتحقق له ذلك دون وعي وبصيرة ، ومتى قصد الجيد تعثرت ملكته وقصرت عن غايتها

---

(١) الجامع الكبير : ابن الأثير ٦

«كالمقعد الذي يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة»[٣].

ومن ثم كان لزاما على الشاعر أن يتعهد هذه الملكة بالصقل والمران، ووسيلته الى ذلك حفظ الأشعار ودراستها. وقد تنبه النقاد منذ فترة مبكرة من تاريخ الأدب الى أهمية الحفظ في تنمية ملكة النظم لدى الشاعر، لذلك رأينا روبة والأصمعي[٣] يقرنان صفة الفحولة بحفظ الشعر وروايته، ومنهم من جعل الرواية أحد الأسس التي تقوم عليها صناعة الشعر كما نرى لدى الجرجاني[٤].

وتحدث ابن طباطبا عن دور الحفظ في تنمية ملكة النظم فنراه يوصي الشاعر بأن «يديم النظم في الأشعار لتلصق معانيها بفهمه، وترسخ أصولها في قلبه، وتصير مواد لطبعه، ويذوب لسانه بألفاظها، فاذا جاش فكره بالشعر أدى اليه نتائج ما استفاده نظر فيه من تلك الأشعار، فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن، وكماء قد اغترف من واد قد مدته سيول جارية من شعاب مختلفة، وكطيب قد تركب من أخلاط كثيرة فيستغرب عيانه ويغمض مستنبطه»[٥].

وعرف الشعراء منذ العصر الجاهلي نظام التلمذة، ورأينا الشاعر منهم يلزم الآخر زمنا طويلا، يروي شعره، ويتعلم منه قوانين النظم وأصول الصنعة الشعرية، وعرف بعضهم برواية شعر بعضهم الآخر: فزهير: راوية أوس، والحطيئة: راوية زهير، وأبو ذؤيب: راوية ساعدة بن جؤية[٦].

والى جانب نظام التلمذة المباشرة - الذي رأيناه عند هؤلاء وغيرهم - وجدنا من الشعراء من يعكف على دواوين الفحول بالقراءة

---

(٢) العمدة : ابن رشيق ١ :١٩٧
(٣) المصدر السابق ١ :١٩٧
(٤) الوساطة الجرجاني ١٥
(٥) عيار الشعر : ابن طباطبا ٧
(٦) الوساطة بين المتنبي وخصومه : الجرجاني ١٥

الواعية ، حتى يحقق لنفسه ثقافة شعرية واسعة ، كما نرى لدى الفرزدق الذي عرض في قصيدة له مكونات ثقافته الشعرية وثقافة أقرانه : كالمساور بن هند ابن قيس العبسي ، والراعي والأخطل . وقد تألف محفوظه من شعر أصحاب المعلقات : كامرىء القيس ، ولبيد بن ربيعة ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن ابي سلمى ، والأعشى ، وعبيد بن الأبرص ، والنابغة الذبياني ، وغيرهم من أعلام الجاهلية : كالمخبل ربيعة بن مالك ، وبشر بن أبي خازم ، ومن المخضرمين : ككعب بن زهير ، وحسان بن ثابت ، والحطيئة ، ومن الاسلاميين كالراعي[٧].

ولعل في اختيار الفرزدق لشعر هؤلاء الأعلام ما يوحي بأن الشاعر كان يختار المحفوظ بوعي كامل وفقا لموقفه الخاص . وقد يكون اشتراك طائفة من الشعراء في موروثهم الشعري ما يحل لنا التشابه الذي قد نلاحظ به في نتاج هؤلاء الشعراء .

وعرف عن كثير من الشعراء اهتمامهم بالمحفوظ : فهذا هو الأصمعي يمتحن أبا نواس فيجده حافظا لشعر ثمانين امرأة مكثرات مقلات[٨] ، ويروى عن ابي تمام أنه كان يحفظ ألف أرجوزة ، وأنه لم يكن ليضيع أدنى فرصة تتهيأ له ليحفظ المزيد من الشعر يغذي به ملكته[٩].

بل اننا رأينا من النقاد من حاول أن يهيء للشاعر هذا المحفوظ : مثل ذلك الكتاب الذي ألفه ابن طباطبا تحت عنوان «تهذيب الطبع»[١٠] ، وفي اسم الكتاب اشارة واضحة الى الهدف الذي وضع من أجله : وهو صقل الموهبة وتهذيبها ، بتهيئة الأشعار التي رآها الناقد مؤدية لهذا الغرض .

وقد حدد ابن خلدون في مقدمته ما يحتاج اليه الشاعر من محفوظ ، وعين أقل قدر منه في اطار شعر شاعر من الفحول الاسلاميين : كابن أبي

(٧) أبو عبيدة : شرح النقائض ٢٠٢/٢

(٨) ديوان أبي نواس ١٢/٤

(٩) ديوان أبي تمام ٤ :٦٠٤

(١٠) عيار الشعر : ابن طباطبا ٧

ربيعة ، وكثير ، وذي الرمة ، وجرير ، وأبي نواس ، وحبيب ، والبحتري ، والرضي ، وأبي فراس ، وذكر كتاب الأغاني كجامع لأشعار الطبقة الإسلامية ومختار الجاهلية"[11].

وقد تعمد اختيار هذا المحفوظ من الحر النقي ، كما وصفه ، لأنه كان يدرك أن جودة النظم تكون على قدر جودة المحفوظ ؛ فللمحفوظ أثره الكبير في نمو ملكة النظم وتوجيه مسارها ؛ لأنه يسهم الى حد كبير في تكوين خصائص الأسلوب وسماته ، لذلك رأينا ابن خلدون يعزو ما يجده من صعوبة في نظم الشعر - مع حفظه لجيد الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب - إلى ما حصل من خدش في وجه النظم عنده ؛ لحفظه الأشعار العلمية ، والقوانين التأليفية ، ومن هذا المنطلق رأيناه يحكم على شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار بالقصور ، وانحراف العبارة عن أساليب العرب في كلامهم"[12].

لقد ادرك الشعراء والنقاد أهمية الموروث الشعري : فالشاعر يكون أسلوبه بطريق القراءة وحفظ النماذج ، ثم يبدأ في الصوغ على أنماطها ، وهو ما أطلق عليه الجرجاني اسم الدربة وجعله قرين الطبع والرواية ، ويمكن القول إن هذا المران يساهم في تنظيم هذا الموروث الشعري في ذاكرة الشاعر ، وبالتالي تزداد قدرة الذاكرة على الاستفادة مما حفظت ، مما يعد الشاعر لانتاج ناضج قد حوى ثمرات ماقرأ وحفظ . ويبدو هذا واضحا عندما نقارن بين اسلوب شاعر في مرحلتين متباعدتين من حياته الشعرية . ومتى تكون للشاعر أسلوب خاص بعد التمرس بأشعار غيره لانجد هذا الاسلوب مطابقا لأسلوب شاعر بعينه ممن حفظ لهم ، بل ان نتاج هذه القراءة يبدو من خلال شعره نتيجة للتفاعل الذي تم بين محفوظه وأسلوبه الخاص ، وهو ماوصفه ابن طباطبا بالسبيكة المفرغة من جميع الأصناف ، وبالوادي الذي أمدته شعاب

(١١) مقدمة ابن خلدون ٥٣٨
(١٢) المصدر نفسه ٥٤٣

مختلفة[١٣] .. الخ .

والى جانب صقل الموهبة وتقوية الملكة الذي يحققه استيعاب النماذج الشعرية فان هذا المحفوظ له خطره حين يؤدي الى خلق شاعر مقلد لا ابداع له : اذ أن الالتصاق الشديد بالنماذج الشعرية يصبغ انتاج الشاعر بصبغتها ؛ فتقحم نفسها - دون وعي منه أحيانا وعن وعي أحيانا أخرى - فيما يصدر عنه من أشعار ، ومن ثم يبقى الشاعر عالة على معاني غيره .

وقد تنبه النقاد الى هذا الجانب السلبي لدراسة الموروث الشعري ، لذلك رأيناهم يشيرون على الشاعر بأن ينسى ما حفظ من نماذج قبل أن يشرع في النظم ، نستدل على ذلك فيما يروى عن نصيحة عبدالله القسري لابنه خالد حين أمره بنسيان ألف خطبة كان قد أمره بحفظها[١٤] ، وتوجيه خلف الأحمر لأبي نواس بنسيان ألف قصيدة ومقطعة بعد حفظها[١٥] .

فالاستفادة من المحفوظ تتم على خطوات : تبدأ بالدراسة الواعية للأشعار التي يراها الشاعر أهم من غيرها ، وبعد أن يتم له حفظها يخلد ذهنه الى فترة من الراحة والكمون ينسى خلالها ماحفظ «لتحمي رسومه الظاهرة اذا هي صادرة عن استعمالها بعينها ، فاذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب منها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى مشابهة»[١٦] .

والى جانب الاتصال بالموروث الشعري لصقل الموهبة وتطويرها بالدربة والمران ، فقد احتاج الشاعر الى تقويم أداة التعبير عما يجول بخاطره من الصور والمعاني ، وكان سبيله الى ذلك تحصيل العلوم التي تحقق له هذه الغاية : كالنحو واللغة ليصلح بهما لسانه ويقوم اعرابه فيما يرى الأصمعي

---

(١٣) عيار الشعر : ابن طباطبا ٧
(١٤) عيار الشعر : ابن طباطبا ١٠
(١٥) أخبار ابي نواس .. ابن منظور ٥٥
(١٦) مقدمة ابن خلدون ٥٣٨

وابن طباطبا وابن رشيق[١٧]، وان كان الأول قد أضاف العروض لاقامة الأوزان[١٨].

وقد اقترح حازم وسيلة رأى فيها خير معين للشاعر على تحصيل اللغة واستيعاب قواعد العروض ، تلك هي العيش بين الفصحاء المستعملين للأناشيد المقيمين للأوزان[١٩]. ويمكن القول إن حفظ الشعر والتمرس به قد يغني الشاعر في بعض الاحيان عن الاستيعاب الموجه لبعض هذه العلوم فالحفظ وسيلة ناجعة لتحصيل المواد اللفظية وتقوية السليقة اللغوية وتنمية الاحساس بموسيقى الشعر ، ولعل ابن رشيق كان مدركا لهذه الناحية حيث أشار الى أن الشاعر المطبوع مستغن بطبعه عن دراسة علم العروض ، بخلاف ضعيف الطبع من الشعراء الذي يفتقر الى شيء منه بعينه في نظمه ، كذلك فطن الشاعر الى اهمية الاتصال بالأشكال الأدبية غير الشعرية ، وخاصة ماكان منها على درجة عالية من البلاغة متفق عليها بين النقاد ، فعنوا بحفظ القرآن الكريم والحديث النبوي : اللذين يمثلان أرقى مراتب البلاغة العربية ، لذلك وصف ابن خلدون كلام الاسلاميين من العرب بأنه أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم ، لأن هؤلاء سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث[٢٠].

ولما كان الشعر ديوان العرب ضمنته كل معارفها فقد كان الشاعر مطالبا بالأخذ بطائفة من المعارف الى جانب ثقافته الأدبية لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل ، ويمكن القول إن هذه المعارف تشكل جانبا من ثقافة الشاعر لايقل أهمية عن غيره . فالشاعر مفتقر الى استيعابها : لكي يتمكن من فهم ما يحفظ من شعر يصقل به ملكته ، كما هو بحاجة الى استمدادها حيث ينظم . فالأنساب كعلم أتقنه العربي ليعينه في ذكر المثالب والمناقب فيما

(١٧) عيار الشعر ابن طباطبا ٤ ، العمدة لابن رشيق ١ :١٩٧

(١٨) عيار الشعر . ابن طباطبا٤.

(١٩) منهاج البلغاء ، حازم القرطاجني ٤٠

(٢٠) مقدمة ابن خلدون ٥٤٤

قصد من مدح وذم[٢١]، وتاريخ العرب بما حوى من الأخبار والأيام ليصطنعها في ذكر الآثار وضرب الأمثال[٢٢].

وأضاف ابن رشيق علوما أخرى تشكل جانبا من بناء الثقافة العربية : وهي الفقه والفرائض والحساب[٢٣].

والى جانب ما ذكرت من معارف اشتملت على التاريخ وعلم الأنساب والفقه والفرائض والحساب ، فقد عرف ادباؤنا علوما أخرى دخلت في إطار الثقافة العربية نتيجة لنضج العقلية العربية ، بما تهيأ لها من اختلاط بأمم ذات علوم مستقرة ، فمنها ما دخل في نطاق العلوم العقلية ؛ كالمنطق والفلسفة ، وما دخل في العلوم الطبيعية : كالفلك والطب وغيرها ، مثال ذلك ما ذكره ابن قتيبة عن أبي نواس من أنه مفتن في العلم قد نظر في النجوم (الفلك) تارة[٢٤]، وعن أنه نظر في علم الطبائع[٢٥] تارة أخرى ، وما اشتهر من تعلق المحدثين - كأبي تمام والمتنبي - بالفلسفة .

ورغم شيوع هذه المعارف في الوسط الأدبي ، وإقبال الأدباء عليها ؛ إدراكا منهم لحاجة الأديب أو الشاعر إلى الالمام بما يعرض له من العلوم ، وهو ما عبر عنه ابن قتيبة قائلا : «من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا . ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع في العلوم»[٢٦]، إلا أن جعل الشعر معرضا لهذه العلوم لم يكن بالأمر الذي يقبله كثير من النقاد . ولعل هذا الرفض يرتبط أساسا بفهم هؤلاء النقاد لماهية الشعر وغايته ، فالشعر عندهم : ما حرك النفوس وهز الأفئدة ، بخلاف العلوم التي تتعلق بالادراك الذهني أو العقلي ، وللشعر معانيه وألفاظه التي فطرت النفوس على التأثر بها من المحسوس والمجرد : فان أدخلنا المعاني العقلية في الشعر نأينا به عن غايته ، وهي التأثير في نفوس

(٢١) عيار الشعر . ابن طباطبا ٤ ، العمدة ابن رشيق ١ :١٩٧
(٢٢) العمدة ابن رشيق ١ : ١٩٧
(٢٣) المصدر نفسه ١ :١٩٦
(٢٤) الشعر والشعراء . ابن قتيبة ٧٩٨ .
(٢٥) المصدر نفسه ٨٠٢ .
(٢٦) الخلاة . العاملي ٢٤٢

المتلقين .

كذلك فإن إدخال العلم في الشعر كان في نظر هؤلاء تجديداً خالف به الشعراء المحدثون ماورثوه من تقاليد السلف التي سار عليها الشعراء في نظمهم .

وعلى الرغم من استبعاد النقاد لهذه الثقافة العامة من ميدان الشعر - كرفض الجاحظ لمصطلحات المتكلمين[٢٧]، وعد الآمدي فلسفة أبي تمام من عيوب شعره[٢٨]، فإن هذين الناقدين وغيرهما كأبن رشيق وابن سنان الخفاجي لم يملكوا ازاء انتشار العلوم في الوسط الأدبي واقبال الادباء عليها إلا أن يتسامحوا بالقليل منها . فأجاز الجاحظ ذلك ، على سبيل التملح والتظرف . ولم يمانع ابن رشيق في وقوع قدر من العلم في الشعر على ألا يجعل نصب العين فيكون متكأ واستراحة - على حد تعبيره -[٢٩].

وعلى الطرف الآخر نرى ناقدا كابن الأثير يرحب بادخال المحصول الفكري في الشعر ، لأن الشعر في نظره مستمد من كل علم وكل صناعة ، والشاعر حر في استخدام الألفاظ والمعاني التي تفي بالغرض أيا كان مصدرها[٣٠].

ونرى حازما القرطاجني يتخذ موقفا متوسطا بين هذين النقيضين ، ونلمح لديه اهتماما واضحا بجمهور المتلقين . ومن هذا المنطلق وضع تقسيمه للمعاني التي يستعيرها الشاعر من ثقافته ، وهي ما أطلق عليه اسم : المعاني غير الجمهورية - فجعلها قسمين :

أولها : معان غير جمهورية يمكن للجمهور أن يتذوقها إن عرف بها : كالأخبار القديمة وطرائف التاريخ ، وقد استحسن إيراد هذا النوع في الشعر .

ثانيها : معان غير جمهورية بعيدة عن ادراك جمهور المتلقين ، وان قاربت

(٢٧) البيان والتبين والجاحظ ٧٨ ، ٧٩

(٢٨) الموازنة . الآمدي ٢٧

(٢٩) العمدة . ابن رشيق ١ : ١٢٨

(٣٠) المثل السائر . ابن الاثير ٤٦٤

ادراكه لم يتذوقها : كمعاني العلوم والصناعات ، وهذه لا تحسن في الشعر فيما يرى .

وقد علل حازم رفضه لهذا النوع من المعاني بأنها مرتبطة بما يدركه الذهن ، فاختلفت بذلك عن المدركات الحسية التي يقوم عليها بناء الشعر . ولما كانت هذه المعاني مما لا يرد الا تابعا للمدركات الحسية ، فالأولى بالشاعر أن يتجنبها حتى لايجره استعمالها الى مخالفة المعهود من تشبيه الأظهر بالأخفى[٣١].

وعلى الرغم من هذا التقسيم الذي ارتضاه حازم نراه يحاول أن يبعد الشعر عن تيار الغموض - الذي قد ينجرف اليه الشاعر مدفوعا برغبته في عرض ثقافته خلال شعره - وذلك حين نجده يقيد ما استحسن ايراده في الشعر من التاريخ والقصص بصفة الشهرة .

ويحاول حازم أن يتجنب الوقوع في مزلق الحكم العام : فيبيح للشاعر أن يستخدم المعاني العلمية اذا كان غرض الشعر مبينا على ذكرها ؛ فالشاعر - في رأيه - حر في اختيار المعاني التي تعينه على تحقيق مقصوده[٣٢]. وهو بذلك يخالف ابن سنان الخفاجي في قصر كل صناعة على ألفاظ ومعان لا تحيد عنها[٣٣] ويختلف حازم مع الجاحظ كذلك حين يرفض - أعني حازما - ايراد الاصطلاحات الخاصة ببعض العلوم في الشعر على سبيل الألغاز[٣٤].

وقد تعرض حازم لكيفية استخدام الشاعر لما استحسنه من الثقافة في الشعر ، فذكر ان ايراد الشاعر للمعاني التي يستعيرها من ثقافته يتطلب مهارة فنية واسعة ، فليس الشاعر مجرد ناقل لنخبة من المعلومات يبثها خلال شعره كيفما اتفق ، وانما يجب عليه أن يعمل فكره في ايجاد التناسب بين المقاصد الأساسية التي عليها شعره وما يستعيره من المعاني . ويتم ذلك بطرق أسهب حازم في حديثه عنها ، وعد الشاعر المقصر عن بلوغها بكيئا مفحما ، الأولى به

(٣١) منهاج البلغاء . حازم القرطاجني ص٢٥ وما بعدها .
(٣٢) منهاج البلغاء . حازم القرطاجني ١٩٠ .
(٣٣) سر الفصاحة . ابن سنان الخفاجي ١٩٥ .
(٣٤) منهاج البلغاء . حازم القرطاجني ١٨٨ .

أن يقلع عن هذه الصناعة .

تحدث مثلا عن الأمثال والحكم كمصدر للمعاني أغرم به الشعراء ، فأورد ضروبا من التصرف والتغيير للشاعر أن يستخدمها ليتم له ايراد هذه الأمثال على الوجه الذي يراه مناسبا . وذكر ان ارداف الشاعر لمعانيه بهذه الأمثال يكون بالتضمين أو بالاشارة ؛ للاستدلال أو التعليل .

وللشاعر أن يغير من العبارة التي وزد بها المثل ، وأن يختصر الأمثال ويجمع عددا منها في البيت الواحد . وقد تمتد يده للمناسبة التي يذكر فيها المثل فيتمثل به في غيرها . فان وفق فيما قصد حسن منه ذلك وان لم يوفق - وبقي أصل المثل أفضل - لحقه التقصير"[٣٥].

تلك صورة أرجو أن تكون واضحة لموقف الأدباء العرب من الملكة الأدبية ، وما تحتاج إليه من صقل ، كانت هي أو ما يقرب منها أمام المتنبي ، فأختار ، ما أختار منها ، وطرح ما طرح .

(٣٥) منهاج البلغاء . حازم القرطاجني ص ٣٩٠ وما بعدها .

تكوين المتنبي الثقافي

نشأته العلميـة :

الحـديث عن ثقـافة أي أديب أو شـاعر يحمل الباحث على تتبع حياة من يدرسه في مختلف مراحلهـا ؛ لكي يلم بكافة العـوامل التي تضـافرت لخلق هذه الثقافة ، ومدى تمثلها أو ظهورها فيما أنتج هذا الأديب طوال حياته .

ونحن حين نتحدث عن الجـذور الأولىٰ لثقـافة المتنبي نذكرها كوسـيلة تبين المعالم الأولىٰ للمعارف التي دخلت في إطار ثقافته ، والاتجاهات الأسـاسية التي خضع لها في بداية حياته ، ومالهـا من مؤثرات في فكره فيما بعـد . غير أن ذلك لا يعني اقتدارنا على تحـديد معـالم ثقـافته عامة ، فلا شـك ان تأثير هذه المرحلة الاولى يتضاءل اذا قورن بغيره من المؤثرات والتيارات التي تعرض لهـا الشاعر طوال حياته .

إن شاعرا كالمتنبي لا يوضح ثقافته التحاقه بهذه المدرسـة أو انتسـابه إلى هذه الحلقة ، بل تتضح هذه الثقافة حين نعلم طبيعة المعـارف التي وجـدت في الأوساط التي عاش فيها ، ومدى تفاعله معها واسـتجابته لهـا ، فان ثقـافة عصر ما أو وسط ما لا تتمثل عند كل من عاش فيه بدرجـة واحـدة بل انهـا تتفاوت من شخص لآخر كماً وكيفاً ، كما أن من الأفراد من يفتقـر الى الانتماء لثقـافة عصره ؛ لأنه متعلق بثقـافة عصر سـابق منصرف عن الاهتمام بثقـافة عصره ومجتمعه كلية .

أذكر في بداية حديثي عن الشاعر نبذة عن نشأته العملية يطالعنا فيهـا نصان مختلفان :

الأول : حديث محمد بن جعفر بن النجار صاحب تاريخ الكوفة (تَ

٤٠٢ هجرية) عن التحاق الشاعر بمدرسة أشراف الكوفة . وتعلمه دروس العلوية شعرا ولغة وأعرابا[١] ، وقد أيد رواية ابن النجار أبو الحسن محمد بن يحيى العلوي ، وهو ممن جاور الشاعر في مدينة الكوفة ، وتوفي سنة ٣٩٠ هجرية[٢].

الثاني : ما ذكره أبو منصور الثعالبي عن التحاق المتنبي بالمكاتب بعد رحيله مع أبيه الى بلاد الشام[٣]، وتبعه ابن الأنباري حين تحدث عن نشأة الشاعر بالشام[٤].

ان ما ذكره الثعالبي قد يجانب الصواب اذ أن سفر الشاعر الى الشام - وإن تضاربت حوله الآراء - كان سنة ٣٢١ هجرية استدلالا برواية المعري ، التي تقول : «كان طلوعه الى الشام سنة احدى وعشرين ، فأقام فيه برهة ثم عاد الى العراق ، ولم تطل مدته هناك»[٥].

فمن المستبعد أن يلتحق الشاعر بالمكاتب ليتعلم القراءة والكتابة بعد سن الثامنة عشرة ، وقد أثرت عنه بعض الأشعار في هذه المرحلة مما قدم له في الديوان بعبارة «قال في صباه» نمت عن الملم لا بأس به ببعض المعارف التي حصل عليها الشاعر قبل قدومه الى الشام ، وأهلته للاشتغال بفنون الأدب[٦].

لقد تلقى أبو الطيب تعليمه الأول بمسقط رأسه الكوفة ، كما ذكر ابن النجار وأبو يحيى العلوي ، وكلاهما ممن عاصر الشاعر . غير ان تخصيص مدرسة أو كتاب لأولاد الشيعة العلويين بالكوفة قد يستحق منا وقفة قصيرة ؛ للبحث في الظروف التي ساعدت على ظهور مثل هذه المدارس .

لقد عرف تعليم الصبيان في الكتاب منذ فترة مبكرة وانتشرت

---

(١) الواضح في مشكلات شعر المتنبي .الأصفهاني ٦
(٢) الصبح المنبي . البديعي ٢٠
(٣) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ٩٢
(٤) نزهة الألباء . ابن الأنباري . ٢١٩
(٥) رسالة الغفران . المعري ٣٥٨
(٦) شذرات الذهب . ابن العماد ٣ : ١٤

الكتاتيب من القرن الثاني في المدن والقرى حتى أصبح لكل قرية كتاب أو أكثر ، وكانت الكتاتيب ملحقة بالمساجد أو مستقلة عنها[٧]، ويبدو مدى هذا الازدهار الذي شهده تعليم الصبيان واضحا حين نعلم أن أحد الكتاتيب كان يضم ثلاثة الآف تلميذ[٨]. وأغلب الظن ان هذا الاهتمام بتعليم الصبيان لا يستبعد معه أن تحرص الطوائف المختلفة في المجتمع على تخصيص مدارس لأولادها .

ويمكن القول ان وجود مثل هذه المدارس أو الكتاتيب يتفق الى حد كبير مع طبيعة الحياة الاجتماعية والحياة المذهبية للكوفة ، فقد ترك النظام القبلي الذي قامت على اساسه هذه المدينة آثارا واضحة في تخطيط المدينة وطبيعة الحياة فيها ؛ إذ كانت للقبائل وبطونها أحياء خاصة ومساجد وشوارع وساحات عرفت بأسماء القبائل والبطون[٩].

هذا بالاضافة الى أن الكوفة كانت مهدا للتشيع ، ومعقلا لشيعة علي وشيعة أولاده من بعده ، ومنها انبثقت معظم الفرق التي نشأت حول هذا المذهب[١٠].

في ظل هذا النظام الاجتماعي الذي يتسم بالخصوصية ، وهذه الحياة المذهبية التي سيطرت عليها روح التشيع الى حد كبير ، فإن تخصيص الشيعة لمثل هذه المدارس التي التحق بها المتنبي يبدو أمرا معقولا .

اما المادة العلمية التي يمكن ان يقدمها هذا الكتاب وامثاله - بخلاف تعليم القراءة والكتابة - فقد تحدث الجاحظ عنها في عصره حين ذكر حاجة الصبي إلى النحو بقدر يحميه من مزالق اللحن فيما يكتب وينشد ، وأضاف الى ذلك الأخبار والأمثال ، والحساب ، وكتابة الانشاء ، وقراءة كتب البلغاء[١١].

---

(٧) تاريخ التربية في الاسلام . أحمد شلبي ٤٣
(٨) المصدر السابق ٤٣
(٩) انظر حياة الشعر في الكوفة . يوسف خليف ٣٢ وما بعدها .
(١٠) المصدر نفسه ٢٨٤
(١١) تاريخ التربية في الاسلام أحمد شلبي ٤٤ (عن رسالة المعلمين للجاحظ)

وقد قامت على هذه المدارس شخصيات أفاض التاريخ في الحديث عنها : فنهم علماء وفقهاء وخطاطون وأدباء ، وقد احتل بعضهم مراكز رفيعة في السياسة والقضاء ونذكر على سبيل المثال أحمد بن سهل البلخي (ت ٣٢٣هـ)[١٢]: فقد كان ملما بالأدب والعلم والفلسفة ، ويمكن القول إن أمثال هذه النماذج قد تهيء وسطا علميا معقولا يحقق الفائدة المرجوة من هذه المدارس .

غير اننا نجد إلى جانب هؤلاء العلماء - ان حق لنا اطلاق هذا اللقب عليهم - نرى إلى جانبهم فئة ضحلة الثقافة ، سيئة السمعة ، حفل التاريخ بذكر نوادرها التي تنم عن احتقار لها .

قد أكون بهذا الحديث استطردت الى جوانب لا نرى ضرورة لذكرها الا ان غايتي من هذا العرض اعطاء صورة - ولو تقريبية - عن هذه المدارس وما يمكن أن تقدمه للصبيان ؛ حتى نخلص من ذلك الى تصور الكتاب الذي نشأ فيه شاعرنا .

وقد وصف بعض المتأخرين هذه المدرسة بأنها ارستقراطية[١٣]، ويبدو ان لفظ اشراف الذي ذكره الأصفهاني ، هو الذي ساقهم الى هذا الوصف . وقد دفع هذا اللفظ آخرين الى المحاولة الجادة لربط الشاعر بسلسلة العلويين من جهة جدته لأمه .

وقد اعترض طه حسين على وصف هذا الكتاب أو المدرسة بالارستقراطية حين أشار الى أن الارستقراطيين من العرب لم يكونوا يرسلون أبناءهم الى المدارس ، بل كانوا يتخذون لهم من العلماء أساتذة ومؤدبين ، والحديث عن هؤلاء معروف[١٤].

إن الصورة التي ترسمها الأخبار عن هذا الكتاب أو هذه المدرسة انها

---

(١٢) المصدر السابق ٤٣

(١٣) محمود شاكر . مجلة المقتطف ٢٥

(١٤) مع المتنبي . طه حسين ٣٤

انشئت لتوجيه الصبيان دينيا وفقا لتعاليم الشيعة العلوية ، الى جانب ما كان معهودا في مدارس الصبيان من تزويد الطالب بقدر من علوم العربية : من نحو ولغة وشعر ، وأمثال وأخبار كما يبدو مما ذكره الجاحظ ، وما أورده الأصفهاني حول كتاب العلويين .

شيوخه :

وحين نتطرق الى ذكر من تتلمذ عليهم المتنبي لا نرى في المصادر سوى نصين :

أولهما : ما ذكره الأصفهاني من أن المتنبي وقع في صباه الى أحد المتفلسفة - وهو أبو الفضل الكوفي - فهوسه وأضله[١٥]، وهو الذي مدحه المتنبي بقصيدته :-

كفى أراني ويك لومك ألوما هم أقام على فؤادي أنجما[١٦]

ولا نعرف شيئا من أمر هذا الرجل غير اسمه ، هذا النعت الذي أطلقه عليه الأصفهاني . فربما كان أحد المعلمين في الكتاب الذي التحق به الشاعر في صباه ، أو أحد رواد دكاكين الوراقين التي كان الشاعر يتردد عليها .

ثانيهما : ماورد في مقدمة ديوان مخطوط للشاعر من ذكر العلماء الذين تتلمذ الشاعر على ايديهم أو اتصل بهم ، وهم أبو اسحاق الزجاج ، وأبو بكر ابن السراج ، وأبو الحسن الأخفش ، وأبو موسى الحامض ، وأبو عمر الزاهد ، وأبو نصير ، ونفطويه ، وابن درستويه ، وأبو بكر بن دريد ، وأبو علي الفارسي ، وأبو القاسم عمر بن سيف البغدادي ، وأبو عمران موسى[١٧] .

ولم نر في غير هذا المخطوط أية اشارة إلى تتلمذ شاعرنا على احد

(١٥) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . الأصفهاني ٦
(١٦) التبيان ٤ : ٢٧
(١٧) ديوان المتنبي (ج ١) دار الكتب ١٢٩

هؤلاء الذين ذكرناهم او غيرهم من العلماء . ومن العجيب ان يلتزم النقاد والمؤرخون الصمت إزاء هذا الجانب المهم من تاريخ الشاعر ، مع ما جرت به عادة مؤرخي الأدب من التعرض لهذا الجانب الحيوي ، الذي يقوم بدور لا يخفى أثره في فكر الشاعر أو الأديب .

وقد ناقش عزام في مؤلفه ما ورد بهذه الرواية ، واصدر حكمه بالشك فيها ، اذ ان كثيرا ممن ذكروا بها وافتهم المنية قبل أن يبلغ الشاعر سن المؤهل للتلمذة على أمثالهم من كبار العلماء : فقد توفي أبو موسى الحامض سنة ٣٠٥هـ ، وابو اسحاق الزجاج سنة ٣١١ هجرية وأبو الحسن الأخفش سنة ٣١٥ ، وأبو بكر بن السراج سنة ٣١٦ هجرية[١٨].

ويمكن أن يخرج من هذه الزمرة كذلك ابو عمران موسى بن سلمة النحوي ، فلم يدركه الشاعر مطلقا ؛ اذ كانت وفاته قبل مطلع القرن الرابع الذي ولد فيه الشاعر[١٩].

ومن هؤلاء الذين عددنا أسماءهم طائفة من العلماء المشهورين ببغداد ، وكانت لهم حلقات معروفة بمساجدها : كأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١ هـ) الذي كان من علماء مدرسة البصرة ، وقد قدم بغداد سنة ٣٠٨ هجرية بعد أن ألف كتابه الجمهرة في اللغة[٢٠]، الذي نقل بعض الرواة نبأ اطلاع المتنبي عليه ، كما ورد على لسان الشاعر نفسه استشهاده ببعض أقوال ابن دريد فيما نقل عنه من أقوال[٢١] ولعله سمع هذه الأقوال من ابن دريد نفسه ، إلى جانب ما أفاده من قراءته لمؤلفاته .

أما ابراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه ، فقد جلس ببغداد خمسين سنة الى أن توفي سنة ٣٢٣هـ يدرس بجامعها علوم الدين واللغة ، الى

---

(١٨) ذكرى أبي الطيب . عبد الوهاب عزام ٤١

(١٩) نزهة الالباء . ابن الانباري ١٤٥ ، تاريخ بغداد ١٣ ، ٤٣

(٢٠) نزهة الالباء ١٩١ ، تاريخ بغداد ٢ : ١٩٥ ، ١٩٧

(٢١) راجع الثقافة اللغوية

جانب النحو الكوفي الذي كان أحد أعلامه المبرزين[٢٢]. ومن مدرسة الكوفة كذلك محمد بن عبدالواحد أبو عمر الزاهد (ت ٣٤٥ هـ) الذي عرف بمؤلفاته في اللغة .مثل فائت الفصيح لثعلب ، وكتاب الياقوت وهو معجم لغوي[٢٣]. ومن البصريين ابو محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه ، الذي اتخذ من بغداد مقرا له حتى وفاته سنة ٣٤٧هـ[٢٤].

ونحن لا نعلم بالتحديد متى سافر المتنبي في زيارته الاولى لبغداد وقد افترض بلاشير انه خرج اليها سنة ٣١٦ هـ[٢٥] اعتمادا على الفرض السابق الذي وضعه وربط فيه حركة الشاعر بغارات القرامطة على هذه المنطقة . ونحن لا نملك التسليم بما ذكر بلاشير ، وان كنا نظن ان سفره اليها كان قبل سنة ٣٢١ هـ .

ولا نرى لهذه الزيارة ذكرا فيما نقل من اخبار الشاعر ، سوى حادثة تروى على لسانه وقعت له باحد اسواق بغداد[٢٦]. ولعل هذا الصمت الذي التزمه المؤرخون ازاءها يبعث على الظن بانه لم يطل المقام في بغداد . ولو فعل لنقل المؤرخون نبأ اتصاله بحلقاتها العلمية واوساطها الادبية . وقصر اقامته بهذه المدينة يجعل من الصعب عقد صلة تلمذة بينه وبين هؤلاء العلماء الذين ذكرناهم وان كنا لا ننفي احتمال سماعه عنهم .

التقى المتنبي بأبي علي الفارسي مرتين : احداهما في حلب ، التي قدم اليها الفارسي سنة ٣٤١ هـ[٢٧]. وقد نقل المؤرخون أنباء المجالس التي جرت بين المتنبي وأبي علي الفارسي كندّين في ندوة ألف اعضاؤها البحث والنظر . ومن هذه الاخبار ما يذكرونه من سؤال الفارسي للمتنبي عن الجموع على وزن

(٢٢) نزهة الألباء ١٩٤ ، معجم الأدباء ١ : ٢٥٤
(٢٣) نزهة الألباء ٢٠٦
(٢٤) المصدر نفسه ٢١٣
(٢٥) Blachere: About-Tayyib Al Motanabbi p. 32.
(٢٦) الصبح المنبي .. البديعي ٩٦
(٢٧) م . ن

فعلى ، وأجابه المتنبي بانهما حجلى وظربى ثم اقرار الفارسي بانه بحث واستقصى فلم يجد لهما ثالثا ؛ مما حداه الى الاعتراف بفضل الشاعر [٢٨].

وكان اللقاء الثاني ببلاط عضد الدولة البويهي بشيراز . وكان الفارسي يعيب على الشاعر تعاظمه وتعاليه ؛ مما حدا بابن جنى صديق الشاعر الى محاولة ازالة ما شاب نفسه من فتور تجاه الشاعر[٢٩]. وقد وفق ابن جنى - فيما يبدو - في مسعاه ؛ حتى اننا رأينا الفارسي يثني على الشاعر في حضرة عضد الدولة . وتوطدت بين الشاعر وأبي علي أواصر المودة ؛ حتى أقبل على زيارته وكتابة بعض شعره[٣٠].

ولعل اغفال المصادر ذكر شيوخ المتنبي وأساتذته الذين تتلمذ على ايديهم هي التي دفعت طه حسين الى القول بأن الشاعر «تعلم على غير معلم ، ولم يأخذ ثقافته عن الأساتذة والنقاد ، وانما أخذها عن الكتب والمصاحف»[٣١].

البيئات التي عاش فيها :

كانت مدينة الكوفة مسقط رأس المتنبي ، وقد تعلم بكتابها - كما رأينا - وعاش في أرجائها متنقلا بين مجالسها المختلفة في المساجد ودكاكين الوراقين . وفي الكوفة تفتحت موهبته لقول الشعر في صباه ؛ فأرسله أبوه الى بادية السماوة حيث عاش زمنا ، عاد بعدها الى موطنه ، ولم يعرف الاستقرار بالكوفة بعد ذلك طوال حياته[٣٢].

لقد ضاقت الكوفة بطموح الشاعر وآماله العريضة ، فغادرها ضاربا فيما حولها من الاقاليم - كعادة الشعراء في عصره - لطلب الشهرة والمجد . وقد رحل إلى شمال الشام ، متنقلا بين المدن : كاللاذقية ، وطرسوس ، ودمشق ، وغيرها مادحا أمراءها وكبراءها : كبدر بن عمار ، والتنوخيين

(٢٨) الصبح المنبي الحديثي ١٤٣
(٢٩) المصدر السابق ١٦١
(٣٠) المصدر نفسه ١٦٣
(٣١) مع المتنبي . طه حسين ١١٣
(٣٢) نزهة الألباء . ابن الأنباري ٢٢٠

وآخرين . ولكن هذه الرحلة لم تحقق للمتنبي ما كان يجيش في صدره من أمان وأحلام . ولم ير فيما قصد من الاوساط بيئة مثقفة ، تشبع ميله الى العلم والمعرفة ، وتهيىء له ما كان يطمح اليه من شهرة .

ووجد الشاعر في إمارة حلب ، وأميرها كعبة آماله ؛ فقصده مادحا ، واستقر بحلب زمنا (٣٣٨-٣٤٦هجرية) حيث قضى اكثر سني حياته نشاطا وانتاجا .

وقاده طموحه الى الاخشيديين في مصر حيث قضى أربع سنوات ، عاد بعدها الى العراق ، فزار بغداد ، ثم وجه ركابه الى فارس حيث ابن العميد ، وعضد الدولة البويهي ، وكانت خاتمة المطاف شيراز .

وقد عرف المتنبي بصفات مميزة ، أهلته للاستفادة من ثقافة الأوساط التي عاش فيها . فنهل من معين المعرفة أينما وجده ؛ فقد نشأ محبا للعلم والأدب . وخليق بمن خالط هذا الهوى قلبه أن ينفق جهده وماله في سبيل الدرس والتحصيل .

لذلك وجدنا المصادر تتحدث عن ملازمته للوراقين[٣٣]. ويمكن القول أن هذه الصحبة مكنته من الاطلاع على كثير من نوادر المؤلفات ، وهيأت له سبيل الاتصال بكثير من المثقفين - إن جازلنا هذا التعبير - فلم تكن مهمة هذه الدكاكين بيع الكتب فحسب ، بل امتدت الى تهيئة جو علمي ، يلتقي فيه العلماء للبحث والنظر[٣٤].

كان شاعرنا حريصا على طلب المعرفة ، ويسخر في سبيل هذه الغاية الساعات الطوال ، يقضيها ساهرا على كتاب يطالعه[٣٥]. ولم تكن الكتب تفارقه حتى في أسفاره . وقد تحدث أحد الباحثين عن حرصه على حمل كتبه في الأسفار ، وعزا ذلك الى اشفاقه على كتبه ودفاتره التي انتخبها بنفسه ،

(٣٣) أخبار سيبويه المصري ابن زولاق
(٣٤) الصبح المنبي . البديعي ٩٥
(٣٥) الصبح المنبي . البديعي ١٧٣

وأحكمها قراءة وتصحيحا[٣٦]. ويؤيد ذلك ماروى عن الكتب التي وجدت معه عندما قتل ، وما كان عليها من ملاحظات دونها بيده[٣٧]. ولا شك ان في هذا الحرص دليلا على حب شاعرنا للعلم ، وتمكن القراءة من نفسه .

والى جانب هذا الدأب والحرص منح شاعرنا ذاكرة قوية ، مكنته من تحصيل ثمرات ما يطالعه بسهولة ويسر . نستدل على ذلك بما يرويه أبو الحسن محمد بن يحيى العلوي عن أحد الوراقين قال : «مارأيت أحفظ من هذا الفتى : اليوم كان عندي ، وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعي يكون نحوا من ثلاثين ورقة ليبيعه . فنظر فيه طويلا . فقال له الرجل : أريد بيعه ، وقد قطعتني عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه فهذا يكون ان شاء الله بعد شهر ... فقال : فأن كنت قد حفظته في هذه المدة فمالي عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب . قال : فأخذه من يده ، وأقبل يتلوه حتى أتى على آخره»[٣٨].

لقد وردت هذه الرواية على نمط انتشر في كتب الأدب عن شعراء وأدباء تميزوا بحافظة نادرة . كالذي يروى عن الشاعر أبي العلاء المعري من روايات متعددة ، وما حكى عن ابن عباس وعن أبي تمام وبديع الزمان الهمذاني[٣٩]. وقد يتطرق الشك الينا عندما نطالع أمثال هذه الروايات التي ارتبطت بطائفة معينة ، فنرى عليها طابع الوضع ؛ لما فيها من مبالغة في وصف القدرة الخارقة على الحفظ ، ولكن مما لاشك فيه ان هناك واقعا وراء نسج أمثال هذه القصص ، وهو تميز هؤلاء الأدباء بذاكرة قوية ؛ مما أدى الى نسج هذه القصص حولهم .

وقد اختلف أثر هذه الرحلات في فكر الشاعر وفقا لأهمية المكان الذي حل به ، وما بلغه من رقي ثقافي وحضاري ، ومن وجد به من الفضلاء . وسنعرض فيما يلي بعض المجتمعات التي غشيها شاعرنا ، وحياته بها .

---

(٣٦) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . الاصفهاني ١٠
(٣٧) نزهة الألباء ابن الانباري ٢٢٠ ، الصبح المنبي ٢٠
(٣٨) الصبح المنبي . البديعي ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٤ .
(٣٩) المصدر نفسه ٢٠

البادية :

وتتحدث المصادر عن ارتحال الشاعر الى البادية ، وأقدمها ما نقله البديعي عن أبي الحسن العلوي ، الذي ذكر ان المتنبي «صحب الأعراب في البادية ، وجاءنا بعد سنين بدويا قحا»[٤٠].

لماذا رحل الشاعر الى البادية ؟ ومتى رحل اليها ؟ وكم قضى بين ربوعها ؟ وما القبائل التي استقر الشاعر بين ظهرانيها ؟ وهل كان لهذه الرحلة أثر واضح في فكر الشاعر ؟

لم نر فيما بين أيدينا من أخبار ما يحدد تاريخ خروج الشاعر من الكوفة ، او المدة التي قضاها في ربوع البادية . ولكننا رأينا بعض الباحثين المحدثين يربط رحيل الشاعر بالاوضاع السياسية التي سادت الكوفة ؛ فقد تعرضت هذه المدينة لغزو القرامطة وتخريبهم مما اضطر الشاعر وأسرته الى ان يرحلوا تاركين موطنهم ، ووجدوا في البادية بعض الأمان الذي افتقدوه في الكوفة .

وانطلاقا من هذا الفرض رأينا بلاشير يحدد سنة ٣١٢ هـ[٤١] تاريخا لخروج الشاعر ، ويجعل مدة اقامته بالبادية سنتين . ويبدو ان بلاشير كما ذكر عزام : أعلن ذلك بسبب خطأ في قراءة لفظ سنين[٤٢] الذي ورد في حديث العلوي ، ونقله ابن الأنباري والبديعي[٤٣].

ولكننا لا نرى فيما نقل عن الشاعر ما يؤيد هذا الزعم فحديث القدماء عن هذه الرحلة ليس به أدنى اشارة الى غزو القرامطة او اضطرار الشاعر الى الرحيل ؛ مما لا يسمح لنا بالجزم بمثل هذا الفرض ، وإن كنا نظن ان خروجه كان في تاريخ مبكر ، قد يكون مقاربا لما ذكر بلاشير ؛ اذ ان هذه

---

(٤٠) Blachere: About-Tayyib Al Motanabbi p. 30.

(٤١) ذكرى أبي الطيب . عزام ٣٩

(٤٢) الصبح المنبي . البديعي ٢٠ ، نزهة الالباء لابن الانباري ٢١٩

(٤٣) Blachere: About-Tayyib Al Motanabbi p. 28.

الرحلة كانت قبل سفر الشاعر الى بغداد ، الذي سبق رحلته الى الشام سنة ٣٢١ هـ .

وقد استقر الشاعر في بادية السماوة بين العراق والشام ، حيث قبائل بني كلب ، وكان نزوله في بني سبع ، من جشم بن همدان ، واليها تنتسب أسرة والدته .

أما آثار هذه الرحلة في فكر الشاعر فنلمحه في جانبين :

أولها : أثر البادية في لغة الشاعر . فان اقامته بين الاعراب قد أفادته بشهادة القدماء ؛ إذ عاد من البادية بدويا قحا . وفي شعر المتنبي وخلقه خير دليل على أثر هذه الرحلة .

ثانيها : أشار بلاشير وطه حسين الى أثر البادية في التفكير الديني للشاعر ، وأعني بذلك ما أفترضه هذان الباحثان من تأثير الدعوة القرمطية . ففي البادية - كما يرى بلاشير - التقى الشاعر ببعض الدعاة ، وكان بما عرف عنه من ميل الى علوم الشيعة الذي خلقته الوراثة والنشأة الأولى في مدرسة العلويين قادرًا على الموازنة بين ما يعتقده وبين الاتجاهات المذهبية الاخرى[٤٤].

وبعد فان معرفة الأثر الفعلي لحياة البادية في هذين الجانبين : اللغوي ، والديني مما لا نستطيع أن نلم به في هذا المقال ، وسنرجىء الحديث عنه الى حين .

حلب :

لعل أكثر الأوساط تأثيرا في فكر المتنبي بلاط بني حمدان ، الذي قضى فيه الشاعر قرابة ٨ سنوات ينهل فيه من معين الثقافات التي عرفت في هذه البيئة ، من علمية وأدبية .

---

(٤٤) مع المتنبي ، طه حسين ٤٣
Blachere: About-Tayyib Al Motanabbi 28-30.

وقد ظفرت امارة بني حمدان بعناية المؤرخين والباحثين الذين اطنبوا في وصف حضارتها وثقافتها وذكر فضلائها ؛ فقد استطاع سيف الدولة أن يجذب اليه عددا من العلماء والأدباء قلما نراه في بلاط أمير مثله ، واستطاع ان يحقق بهم نهضة أدبية وعلمية واسعة .

وقد احتفل كتاب اليتيمة وغيره بذكر هؤلاء الادباء الذين جمعهم سيف الدولة ونقل نبذا من اخبارهم وأشعارهم . ولعل هذا المؤلف خير مصور لطبيعة الحياة الأدبية التي وجدت في هذه البيئة . كان من الشعراء أبو فراس الحارث بن سعيد الحمداني ، وأبو بكر الصنوبري ، وأبو العباس أحمد بن محمد الدارمي النامي ، وعلي بن عبدالله الناشيء الأصغر ، والسري الرفاء بن أحمد الكندي ، وأبو الفرج عبد الواحد بن نصر الببغاء ، ومحمد بن أحمد الوأواء الدمشقي ، ومحمود بن الحسين السندي المعروف بكشاجم ، وأبو بكر وأبو عثمان الخالديان ، وأبو حصين الرقي ، وأبو القاسم الشيظمي ، وأبو نصر ابن نباتة ، وأبو العباس الصفري ، وابن دينار ، وابن كوجك ؛ ومن العلماء : الحسين بن خالويه ، وعبد الواحد بن علي المعروف بأبي الطيب اللغوي ، وأبو على الحسن بن احمد بن عبد الغفار الفارسي ، والقاضي علي بن محمد التنوخي ، وابن نصر البازيار ، وأبو الحسن الشمشاطي ، ومن الفلاسفة : محمد بن نصر بن طرخان الفارابي .

وقد حقق سيف الدولة في امارته صورة رائعة للبيئة العلمية الزاخرة بالحركة والنشاط والانتاج . ولعل هذا الازدهار والرقي الثقافي والحضاري هو الذي دفع بلاشير الى القول بأن الشرقيين قد بالغوا في وصف هذه الحضارة[٤٥] ، أو أنها أفرطت في الاعلان عن نفسها ، ونافست بغداد عاصمة الخلافة على الرغم من حداثتها كما يرى طه حسين[٤٦] .

لقد كان الأمير سيف الدولة الحمداني - الذى قصده شاعرنا

(٤٥) Blachere: About Tayyib Al Motanabbi. 131.

(٤٦) مع المتنبي . طه حسين ١٨٢

المتنبي - رجلا مثقفا تتلمذ على ابن خالويه الأديب اللغوي المعروف ، فتولى بنفسه الأشراف على هذا النشاط الثقافي الذي شهده البلاط الحمداني .

كان الأمير يجمع العلماء والأدباء في مجلسه كل ليلة[٤٧]، فيتباحثون في شؤون العلم والأدب ، وتدور بينهم المناظرات والمساجلات التي نقل الينا التاريخ نبذا منها ، مثل ما يروى عن شاعرنا وابن خالويه وغيرهما[٤٨] . ولم يكن الأمر مقصورا على مجلس الأمير ، بل رأينا مثل هذه المجالس تعقد في بيوت الوزراء والكبراء : كأبي أحمد بن نصر البازيار : وزير سيف الدولة[٤٩].

وكان سيف الدولة يرسل لعلمائه ما يعترضه من مسائل ، فيبادرون للبحث عن الأجوبة الشافية لها . فقد ذكر أبو على الصقلي انه كان في مجلس ابن خالويه اذ وردت عليه من سيف الدولة مسائل تتعلق باللغة ، فاضطرب لها ودخل خزانته وأخرج لها كتب اللغة ، وفرقها على من كان عنده من أصحابه يفتشونها باحثين عنها[٥٠].

ولم يكن يقبل عضوا جديدا في زمرته الا بعد التأكد من جدارته وغزارة علمه . وربما كلف علماءه بامتحان هذا الوافد الجديد ، مثل ما يروى من استدعائه لابن خالويه عندما قدم عليه أبو الطيب اللغوي . وقد علق المتنبي على ذلك بقوله «الساعة يسأل الرجل عن شوط براح والعلوض ونحو ذلك»[٥١].

وكان الأمير كريما يجزل العطاء لرجاله . ولا شك ان هذا السخاء قد حقق لهؤلاء العلماء والأدباء ما ينشدون من الاستقرار المادي ،ففرغوا لرسالة العلم مكرسين لها وقتهم وجهدهم ، حتى يحققوا لأنفسهم منزلة في هذا البلاط الزاخر بالأنداد حتى ليروى انه اعطى أبا الفرج الأصفهاني ألف دينار عندما

(٤٧) وفيات الأعيان . ابن خلكان ١ : ١٠٤
(٤٨) الصبح المنبي . البديعي ٨٦
(٤٩) اعلام النبلاء ٣٥/٤-٣٦
(٥٠) رسالة الغفران . المعري ٥١٣-٥١٤
(٥١) وفيات الأعيان . ابن خلكان ٢ : ٤٦٨

أهدى له كتابه الأغاني[٥٢].

وقد هيأ بقصره مكتبة زاخــرة حفلت بنوادر المؤلفــات ، تولى أمرها الأديب المعروف بالصنوبري ، وتولاها من بعده الأخوان الخالديان[٥٣].

وكان من الطبيعي ازاء هذه الحوافز المختلفة أن تزدهر حـركة التأليف ازدهارا واسعا شهدته المكتبة العـربية من هؤلاء العلماء . فلابن خـالويه الجمل في النحو ، وكتاب الاشتقاق ، وكتاب اعراب ثلاثين سورة ، وشرح المقصورة لابن دريد ، والمقصـور والمدود ، وكتاب المذكر والمؤنث ، وكتاب الألفـات ، وكتاب البديع في القراءات السبع[٥٤].

ولأبي الطيب اللغـوي كتاب الابدال ، وكتاب شـجرة الدر ، وكتاب الفـرق[٥٥]، ومن مؤلفـات الشـعراء كتاب الديرة ، وكتاب المحـــب والمحبوب ، وكتاب المشـموم والمشروب للسري الرفاء[٥٦]، وأدب النديم ، والمصـايد والمطارد لكشاجم[٥٧]، وحماسة شعر المحدثين ، وكتاب أخبار أبي تمام ومحـاسن شـعره ، وكتاب أخبار الموصـل ، وأخبار ابن الرومي ، واختيار شـعر البحــتري ، واختيار شعر مسلم ، والمختار من شعر بشار ، والأشـباه والنظائر ، والديارات للخالديين[٥٨].

ولعل ثمار حـركة التأليف هذه الى جـانب دواوين الشـعراء - الذين زاد انتاجهـم بلا ريب في هذا البلاط - هي التي حـدت بكاتب معــروف كالخوارزمي الى القول بأنه «ما فتق قلبي وشحذ فهمي وصقل ذهني وأرهف حد لساني وبلغ هذا المبلغ بي الا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي

(٥٢) فوات الوفيات ٢ : ٢٧١
(٥٣) وفيات الأعيان ١ : ٤٣٤
(٥٤) معجم الأدباء . ياقوت الحموي ١١ : ١٧٥
(٥٥) معجم الأدباء ١١ : ١٨٥
(٥٦) شذرات الذهب . ابن العماد ٣ : ٣٧
(٥٧) الفهرست . ابن النديم ١٦٩
(٥٨) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ١٠

علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي"[٥٩].

وكانت أخبار هذا البلاط وانتاج شعرائه موضع اهتمام الأدباء في غيره من الأقطار . ومن هؤلاء الصاحب بن عباد الذي جمع من شعر حلب مجلدا ضخما ، كان لا يفارقه ولا يملأ أحد منه عينه»"[٦٠].

وفي شهادة هذين الأديبين دليل على مدى النهضة التي حققها سيف الدولة ، فقد مثلت حلب في عهده منارا يضيء ما حوله .

في هذا الوسط عاش المتنبي ، وشارك بشعره وعلمه في هذه النهضة العظيمة . وكان شاعرنا يحس بأهمية هؤلاء الأدباء الذين حل بينهم . وكان حريصا كغيره على احراز المكانة اللائقة بينهم . لذلك نراه يجيب حين سئل عن تراجم شعره بعد مفارقته سيف الدولة بقوله : «قد تجوزت في قولي ، وأعفيت طبعي ، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان» وفيهم من يقول :

تسائلني من أنت وهي عليمة ... وهل بفتى مثلي على حاله نكر

وفيهم من يقول :

وقد علمت بما لاقته منا ... قبائل يعرب وبني نزار

ومن يقول :

أأخا الفوارس لورأيت مواقفي ... والخيل من تحت الفوارس تنحط"[٦١]

وقد عنى المتنبي بقوله أبا فراس ، وأبا زهير بن مهلهل بن نصر بن حمدان ، وأبا العشائر . فقد كان أبو فراس أقوى منافسيه لدى سيف الدولة ؛ لجودة شعره ولصلة القرابة التي تربطه بالأمير . فقد يكون احساس المتنبي بتميز شعراء هذا البلاط هو الذي دفعه الى اصدار هذا الحكم على شعره . فأبو فراس هو الذي وقف أمام المتنبي حين أنشد قصيدته :

واحر قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم

(٥٩) المصدر نفسه ١ : ٩ .
(٦٠) الصبح المنبي . البديعي ١٨
(٦١) الصبح البديعي ٨٤

وطفق يناقشه فيما استعار من غيره من الشعراء[٦٢].

وكانت حملة اللغويين وعلى رأسهم ابن خالويه من أشد ما جابه شاعرنا في حلب . فما فتىء هؤلاء يتصدون للشاعر ماعدوه من سقط شعره . وكان المتنبي يجيب على ما يوجهون اليه من انتقادات ، ويقارعهم بالحجة البينة . وكان عناد الشاعر في مواجهتهم الى جانب المكانة العالية التي نالها لدى الأمير سببا في العداء السافر الذي لم يفلح هؤلاء وغيرهم في اخفائه ، والذي دفعهم الى احداث الوقيعة بين الصديقين وحمل الشاعر على مغادرة حلب كارها .

وكان الأمير نفسه يتصدى للشعراء بملاحظاته وتلميحاته الذكية ، كما نلاحظ من مناقشته للمتنبي في قوله :

وقفت ومافي الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردىٰ وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   ووجهك وضاح وثغرك باسم

حيث قال للشاعر : قد انتقدتها عليك كما انتقد على امريء القيس قوله :

كأني لم أركب جوادا ولم أقل   لخيلي كرى كرة بعد اجفال
ولم أسبأ الزق الروي للذة   ولم أتبطن كاعباذات خلخال[٦٣]

وقد جلس المتنبي لشرح ديوانه ، وكانت هذه عادته في كل مكان حل به . ومن سمع شعره بحلب الخطيب ابن نباتة السعدي[٦٤]، وأبو بكر الخوارزمي[٦٥] الكاتب ، ومحمد بن أحمد المغربي[٦٦].

وقد تناثرت ملاحظات بلاط حلب على شعر المتنبي فيما أُثر عنه وعن علماء هذا الوسط من أخبار . وهذه الملاحظات - على قلتها - تنبيء عن

(٦٢) الصبح المنبي . البديعي ٨٤
(٦٣) وفيات الاعيان . ابن خلكان ٢ : ٣٣١
(٦٤) شرح ديوان المتنبي . الواحدي ٣٥٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٧٦٨ .
(٦٥) معجم الأدباء . ياقوت الحموي ١٧/١٢٧-١٢٨
(٦٦) ياقوت الحموي ١٧ : ١٢٧-١٢٨

وعي هذه البيئة . ولكننا من ناحية أخرى لم نصادف مؤلفا خصص للشاعر وشعره فيما وصل الينا من مؤلفات ، وان بلغنا خبر بعضها مثل ما يروى عن تأليف محمد بن أحمد المغربي راوية المتنبي لكتابي «الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي ، والتنبيه المنبي عن رذائل المتنبي[٦٧]» ، وما نقله ابن وكيع في المنصف عن أحمد بن محمد الدارمي المصيصى المعروف بالنامي من ملاحظات عن شعر المتنبي[٦٨] ، توحى بأنه وضع كتابا لنقد شعره . وقد افترض احسان عباس ان هذا المؤلف كان في مساوىء الشاعر ؛ استنادا الى ما نقله ابن وكيع . ومن المعروف ان النامي أحد الذين حسدوا الشاعر لمنزلته لدى الدولة ، مما يرجح ما ذكره احسان عباس الذي عد هذا المؤلف «أقدم ما كتب في الكشف عما كان مما يعد خطأ في شعر المتنبي من حيث سوء اللفظ ، أو تعمد السرقة ، أو الغموض في التعبير»[٦٩].

وقد أهدى أبو الفرج الاصفهاني كتابه للأمير الحمداني دون أن يأتي على ذكر أول شعرائه وأقربهم الى نفسه ، رغم انه ذكر أخبار البحتري وأبي تمام ، وكثير من معاصيرهما وغيرهم من المشهورين كأبي نواس ، ودعبل الخزاعي . وقد التقى الأصفهاني بالشاعر في بغداد حيث كانت بينهما أحاديث . فان كان قد انتهى من تأليف الكتاب قبل هذا اللقاء فلابد انه قد سمع بالشاعر الذي ملأت شهرته الآفاق . ولعل الأصفهاني تعمد تجاهل الشاعر فقد كان من جلساء المهلبي في بغداد ، وفيما بين أيدينا من أخبار وما أثر من مؤلفات عن بلاط الوزير المهلبي صورة واضحة عن روح العداء التي واجهها الشاعر فيه . ولم يشأ الأصفهاني أن يسهم في ثلب الشاعر وتجريحه ؛ حتى لا يغضب الأمير الذي كان يطمع في اهداء الكتاب اليه ونيل جائزته[٧٠].

والى جانب هذه النهضة الأدبية رأينا ازدهارا واسعا للعلوم العقلية :

(٦٧) المنصف . ابن وكيع (خ ٦٠ أ)

(٦٨) تاريخ النقد . احسان عباس ٢٧١

(٦٩) وفيات الأعيان . ابن خلكان ٤ : ٢٤٠

(٧٠) المصدر نفسه ٤ : ٢٤٢ ، عيون الانباء لابن أبي أصيبعة ٢ : ١٣٧

كالمنطق ، والفلسفة ، والعلوم الطبيعية : كالطب ، والفلك .

وقد حمل لواء النهضة الفلسفية الفيلسوف أبو نصر الفارابي الذي قدم الى حلب بعد أن وضع معظم مؤلفاته ببغداد ومصر ودمشق[٧١] . وربطت بينه وبين الشاعر صداقة وطد دعائمها ما كان بينهما من ميول مشتركة . فقد كان للفارابي اهتمام بالشعر والنحو واللغة ، ورويت عنه بعض الأشعار[٧٢] ، وعرف المتنبي بحبه للفلسفة ، فهيأت له صحبة الفارابي الاطلاع على كثير من مسائل هذا العلم .

ولعل وجود الفارابي في مجالس الأمير كفيل باضفاء كثير من العمق على ما كان يدور فيها من مناقشات . ومن المؤسف ألا نرى شيئًا من هذه المناقشات فيما بين أيدينا من مصادر ، وان كنا نجد ما يمكن أن يكون مماثلا لها فيما نقله أبو حيان في «الامتاع والمؤانسة» .

مصر :

وجد المتنبي في مصر بلدا ذا حضارة عريقة نشطت فيها الحياة الفكرية ، وزخرت بكل ما عرف القرن الرابع من معارف وآراء .

وقد لقي الشاعر هذا النشاط الفكري في كل مكان ، فهو في بلاط حاكمها كافور الاخشيدي الذي جمع الى دهائه السياسي الماما باللغة والأدب[٧٣] ، عرف به الى جانب الصورة القبيحة التي رسمتها له بعض المصادر[٧٤] ، وأسهم الشاعر في تشكيلها بما صاغه حول هذا الرجل من هجاء مقذع . فقد جعل كافور من مجلسه ندوة تسمع فيها السير وأخبار الدول[٧٥] ، ويلتقي فيها الشعراء ، فيتناشدون الأشعار ، ويدور بينهم النقاش في مختلف المسائل[٧٦] .

---

(٧١) النجوم الزاهرة . ابن تغري بردى ٤ : ٦

(٧٢) أخبار سيبويه المصري لابن زولاق ٥٥ ، الصبح المنبي . البديعي ١١٠

(٧٣) النجوم الزاهرة ٤ : ٦

(٧٤) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ٣٧٣

(٧٥) وفيات الاعيان ، ابن خلكان ١ : ٣٠٦

(٧٦) شرح ابن جني ١ : ٣٥٨

ووجدت هذه المجالس في قصور وزرائه من أفاضل العصر : كالوزير جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة الذي عرف بطول باعه في علوم الحديث ، وذاع صيت مؤلفاته في أسماء الرجال والأنساب[٧٧]، وجعل من قصره ندوة للعلماء أوقف لها مكتبته العامرة بكثير من المؤلفات في مختلف العلوم[٧٨].

وقد امتدت هذه المجالس الى مساجد مصر التي ضمت بين أرجائها حلقات علمية كانت مقصد رواد العلم وطلاب المعرفة من كل مكان ، والى سوق الوراقين الذي جمع بين تجارة الكتب ومجالس العلم والأدب[٧٩].

لم يكن بمصر حين قصدها المتنبي من الشعراء من بلغ مبلغه من الشهرة . ولعل هذا يفسر سر تشوق كافور لقدوم الشاعر الى قصره ومدحه له . وأهم الشعراء الذين قابلهم الشاعر بها : أبو حامد بن محمد الأنطاكي المعروف بابن الرقعمق[٨٠]، وابن أبي العفير الأنصاري[٧] ومحمد بن القاسم الموقفي ، وابن وكيع التنيسي ، وقد ضاع كثير من اشعار هؤلاء وغيرهم ، وورد بعضها فيما بين أيدينا من مؤلفات كيتيمة الدهر للثعالبي ،والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد الاندلسي .

ويمكن القول ان علوم النحو واللغة قد لقيت عناية كبيرة في هذه الفترة ، اذ تولى بعض رجالها مناصب كبيرة في الدولة ، هيأت لهم السبل لتشجيع هذه الدراسات ، مثل ابراهيم بن عبدالله النجيرمي الذي كان كاتبا لكافور[٨١]. وقد التقى المتنبي بعبيدالله بن أبي الجوع ، وبعلي بن احمد المهلبي ، الذي روى انه استغل صلته بالشاعر وملازمته له فجمع ما أملاه المتنبي من ملاحظات على كتاب المنقوص والممدود لابن ولاد وادعاها لنفسه ، مما دعا علي بن حمزة البصري الى اطلاق لقب الدعي عليه . كذلك التقى بأبي بكر

(٧٧) اخبار سيبويه المصري ابن زولاق ١٨ ، ٥١
(٧٨) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ٢٦٩
(٧٩) بغية الوعاة . السيوطي ٤١٤-٤١٥
(٨٠) المصدر نفسه ١ : ٣٧٣
(٨١) المغرب في حلى المغرب . ابن سعيد الأندلسي ٢٠٠

محمد بن موسى الكندي الصيرفي الملقب بسيبويه المصري .

وقد ازدهرت الدراسات التاريخية وظهر اعلام في هذا العلم ، وعلى رأسهم محمد بن يوسف الكندي صاحب كتاب الولاة والقضاة[٨٢]، وابنه عمر الذي ألف لكافور كتاب فضائل مصر[٨٣]، وتلميذه الحسن بن ابراهيم بن الحسين المصري الشهير بابن زولاق ، وله من التأليف كتاب خطط مصر ، وكتاب تاريخ مصر ، وقضاة مصر ، وأخبار سيبويه المصري ، ولهذا المؤلف الأخير أهمية كبيرة ، فهو الى جانب ما اشتمل عليه من أخبار هذه الشخصية التي كان لها دورها في الحياة الفكرية نراه يلقي ضوءاً على الحياة الأدبية في هذا العصر ، بما أورده من أخبار المجالس الأدبية وصور الحياة الاجتماعية المؤثرة في الأدب .

لقد أقبل شعراء مصر على شعر المتنبي يتدارسونه بينهم حتى لنراهم يقفون على أحد معانيه باحثين عن المصدر الذي أخذه منه[٨٤]، وذلك في قوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي   وأنثني وبياض الصبح يغري بي[٨٥]

وتشدهم كلمة تفاوح التي ذكرها في قوله :

إذا سارت الأحداج فوق نباته   تفاوح مسك الغانيات ورنده

ويتداولونها بينهم[٨٦].

وكثيرا ما كان المتنبي يدخل في مناقشات مع شعراء كافور فيما يصدر عنهم من أشعار مثل ما حدث مع أبي القاسم ابن أبي العفير الأنصاري حين ناقشه الشاعر في قوله «نظر المحب الى المحب غرام»[٨٧].

وقد كان المتنبي طرفا في بحث مسائل النحو واللغة التي دارت بين

---

(٨٢) المصدر نفسه ٢٠٠

(٨٣) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ١١٤ ، شرح ديوان المتنبي . ابن جني ١ : ٣٥٨

(٨٤) التبيان . العكبري ١ : ١٦١

(٨٥) التبيان . العكبري ٢ : ٢٠

(٨٦) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ٣٧٣

(٨٧) المنصف لابن وكيع التنيسي (خ ٣٢ ، ٣٣) ، معجم الأدباء . ياقوت الحموي ١٢ : ٢٢٤

علماء مصر . ووجد في شخصية على بن أحمد المهلبي خلفا لابن خالويه من حيث مجابهة الشاعر بعداء واضح وقد وردت في المصادر أخبار المناظرات التي كانت تقع بينهما[٨٨].

أما عن صلة المتنبي بالحلقات التي زخرت بها مساجد القاهرة ، فقد ذهب محمد عبد الله عنان الى أن الشاعر كان يعقد حلقاته الأدبية في مسجد يعرف بمسجد ابن عمروس ، وهناك يجتمع اليه الأدباء والشعراء . وكانت حلقة المتنبي بلا ريب من أهم مجالس الشعر والأدب والفلسفة في هذا العصر[٨٩].

وقد اعتمد عنان فيما ذهب اليه على ما ذكره ابن بولاق ، قال «حدثني محمد بن الحسين الخوارزمي قال : مررت بسيبويه يوما وهو جالس على مسجد ابن عمروس وهو يقول مدح الناس المتنبي في قوله :

ومن نكدالدنيا على الحر أن يرى عدوا له مامن صداقته بد

وهذا كلام فاسد ؛ لأن الصداقة ضد العداوة ، والصداقة مأخوذة من الصدق ولوقال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له مامن مداراته بد

لكان أحسن وأجود .

وقد بلغ المتنبي ما قاله سيبويه فاطرح كلامه ، فلما كان يوما من الأيام اجتاز المتنبي بمسجد ابن عمروس وسيبويه على المسجد فقيل هذا سيبويه فوقف عليه وقال :

أيها الشيخ قد كنت أحب ان اراك ... فقال له : رعاك الله وأبقاك ...

فقال بلغني أنك انكرت قولي ... فما الصواب عندك فقال له العداوة ضد الصداقة ولكن لو قلت عدوا له ما من مداراته بد . وهذا رجل منا قد قال :

(٨٨) تاريخ الجامع الازهر . محمد عبدالله عنان ٦٤

(٨٩) اخبار سيبويه المصري . ابن زولاق ٤٤-٤٥

أتاني في قيص اللاذ يسعى عدو لن يلقب بالحبيب

فتبسم المتنبي وانصرف وسيبويه يصبح أبكم»[٩٠].

ولا أرى فيما ذكر ابن زولاق ما يفيد ان المتنبي قد جلس للتدريس بهذا المسجد وكل ما ذكر انه اجتاز بالمسجد فليس بامكاننا ان نحمل الرواية اكثر مما تتحمل .

وقد وجدنا في المصادر اشارة الى مسجد ابن عمروس ، وليس عمروس مما دفعنا الى تصور حدوث تحريف في الاسم ، وذلك ما حاولنا التثبت منه بالرجوع الى تحديد إبن زولاق لمكان المسجد بسوق البربر ، ولكننا لم نصل الى رأي نقطع به[٩١].

وقد ذهب شعيب مذهب عنان ، وان كان قد أورد اسم المسجد مختلفا حيث أسماه مسجد عمرو[٩٢] . وهذه التسمية قد توحي بأن الباحث يعني بجامع عمرو مسجد عمرو بن العاص الذي كان من أشهر المجتمعات العلمية والأدبية ، والذي قصده الشاعر أبو تمام ، واغترف من معين الثقافات التي كانت تدور في أرجائه . ويبدو ان شهرة هذا المسجد ، وما عرف به من نشاط ثقافي جعلتا الباحث يذكره ظناً منه ان تحريفا وقع بالاسم . وتصادفنا رواية اخرى مفادها ان الخطيب الوحيد بن عسال حج ، فلما انصرف تطلع الى لقاء المتنبي ، ورأى ان لقاءه فائدة يكتسبها .. فصار اليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ففاوضه قليلاً[٩٣]. لقد نصت هذه المصادر على اجتماع هذا الوافد لشاعرنا في مسجد عمرو بن العاص فهل كان ذلك محض مصادفة ام انها عادة المتنبي في لزوم الحلقات للبحث والنظر .

---

(٩٠) الانتصار بواسطة عقد الأمصار . ابن دقاق ، ويلاحظ ان ابن دقاق أشار الى دار ابن عمروس في موضع آخر ٤ : ٩ ، كذلك أشارت سيدة الكاشف الى وجود المسجدين بمصر . مصر في عهد الاخشيديين ٣٠٤

(٩١) المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث . عبد الرحمن شعيب ٣٤

(٩٢) معجم الأدباء ٤ : ٢٢٢

(٩٣) معجم الأدباء ، ياقوت ١٢ : ٢٢٤

مسجد عمرو بن العاص ، فهل كان ذلك محض مصادفة أم انها عادة المتنبي في لزوم الحلقات للبحث والنظر ؟

نحن لا نملك الجزم بأن المتنبي كانت له حلقته بالمسجد المذكور استنادا الى هذه الرواية وإن كنت ارجحها على سابقتها ، غير اننا لا نظن ان شاعرا كالمتنبي يغفل عن الاستفادة من البيئات العلمية الموجودة ، وهو الشاعر المعروف ببحثه عن المعرفة في كل مكان يحل فيه .

وقد جلس المتنبي لتدريس ديوانه . ونقلت الشروح أسماء أعلام من الأدباء ممن جلسوا امام الشاعر يستمعون اليه ويكتبون ما يمليه عليهم من شروح وتعليقات . ومن هؤلاء علي بن احمد المهلبي[٩٤]، وعبيدالله بن ابي الجوع[٩٥]، وصالح بن رشيدين[٩٦] احد أئمة الكتاب . وقد نقل عنه الثعالبي في اليتيمة ، وياقوت الحموي في معجمه كثيراً من اخبار الشعراء المعاصرين له ، ما قد يوحي الينا بأنه عني بجمع هذه الاخبار والاشعار[٩٧] في كتاب استق هذان المؤلفان ما نقلاه . وربما كانت هذه المجالس وغيرها مما أثر عن المتنبي فقد عقدها الشاعر بأحد المساجد ، وقد يكون مسجد عمرو بن العاص لشهرته التي تتناسب مع شاعر كأبي الطيب المتنبي .

وظهر أثر هذه المجالس التي كانت تعقد لدراسة شعر المتنبي فيما نشأ حول الشاعر من شروح ودراسات نقدية ، مثل كتاب «المنصف للسارق والمسروق في اظهار سرقات أبي الطيب المتنبي»[٩٨] لابن وكيع التنيسي (ت ٣٩٣هـ) الذي ألفه بتأثير أستاذه المهلبي ، الذي كان أحد جلساء المتنبي في مصر[٩٩].

---

(٩٤) معجم الادباء . ياقوت ١٢ : ٢٢٤

(٩٥) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ٣٥٣

(٩٦) المصدر نفسه ١ : ٣٥٧

(٩٧) المغرب في حلى المغرب . ابن سعيد الأندلسي ٢٥٣

(٩٨) اليتيمة ١ : ٣٧٢

(٩٩) المنصف لابن وكيع (ق ٣٤ أ-٩٥ ب) معجم الأدباء ياقوت الحموي ١٢ : ٢٢٤

بغـــداد :

اجتذبت عاصمة الخلافة بغداد أبا الطيب المتنبي ، فقصدها في صباه لينهل من معين المعارف التي حفلت بها . ولكننا لم نر في أخبار الشاعر حديثا عن رحلته المبكرة الى بغداد . ومن ثم لم نعرف متى قصدها بالتحديد ، ولا المدة التي مكثها بها ، وان كنا نرجح ان ذلك كان قبل خروجه الى الشام سنة ٣٢١ هجرية[١٠٠]. وقد أشار المتنبي اشارة عابرة الى هذه الرحلة ، حين روى حادثة وقعت له بأحد أسواقها[١٠١].

ومن الطبيعي أن يتصل الشاعر بعلماء بغداد كأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ، وابراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه ، وأبي محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه . ولكن قصر المدة التي قضاها الشاعر ببغداد يستبعد معها أن يكون قد استفاد حقا من الوسط الذي وجده بها .

وبعد مغادرة الشاعر لمصر اتجه الى بغداد مرة أخرى بعد أن ذاع صيته في الآفاق ؛ ولكن بغداد لم تفتح صدرها للشاعر العراقي المولد والنشأة ، وتضافرت عوامل متعددة حالت دون استقراره بها .

قصد المتنبي بغداد حيث اجتمعت نخبة من خيرة علماء العربية : أبو سعيد الحسن بن المرزبان السيرافي[١٠٢]،وعلي بن عيسى الرماني[١٠٣]، وأبو الفتح محمد بن جعفر المراغي[١٠٤]، وعلي بن حمزة البصري[١٠٥]، وأبو الفتح عثمان بن جنى[١٠٦]، وأبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني[١٠٧]، وأبو علي محمد بن الحسن الحاتمي ؛ ومن الشعراء : علي بن محمد بن البقال[١٠٨] ، وحسين بن أحمد بن

---

(١٠٠) رسالة الغفران . المعري ٣٥٨
(١٠١) الصبح المنبي . البديعي ٩٦
(١٠٢) ، (١٠٣) ، (١٠٤) الرسالة الموضحة . الحاتمي ١٢٠-١٢١
(١٠٥) معجم الأدباء . ياقوت الحموي١٣ : ٢١٠
(١٠٦) المصدر نفسه ١٢ : ١٠١
(١٠٧) يتيمة الدهر ٣ : ٩٦
(١٠٨) الرسالة الموضحة ٩٧

الحجاج[١٠٩]، ومحمد بن عبدالله بن سكرة الهاشمي[١١٠]، وهبة الله بن المنجم[١١١]. ولم تكن حلبة الشعر مقصورة على هؤلاء الشعراء بل شاركهم فيها طائفة الكتاب، وعلى رأسهم اسحاق بن ابراهيم الصابي الذي كان يتولى ديوان الرسائل[١١٢] وبعض القضاة كعلي بن محمد التنوخي[١١٣]

وتطالعنا الأخبار بنبأ زيارة الشاعر للوزير الحسن بن محمد المهلبي وقد كان مجلسه زاخراً بالحركة والنشاط؛ حيث كان يجتمع الشعراء فيتطارحون الأشعار وينشط الجدل بين العلماء والمتكلمين والفقهاء في مختلف المسائل[١١٤].

كان قدوم المتنبي الى بغداد حدثا تاريخيا مهما؛ فلم يكن بين الشعراء الذين اجتمعوا بها من يضارع الشاعر في فنه. وكان باستطاعة المتنبي أن يحتل مركز الصدارة في مجتمع بغداد الأدبي الذي خلا من المنافسين الأنداد ولكننا نرى الشاعر يلتزم الصمت فلم يمدح أحدا من حكام بغداد وسادتها؛ ومن ثم فقد خلا ديوانه من شعر هذه الفترة من حياته.

وقد تحدث النقاد القدامى عن هذه الظاهرة فذكر بعضهم ان الشاعر امتنع عن مدح المهلبي ترفعا بنفسه عن مدح غير الملوك[١١٥]، وقال آخرون انه «انما صده ما سمعه من تماديه في السخف واستهتاره بالهزل واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه»[١١٦].

ولعل هذا الحكم بترفع الشاعر عن مدح غير الملوك صادر عن ادراك هؤلاء النقاد لتعاظم الشاعر وتعاليه وغروره، الذي قد يدفعه الى اهمال مثل

(١٠٩) يتيمة الدهر ٣ : ٢٥-٧٨
(١١٠) المصدر نفسه ٣ : ٣-٢٤
(١١١) المصدر نفسه ٣ : ١٠، الموضحة ٩٧
(١١٢) يتيمة الدهر. الثعالبي ٢ : ٢١٨-٢١٩
(١١٣) المصدر نفسه ٢ : ٣١٨
(١١٤) المصدر نفسه ٢ : ٢٠٥
(١١٥) الصبح المنبي. البديعي ١٤٣
(١١٦) الواضح في مشكلات شعر المتنبي، ابو القاسم الاصفهاني ١٥

هذا الوزير ، مع ما عرف به المهلبي من عناية فائقة بالعلماء والأدباء ، ومشاركته بشعره وعلمه في المجالس الأدبية التي كانت تعقد برعايته .

ومن العجيب أن يمتنع الشاعر عن مدح الوزير المهلبي ، ثم يمدح أبا الفضل محمد بن العميد فيما بعد ، وكان باستطاعته أن يتخذ المهلبي وسيلة للوصول الى المعز ونيل الحظوة بقصر الخلافة .

أما حديث البعض الآخر عن نفور الشاعر من المهلبي لسخفه وخلاعته ، فلعله يشير بذلك الى ما عرف عن بعض مجالس المهلبي التي كان يحضرها بعض القضاة : كالقاضي التنوخي ، وأبي بكر محمد بن قريعة البغدادي ، وابن معروف ، من خلاعة ومجون[117] ، الى جانب ما أشتهر به بعض شعراء البلاط : كابن حجاج ، وابن سكرة الهاشمي ، من اهاج مقذعة خص الشاعر بطرف منها .

ورأينا المحدثين من الباحثين يذهبون في تعليل هذا الأمر مذاهب شتى : فبلاشير يرى ان الشاعر لم يمدح الوزير ، لأنه كان عازما على العودة الى حلب ، وخشى أن يكون مدحه لحكام بغداد سببا في احداث القطيعة التي لا رجعة فيها بينه وبين سيف الدولة[118] .

وقد خالف طه حسين بلاشير فيما ذهب اليه حين رأى ان المتنبي لم يقصد بغداد مادحا بل قصدها ليعيش في منتدياتها حياة العلماء والأدباء ، ولم يكن للمديح باب عنده في هذه البيئة[119] .

لقد كان باستطاعة الشاعر أن يجمع بين حياة الشاعر وحياة العالم كما رأينا في حلب ومصر ، بل ان اتصاله بالسياسة كفيل بأن ييسر له الاتصال بالأوساط المثقفة . اما ان يمكث الشاعر ببغداد مدة دون أن ينتهز الفرصة للاتصال بالخليفة وبطانته فهذا مستبعد من مثل المتنبي مع ماعرف به من طموح

---

(١١٧) يتيمة الدهر . الثعالبي ٢ : ٣٠٩

(١١٨) Blachere: About-Tayyib Al Motanabbi 223.

(١١٩) مع المتنبي . طه حسين ٣٥١

ورغبة دائمة في تحقيق مجد أدبي .

لقد استقبل المهلبي المتنبي بحذر شديد ، فهو شاعر بني حمدان ألد أعداء الخلافة . وأسهم الشاعر بعدم مبادرته الى مدح المهلبي في تأليب رجال السياسة عليه . وكان من الطبيعي ان ينساق الأدب الى السياسة ، ويهيىء لها السلاح المناسب لمحاربة شاعر كالمتنبي .

والى جانب هذا العامل المهم كانت شخصية الشاعر وخلقه ، والشهرة الواسعة التي نالها في بلاط الأمير الحمداني ، وتصدره لشعراء حلقة سيف الدولة ، كانت هذه كلها من الأسباب التي حركت الحملة ضده ، ولا سيما أن بعض من وجد ببلاط المهلبي كان قد سبق له لقاء الشاعر بحلب ، وأعني بذلك أبا علي الحاتمي .

وقد نقل لنا الحاتمي في «الرسالة الموضحة» صورة من المجالس التي اجتمع فيها الشاعر ببعض هؤلاء العلماء ، ولو كانت هذه الرسالة من تأليف غير الحاتمي - الذي عرف بعدائه الواضح للمتنبي - لقدمت لنا صورة مفصلة للمجالس الأدبية افتقدناها فيما وصلنا عن حلب ومصر ، على الرغم من قصر المدة التي قضاها الشاعر ببغداد عنهما .

في هذه المجالس دار الحوار بين المتنبي والحاتمي حول سرقات الشعراء ولا سيما ما كان بين المتنبي والشاعرين أبي تمام والبحتري ، الى جانب بعض المسائل اللغوية والنحوية .

وقد تخلل هذه المناقشة كثير من أخبار الشعراء وأشعارهم غير من ذكرنا . وجعل منها الحاتمي في بعض الأحيان معرضا لآرائه النقدية ، وشرحها والاستشهاد لها ، كحديثه عن حدود الشعر وعيوبه ، والاستعارات ، وموطن جمالها وقبحها .

وأغلب الظن ان هذه المجالس لم تكن بالصورة التي أوردها الحاتمي في الموضحة اذ أنه أشار في المقدمة الى أطلاع الوزير المهلبي عليها قبل نشرها فقد

أجرى عليها كثيرا من التغيير والتعديل والاضافة لتوافق ما اراده بالشاعر من «هتك حريمه وتمزيق أديمه»[١٢٠].

لقد عرض الحاتمي بعض ما أخذ على الشاعر مما تداوله النقاد . ولم يورد للمتنبي ردا على كثير منها قائلا ان الشاعر قد أمتنع عن الاجابة عنها[١٢١]، رغم أننا نرى الشاعر مستميتا في الدفاع عن المآخذ التي واجهه بها النقاد في غير الموضحة ، مما ألف عن الشاعر وما نقل عنه من شروح لأشعاره .

وامتدت يد الحاتمي الى ماصدر عن الشاعر نفسه من ملاحظات وردود على ما انتقد فيه اذ ذكر انه «كسا احتجاجات الشاعر عبارات لو اعتمدها المتنبي لقصرت مادته في البيان عنها»[١٢٢] - على حد تعبيره - ومن ثم فقد أبرز للشاعر دفاعا هزيلا في أغلب الأحيان ، كأن يدفع استهجانه لعدد من الأبيات ببيت آخر من القصيدة نفسها أو من غيرها[١٢٣].

وحين يتحدث عن تلاميذ المتنبي الذين جلسوا لدراسة شعره على يديه نراه يخلع عليهم صفات تصغر من شأنهم ، فهم «أغيلمة لم ترضهم العلماء ولا عركتهم رحى النظر ولا انضوا أفكارا في مدارسة الأدب ولا فرقوا بين حلو الكلام ومره وسهله ووعره[١٢٤]»أو «زعنفة بين يديه»[١٢٥] ، ونحن نعرف ممن سمع شعر الشاعر عنه ببغداد القاضي ابا محمد بن القاسم المحاملي[١٢٦] وغيره ممن لا يصدق عليهم هذا الوصف .

لقد كان الحاتمي يحاول جاهدا أن يبرز الشاعر في صورة مشوهة ؛ لينفي ماعرف به من علم أو تفوق في الشعر ، ولو سلك من أجل ذلك أسلوبا ينم عن المغالطة ، وبدا ذلك في مناقشته لبعض مسائل اللغة ، ولكننا على

---

(١٢٠) الرسالة الموضحة . الحاتمي ٣
(١٢١) الرسالة الموضحة . الحاتمي ١٥٦ ، ١٩٥
(١٢٢) المصدر نفسه ٤
(١٢٣) المصدر نفسه ١٩
(١٢٤) المصدر نفسه ٨
(١٢٥) المصدر نفسه ١٠
(١٢٦) نزهة الالباء . ابن الأنباري ٢١٩

الرغم مما رأينا من أسلوب الحاتمي المتحامل نلمح خلالها ما يفضح تقدير هذه البيئة للمتنبي وشعره ، يتمثل ذلك فيما ذكره الحاتمي من استياء المعز لورود شاعر من رجال بني حمدان على بغداد وليس لديه من يساويه في صناعته[١٢٧]، فهو اذن يقر بأنه لم يكن ببغداد حين قدم اليها المتنبي من يبلغ منزلته . ونرى الوزير المهلبي يستعد للمناظرة بين صنيعته الحاتمي والشاعر باستقدام خيرة علمائه[١٢٨]؛ مما يدل على انه كان يعرف جيدا قدر المتنبي .

وقد تنبه الحاتمي الى ظلم الحملة التي شنها الوسط الادبي في بغداد على الشاعر ، سواء في الموضحة أو في هجاء الشعراء أمثال ابن حجاج وابن لنكك ، فنراه يحاول أن يبرىء ساحته من الاتهام بالتحامل والبعد عن الروح العلمية السليمة ؛ فألف رسالة فيما وافق الشاعر فيه كلام أرسطاطاليس . وعلى الرغم مما نعرفه عن مؤلف هذه الرسالة من مؤلفاته السابقة مما قد يوحي بأنها كانت بمثابة مبحث في السرقات حاول فيه الحاتمي أن ينال من الشاعر بطريقة مختلفة ولم يبرئه ما ذكره في المقدمة من سعيه لانصاف الشاعر والانتصار له[١٢٩] مما لحقه من تعريض ، فانها تكشف عن جانب شغل حيزا واضحا في ثقافة المجتمع البغدادي ، ونعني بذلك الفلسفة اليونانية .

ونتساءل ... أكان بامكان شاعرنا أن يتصل فعلا بهذا الوسط المثقف في هذا الجو المشحون بالانفعال ؟ أغلب الظن أنه لم يستطع اذا استثنينا اتصاله بابن جنى وعلي بن حمزة البصري ، الذي نزل الشاعر ضيفا عليه أثناء اقامته ببغداد[١٣٠] .

كان علي بن حمزة أحد أئمة اللغة في القرن الرابع واشتهر بمؤلفاته التي يرد فيها على علماء اللغة ككتاب الرد على أبي عمرو الشيباني في نوادره ،

(١٢٧) الرسالة الموضحة . الحاتمي ٧

(١٢٨) المصدر نفسه ١٢٠

(١٢٩) الرسالة الحاتمية ١٤٤

(١٣٠) معجم الأدباء . ياقوت الحموي ١٣ : ٢١٠

وكتاب الرد على أبي حنيفة الدينوري في كتاب النبات[١٣١]... وقد ربطت بين المتنبي وهذا اللغوي الكبير صداقة عميقة . ولعل ملازمته له قد هيأت له مناخا علميا هو خير من يستفيد منه

أما ابن جنى ، فقد سمع من الشاعر شرحه لكثير من أشعاره ، وناقشه في كثير من المسائل ، ونقل عنه ما أملاه من شروح وتعليقات . وقد كان الشرح الذي وضعه ابن جنى للديوان أساسا لكثير من الشروح والدراسات التي ألفت بعد ذلك .

(١٣١) المصدر السابق ١٣ : ٢٠٩

الفصل الأول

الثَقافَة اللُغويّة

مصادر ثقافته اللغوية وروافدها :

اذا تأملنا مجرى ثقافة المتنبي اللغوية نرى أن جداول شتى قد أمدته ، ففاض زاخرا يروي ما انساب على لسان شاعرنا من قصائد حفل بها ديوانه ، واحتفل بها الأدب العربي قرونا طويلة .

وقد كان أثر البيئة واضحا في رسم اطار هذه الثقافة ، سواء أكانت بيئة الكوفة التي عاش فيها الشاعر طفولته وصباه ، ام بيئة البوادي التي ارتحل اليها ، أو البيئات ذات الثقافة الراقية التي استقر فيها زمنا .

في الكوفة قضى الشاعر طفولته وصباه . وغني عن الوصف ما عرف من ازدهار واسع لعلوم الدين واللغة في هذه المدينة التي ظلت قرابة ثلاثة قرون منارا للعلم ومقصد الرواد من كل حدب وصوب ، وخير من يستفيد من ثقافة هذه البيئة ابن من أبنائها بهره فن القريض فأقبل عليه ، وخليق بمن استهواه هذا الفن أن يعمل على تقويم أداة تعبيره واغنائها ، حتى يصل الى المثل الأعلى الذي ينشده .

وكان للبادية دور بارز في هذه الثقافة ؛ فقد هيأت له منبعا صافيا استقى منه ، فقويت سليقته اللغوية ، وأثرى حصيلته من المفردات والأساليب .

وقد حظيت الدراسات اللغوية والنحوية باهتمام كبير في البيئات التي

عاش فيها الشاعر ، حيث التقى بأعلام اللغة : كابن خالويه ، وأبي الطيب اللغوي ، وأبي علي الفارسي ، وأبي الفتح بن جنى ، وعلي بن حمزة البصري ، وغير هؤلاء ممن أثروا المكتبة العربية بخيرة المؤلفات ، فكان من الطبيعي أن يوجه الشاعر اهتمامه الى هذه الدراسات ؛ ليحمي شعره من السقط الذي قد يجعله هدفا لسهام انتقادات هؤلاء العلماء ، ولكي يستطيع الاسهام فيما يدور بينهم من محاورات . وقد أسهم محفوظ المتنبي من أشعار الفحول الذين قرأ شعرهم في إثراء مكنوزه من المفردات .

١ - ويمكننا أن نقول ان الأهم من هذا كله ما نعلمه من شغف الشاعر بالقراءة والاطلاع وقوة ذاكرته ، وقد وجه لعلوم النحو واللغة اهتماما واضحا ، مما حدا بابن خلكان الى القول بأنه كان «من المكثرين من نقل اللغة»[1].

وقد أشار بعض من أرخوا للشاعر الى اطلاعه على بعض المصادر في اللغة ، غير اننا نلمح قلة هذه الملاحظات ، على الرغم من الوصف الذي طالما سمعناه عن الشاعر : من أنه شغوف بالمطالعة تارة ، أو أنه اتسع في لسان العرب تارة أخرى .

تحدث أبو القاسم الأصفهاني عن اطلاع الشاعر على كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام ، وهو من المعاجم الغنية ، ويعده بعض المعاصرين من خير ما ألف أبو عبيد . كذلك قرأ كتاب الجمهرة في اللغة لأبي بكر بن دريد ، وقد نقل منه - فيما يرى الأصفهاني - لفظ المجلحة في قوله :

وأمشي كما يمضي السنان لِطِيَّتي　　　وأطوي كما تطوي المجلَّحة العُقَد[2]

---

(١) وفيات الاعيان . ابن خلكان ١ : ١٠٤

(٢) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . الاصفهاني ٢٧ . جمهرة اللغة ابن دريد (جلح) ٢ : ٥٧ ، ٥٨

وقد قصر الأصفهاني حديثه على هذين المؤلفين ، مما قد يوحي للقارىء بأن الشاعر لم يطلع على غيرهما ولكن هذا مخالف للشائع عن المتنبي ، وللمكانة التي شغلها ، وهو الشاعر الذي وصفه الأصفهاني نفسه بأنه من حفاظ اللغة .

غير اننا نرى الأصفهاني يشير بعد هذا الحكم إلى أن أبا الفضل بن العميد قرأ على الشاعر - حين زاره - ديوان اللغة الذي جمعه[٣].

وليس فيما بين أيدينا من المصادر التي ترجمت لابن العميد ما يفيد في معرفة ماهية هذا الكتاب ، غير اننا لاننفي أن يكون ابن العميد قد قرأ على المتنبي بعض ماألف ؛ فقد كان معجبا بالشاعر ، وعلى حد الرواية نفسها ، يتعجب من حفظه وغزارة علمه .

وقد كان ابن العميد نفسه ممن عرفوا بسعة العلم وكثرة الاطلاع ، وخير شاهد على ذلك ما يذكره الرواة في تصوير اشفاقه على خزائن كتبه من أن تمتد اليها يد عابث[٤] ولعلنا نلمح في قول الشاعر :

وسمعت بطليموس دارس كتبه   متملكا متبديا متحضرا[٥]

ما يشير الى أن الشاعر قد سمع من ابن العميد مادرس من كتب بطليموس - على سبيل المثال - مما قد يبيح لنا أن نفترض ان الأولى بابن العميد أن يقرأ على الشاعر أحد مؤلفاته ليستنير برأيه .

كذلك أشار علي بن حمزة البصري ، راوية المتنبي ، الى اطلاع الشاعر على كتاب المنقوص والممدود لابن ولاد (ت ٣٣٢هـ) وقد قرىء هذا الكتاب على الشاعر في مصر ، وله عليه ملاحظات[٦]. وذكر ابن الدهان ان الشاعر كان يحفظ كتاب الحدود في النحو للفراء ،

---

(٣) الواضح في مشكلات شعر المتنبي ، الاصفهاني ١٦ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) التبيان العكبري . ٢ : ١٧٠ .

(٦) التنبيهات : علي بن حمزة ٣٢٥ .

ومعجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي[٧].

وقد كان الشاعر في ردوده على الانتقادات التي وجهت لشعره يستشهد بأقوال العلماء ، وان ورد بخاطره ذكر الموضع الذي سجل فيه اللغوي ماذهب اليه لم يكن ليغفل عن ذكره ، ومن هذه الملاحظات استطعنا أن نعرف بعض المصادر التي قرأها الشاعر والتي اسهمت في تكوين ثقافته اللغوية ، مثال ذلك ماأورده ردا على انتقادهم لقوله :

أحاد أم سداس في أحاد   لييلتنا المنوطة بالتناد[٨]

فقد احتج الشاعر لاستعماله «سداس» بقوله «انه قد جاء عن العرب خماس وسداس الى عشار ، ذكره أبو حاتم في كتاب الابل ، وزعم أبو عبيدة في المجاز انه لا يعلمهم قالوا فوق رباع»[٩] وقال «كان أبو حاتم تبع أبا عبيد في قوله في كتاب المذكر والمؤنث : ورباع رباع ، ولا نعلمهم قالوا فوق ذلك ... ثم رجع عنه فقال في كتاب الابل ورباع الى العشرة»[١٠].

وقال مرة أخرى «وهذا أبو زيد يروي عن العرب أثاب الرجل اذا ثاب اليه جسمه ، وقد حكاه عنه أبو عبيد في الغريب المصنف»[١١].

ان هذه الأقوال التي رويت على لسان الشاعر مما يؤكد اطلاعه على كتابي أبي حاتم السجستاني «الابل» «والمذكر والمؤنث» ، «وكتاب الغريب المصنف» لأبي عبيد ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى .

---

(٧) الاستدراك لابن الأثير ١٣
(٨) التبيان . العكبري ١ : ٣٥٣
(٩) الوساطة . الجرجاني ٤٥٧
(١٠) ديوان المتنبي . عزام ٧٧
(١١) الوساطة ٤٥٣

وقد حاولت توثيق هذه الأقوال التي ذكرها المتنبي فوفقت في كتاب مجاز القرآن[١٢] ، أما الابل لأبي حاتم فقد أورد عنه ابن وكيع التنيسى[١٣] ما يؤيد رواية المتنبي ، مما قد يرجح صحة هذه النقول . كما أيدت قوله المتنبي عن الغريب المصنف ماذكره الأصفهاني من اطلاع الشاعر على هذا المؤلف .

لقد كان علم الشاعر وسعة اطلاعه على النحو واللغة مما أشاد به الباحثون ، ولكننا نجد الى جانب النظرة العادلة المنصفة التي وضعت الشاعر في المنزلة التي تليق بمكانته حملة ظالمة شنها خصوم الشاعر : كالحاتمي ، وابن وكيع التنيسي .

ونلمح تحامل الحاتمي واضحا خلال موضحته وفيما نقله الباحثون عنه ، فما فتىء يحاول التدليل على ضعف المتنبي في العربية ، فنراه على سبيل المثال يعيب على الشاعر قوله : غير محتشم ، بمعنى غير منقبض في بيته :

ضيف ألم برأسي غير محتشم والسيف أحسن فعلا منه باللمم[١٤]

ويرى في قول المتنبي مخالفة لما عليه محصلو أهل العلم ؛ إذ الحشمة عند العرب الغضب ثم ذكر استشهاد المتنبي بقول الشاعر :

أخاف تكرار قولي كل فأحشُمَه والصمت ينزله مني على بخل[١٥]

ولم يعبأ الحاتمي بما أورد الشاعر ؛ لأن الشاهد - كما يرى - محدث ليس بحجة وأنشد الحاتمي :

لعمرك إن قرص ابي خبيب بطيء النضج محشوم الأكيل[١٦]

وبعد .. فان ماذكره المتنبي من الصحيح المنقول[١٧]، وقد اشتمل اللفظ على هذين المعنيين وقد ورد فيما أملاه المتنبي من شروح هذا الشاهد الذي ذكره

---

(١٢) مجاز القرآن . أبو عبيدة ١ : ١١٤
(١٣) المنصف . ابن وكيع التنيسي (خ ٧٤ ب)
(١٤) التبيان . العكبري ٤ : ٣٤
(١٥) البيت لدعبل الخزاعي . ديوانه ١٣١
(١٦) الموضحة للحاتمي ٨٨
(١٧) لسان العرب . (حشم)

الحاتمي وشاهد اخر للكميت :

ورأيت الشريف في أعين النا س وضيعا وقل منه احتشامي[١٨]

ولا نستبعد ان تكون هذه المحاورة احدى اختلافات الحاتمي على الشاعر ، وقد حفلت الموضحة بمثل هذه الأقاويل .

ونراه يجادل الشاعر في استعماله لكلمة «كلواذا» في قوله :

طلب الامارة في الثغور ونشؤه مابين كرَخايا الى كَلوْاذا

فيخطئه في ضبطه لهذا اللفظ قائلا «الكلواذا بكسر الكاف واسكان اللام واسقاط الياء» . وقد ذكر ياقوت هذا اللفظ بصورتين : كلواذة وكَلْوَاذَي . قال أبو فراس :

أحين ودعنا يحيى لرحلته وخلف الفرك واستعلى لكلواذى[١٩]

وقال مطيع بن أياس :-

خربت عاجلا وأخرب ذو العر ش باعمال أهلها كَلْوَاذا

وفي لسان العرب كَلْواذ بفتح الكاف موضع[٢٠].

فما ذكره المتنبي صحيح وقولة الحاتمي الساخرة «من أين لك هذه اللغة في كلواذا ؟ ما أحسبك أخذتها الا عن الملاحين»[٢١] باطالة وهي احدى محاولات الحاتمي الظالمة لتخطئة الشاعر والغض من شأنه ، وغيرها كثير[٢٢].

وقد تضاربت آراء الحاتمي وتناقضت أقواله في مدى معرفة الشاعر باللغة ، ففي الوقت الذي نراه يسلم له بالعلم الواسع قائلا : «أنت أبو عذرتها وأولى الناس بها وأعرفهم باشتقاقاتها والكلام على أفانينها ، وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك»[٢٣] - نجده قد هاجم الشاعر قبل هذه المقالة بأنه لم يمعن

(١٨) ديوان المتنبي . غزام ٢٨ ، القصائد الهاشميات ١٢

(١٩) معجم البلدان ياقوت ٧ : ٢٧٦ غير موجود بالديوان .

(٢٠) اللسان (كلذ)

(٢١) الموضحة . الحاتمي ٥٦

(٢٢) الموضحة للحاتمي ٦١ (الدفر والدهيم) ، الصبح المنبي . البديعي ١٤١ (القدس والقداس)

(٢٣) ، الصبح المنبي البديعي ١٤١

النظر في كتب اللغة وعلوم العرب[٢٤] ولو تقدم منه مطالعة لها ما أخطأ في بيان معاني بعض المفردات .

ومن الغريب أن نلمح هذا التناقض البين بين القولين ، وهما في جلسة واحدة جرت فيها مناظرة بين الشاعر والحاتمي وكأن عنى بقولته ما يجب أن يكون عليه من يتصدى لفن القريض ، ولم يقصد أن يخلع على الشاعر هذه الصفات وانما قصد التعريض به بوصفه بما ليس من صفاته في نظره .

ونراه يقول في موضع آخر «أتراك مع فضلك وتوسعك في أدبك لم تطالع كتاب الفصيح»[٢٥] ونحن لا نملك أن نثبت اطلاع الشاعر على هذا الكتاب ؛ فليس فيما بين أيدينا ما يعيننا على ذلك ، ولكن هذا المؤلف الذي وضعه ثعلب لضبط الألفاظ المشكوك فيها وتفسيرها من المؤلفات التي لاقت رواجا في القرن الرابع الهجري - كما يرى بروكلمان[٢٦] - وقد قام علي بن حمزة البصري - راوية المتنبي وصديقه - بوضع كتاب أسماه «التنبيه على ما في الفصيح من الغلط»[٢٧]، فان كان الشاعر لم يطلع على كتاب ثعلب أفليس بامكاننا أن نحدس على الأقل انه اطلع على كتاب البصري . كذلك فانه من الغريب من شاعر كان يعشق الاطلاع أن تفوته قراءة هذا الكتاب المعروف لأحد أئمة النحو الكوفي الذي عرف الشاعر بانتمائه اليه .

وشبيه بهذه المحاولات ما نراه لدى ابن وكيع التنيسي الذي ألف كتابه المنصف للبحث في سرقات الشاعر ، ونراه في كتابه ينعى على الشاعر ضعفه في العربية ؛ إذ نقل محاورة جرت بين الشاعر وأبي الحسن المهلبي قال : حضرته في مجلس لبعض الرؤساء ، وجرت مسألة في المذكر والمؤنث فقلت قد يؤنث المذكر اذا نسبت لمؤنث مثل (كما شرقت صدر القناة من الدم فقال - أي المتنبي - من قال هذا ؟

---

(٢٤) الصبح المنبي . البديعي ١٤١ .

(٢٥) الموضحة . الحاتمي ٦٣

(٢٦) تاريخ الأدب العربي . كارل بروكلمان ٢ : ٢١٠

(٢٧) معجم الأدباء . ياقوت الحموي ١٣: ٢٠٩

قلت سيبويه ، فقال لاأعرف هذا ولعله مذهب البصريين ولا أعمل على قولهم ، قال : فقلت هذا في كتاب ابن السكيت في المذكر والمؤنث ، فقال : ليس ذلك فيه . فأخرجته من خزانة الرئيس الذي كنا عنده ، فلما قرأه قال : ليس هذا بخط جيد ، أنا اكتب خيرا منه ، فقلت ما جلسنا للتخاير بالخطوط ، فانقطع في يده»[٢٨].

وقد وردت هذه الواقعة مرتين باختلاف في اسم صاحب المجلس مما قد يوحي بالشك فيها أصلا ، ولا نستبعد أن تكون من اختلاقات المهلبي وابن وكيع ؛ وتحامل هذين الرجلين على الشاعر في غنى عن الوصف . ورغم الشك الذي يغلف هذه الرواية لضعفها وموقف صاحبها العدائي تجاه الشاعر ، فإنه لايعيب المتنبي ألا يكون قد اطلع على كتاب ابن السكيت ، أو انه سها عن ورود هذه المسألة في كتاب سيبويه .

وقد علل احسان عباس قولة المتنبي «ليس هذا بخط جيد» ... بأنه انكار من الشاعر أن يكون الكتاب بخط العالم الذي أسموه له ...»[٢٩].

ونرى ابن وكيع يقول مرة أخرى «وأنا أعرف رجلا تزيد محبته أبا الطيب على محبته أمه وأباه ، وقد ذكره فقال : أما اللغة فكان فيها اماما لم تضرب العرب بعصا الا وعنده منها خبر ، وأما الشعر فانه لسان الزمان لاينطق أو يستأذنه ، وأما النحو فهو على مذهبه في النحو نحوي»[٣٠]. فقد نقل ابن وكيع هذه الشهادة على لسان رجل أطلق عليه هذا الوصف حتى يوحي للقاريء بأن هذه المقالة يشوبها الغلو لتحيز صاحبها وميله الواضح للشاعر ، مما يحول دون اصدار حكم سليم على الشاعر وشعره ... ، ولم نعرف شيئا عن هذا الرجل سوى هذا الوصف الذي أورده ابن وكيع ، وان لم يشهد بباطل : فعلم الشاعر بالنحو واللغة مما نوه به كثير من القدماء ، ولعله قد أصاب حين

(٢٨) المنصف لابن وكيع (خ ٣٤ أ-٩٥ ب)
(٢٩) تاريخ النقد الادبي . احسان عباس ٣٠٦
(٣٠) المنصف لابن وكيع (خ ١٦٠ ب-١٦٢ أ)

وصف الشاعر بقوله «امام» .

٢ - ونتطرق الآن الى الحديث عما أملاه الشاعر من شروح لأشعاره فانه يكشف عن اتساع آفاق ثقافة الشاعر اللغوية كشفا لا مجال فيه لنزاع ، وأول ما يتبادر الى الذهن هو صحة صدور هذه الأمالي عن الشاعر ، لاسيما ان بعضها قد خرج عن مهمة بيان المعنى وشرحه الى سرد معلومات لغوية ونحوية ، غير اننا نجد بعض من أرخوا للشاعر ، كابن خلكان ، يشير الى أن الشاعر «ماسئل عن شيء الا واستشهد بكلام العرب من النظم والنثر»[٣١].

وقد وردت هذه الأمالي في شروح الديوان : كابن جنى والمعري والعكبري ، وفي بعض الدراسات النقدية التي ألفت حول الشاعر :كالوساطةبين المتنبي وخصومه للجرجاني ، والمنصف لابن وكيع التنيسي ، والنظام في شرح ديواني المتنبي وأبي تمام لابن المستوفي ، وقد لمحت كثيرا من التوافق بين بعض هذه النصوص المنقولة مما يوحي بالثقة في ان هذه الأقوال قد صدرت عن الشاعر حقا .

وقد ظهر في كثير من هذه النقول سند الرواية واضحا ، سواء أكان ذلك عن ابن جنى أو صالح بن رشيدين وغير هؤلاء ممن جلسوا بين يدي الشاعر ينقلون عنه ما يمليه عليهم من أشعار وشروح . والى جانب ماذكرنا فان في ثقافة الشاعر الواسعة وحرصه على وضوح شعره في الأذهان ورغبته في ارتداء زي العلماء في الأوساط التي غشيها مالا يستبعد معه أن تكون هذه الملاحظات صادرة عنه .

كان المتنبي يشرح من الألفاظ مايراه غامضا مبهما للمعنى الذي قصده ، ويسرد شاهدا أو أكثر يتضح به المعنى كقوله :

ولو يمتهم في الحشر تجدو . لأعطوك الذي صلوا وصاموا[٣٢]

قال : جددت استرفدت وأنشد :

(٣١) وفيات الأعيان . ابن خلكان ١ : ١٠٥

(٣٢) التبيان . العكبري ٤ : ٧٧

جددت أناسا موسرين فما جدوا ... ألا الله فاجدوه اذا كنت جاديا[٣٣]

وكان يستعين لايضاح المعنى بحصيلته اللغوية الوفيرة ، فيذكر للفظ عدة مترادفات كقوله :

يهابه أبسأ الرجال به ... وتتق حدَّ سيفه البُهَمُ[٣٤]

بسَّت به : أي أنست به ، وكذلك بسأت وبهأت وأنشد :

فقد بهأت بالجاهلات إخالها ... وسيف كريم ما يزالُ يَصُوعُها[٣٥]

وصعته فرقته قال الشاعر :

يصوعُ عنوقَها أحوى زنيم ... له ظاب كما صخِبَ الغريمُ[٣٦]

فقد أورد المتنبي مرادفا للفظ الذي أورده في بيته وعزز رأيه بشاهد شعري ، وعندما لمح في الشاهد لفظا قد يبهم المعنى معه قام بشرحه والاستشهاد عليه كما فعل في اللفظ الذي ذكره في بيته .

ولعل المتنبي كان يجيب على الاستفسارات التي كانت تعرض له من جلسائه ، وكان حريصا على افادة كل منهم بما يقنعه ، وقد أعانه على بلوغ هذه الغاية ما اكتنزه في محفوظه من أشعار السلف ، وما تميز به من ذاكرة قوية وبديهة حاضرة .

وتتمثل عنايته بالمترادف في مثل قوله :

ألِفَت مسامعُهُ الملامَ وغادرت ... سمةً على أنف الكرام تلوحُ[٣٧]

قال : اخترتها من أخوات لها عشر فقدمتها ، وهي نبذت - تركت -

---

(٣٣) ديوان المتنبي . عبد الوهاب عزام ٩٥ ، لسان العرب (جدا)

(٣٤) التبيان . الكعبري ٤ : ٦٠

(٣٥) لسان العرب (بهأ) ، ورد صدر البيت (وقد بهأت بالحاجلات افالها)

(٣٦) ديوان المتنبي . عزام ٨٥ ، لسان العرب (صوع) نسب البيت لأوس بن حجر ديوانه ١٤٠ : يروي لعدد من الشعراء وقد ورد على النحو التالي :

وجاءت خُلعةُ دبس صفايا ... يصور عنوقها أحوى زنيمُ
يفرِّق بينها صدع رباع ... له ظاب كما ظأبَ الغريمُ

المحقق : «هما في المصادر باختلاف في ترتيب الصدرين مع المعجزين».

(٣٧) التبيان . العكبري ١ : ٢٥١

طرحت - عادت - نقصت - كرمت - ردت -[٣٨] . ولعل غايته من هذا السرد أن ينبه السامع الى أنه قصد هذه اللفظة بعينها ، وأن غيرها من الألفاظ لايحل محلها ، وان كان بمعناها . ويحضرني في هذا المقام قول المعري «لا تظن انك تقدر على ابدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها ، فجرب ان كنت مرتاباً[٣٩]» فقد حكم المعري بأن لكل كلمة في شعر المتنبي مكانها الذي لايحل غيرها من الألفاظ فيه .

واذا عرضت له صيغة غير شائعة نراه يبادر الى ايراد الصيغ المختلفة للفظ مميزا بين ماوافق القياس منها وماخالفه ، مستشهدا لكل صيغة بشاهد شعري يدعم به رأيه ويعطي لاستعماله سندا يقره النقاد مثل قوله :

إذا عرَضَتْ حاجٌ اليه فنفسه إلى نفسه منها شفيعٌ مشفَّعُ[٤٠]

قال «يقال : حاجة وحاج وحاجات وحوج ، وعلى غير القياس حوائج ، وتقول العرب في نفسي منك حوجاء : أي حاجة ، وأنشد :

ألا ليت سوقا بالكنانة لم يكن اليها لحاج المسلمين طريق

وقال آخر :

لقد طال ماثَبَّطتنيِ عن صحابتي وعن حوج قضاؤُها من شِفَائيا[٤١]

وأنشد لامريء القيس : «لنقضي حاجاتِ الفؤاد المعذب»[٤٢]

وللشماخ :

تقطع بيننا الحاجات الا حوائج يعتسفن مع الجرى[٤٣]

وكأننا هنا أمام عالم من علماء اللغة ، فالفكرة واضحة منتظمة في تناوله لجزئيتها واستشهاده على صيغة ذكرها ، ويمكن أن نلاحظ ان ما استشهد

(٣٨) النظام لابن المستوفي (خ ٥٢٥/١ ب)
(٣٩) وفيات الأعيان . ابن خلكان ١ : ١٥٣
(٤٠) التبيان . العكبري ٢ : ٢٤٣
(٤١) اللسان (حورج)
(٤٢) ديوان امرىء القيس ٤١ (نقض لبانات الفؤاد المعذب)
(٤٣) ديوان الشماخ ٤٦٣

به من أشعار مما تداولته المعاجم ؛ مما قد يوحي الينا بأنه كان يعتمد حفظ هذه المفردات من كتب اللغة التي تقع في متناوله .

وقد يستطرد الى عرض صيغ بعض الأفعال مفرقا بين معانيها كقوله :

وأبصر من زرقاء جو لانني   إذانظرَتْ عيناي شاءهما عِلْمي[٤٤]

قال : «شاءهما مثل شأهما : سبقهما ، شأوت القوم أشآهم شأوا إذا سبقتهم . وينشد شأواهما تثنيه لشأو : وهو الطلق ، يقال عدا شأوا أو شأوين ... يقال شآك القوم وشاءك مقلوبا بمعنى سبقك وبمعنى شأنك»[٤٥]:

قال أمرؤ القيس : وقال صِحابي قد شأونك فاطْلُبِ»[٤٦].

وقال آخر : «وقد شاءك القوم السراع فأوعبوا»

وقال الحارث بن خالد المخزومي :

مر الحمول فما شأونك نقرة   ولقد أراك تُشَاء بالأظعان[٤٧]

ولعل ما دفع الشاعر إلى هذا الاستطراد انه أورد مقلوب الفعل شآني ، فأراد اثبات صحته بذكر شواهد من شعر المحتج بهم ، ولم يفته ذكر ما أورده اللغويون من معان للفعل خلاف مااستعمل في بيته .

وقد دلل في هذه الأمالي على سعة معجمه من الألفاظ ، وكثيرا مانراه يخرج عن إطار الشرح والتوضيح الذي قصده من تناوله لأشعاره الى عرض الصيغ المختلفة للألفاظ التي ذكرها ، مثل قوله في هاتا : هاتا بمعنى هذه ، وله ست لغات : هذه وهذي وذي وهاتا وتا وتثنيتها كلها هاتان

وقد يتولى شرح معاني بعض الأدوات التي ذكرها كقوله فى اما :

«يقال في الخبر أما وأيما . قال الشاعر :

بذي هيدب أما الربى تحت ودقة   فتروى وأما كل واد فيرعب

وأما الشك والتخيير ، فأهل الحجاز ومن جاورهم يقولون أما وايما ،

(٤٤) التبيان . العكبري ٣ ص٥١

(٤٥) ديوان المتنبي . عزام ٧٢

(٤٦) ديوان امرىء القيس ٥١

(٤٧) اللسان (شأ)

وقيس وأسد وبعض تميم يفتحون الألف . قال الفراء . أنشدني أبو القمقام :

تنفجها أما شمال عرية وأما صبا جنح الظلام صبوب

قال وأنشدني الفضل بن معن :

فأما حبها عرض وأما بشاشة كل علق مستفاد

قال : فهؤلاء الذين يقولون في الشك والتخيير أيما[48].

وقد وقف المتنبي يشرح معاني هذه الأداة ذاكرا صيغها ، مفرقا بين لهجات القبائل عند شرحه لقوله :

إيمَّا لابقاءٍ على فضله إيمَّا لتسليمٍ إلى ربه[49]

وقد أورد إمّا بابدال ميمها الأولى ياء استثقالا للتضعيف ، كقول سعيد بن مرة :

ياليتما أمنا شالت نعامتها إيما إلى جنة إيما الى نار[50]

وقد عني في شروحه بالألفاظ التي ارتبطت بحياة البادية والصحراء ومايتصل بها من حيوان ونبات ، عرف بخبرته الواسعة بها نتيجة لاتصاله العميق بالأدب القديم ، ولرحلة البادية التي عاش فيها في هذه البيئة بكل أحيائها وظروفها .

وقد نمت هذه الشروح عن فهم دقيق للألفاظ التي عرضت له ، مثال ذلك :

وان اعطاءَهُ الصوارمُ والخيلُ وسُمْرُ الرماح والعكرُ[51]

قال المتنبي : العكر جمع عكرة : وهي القطعة من الابل ، فيها فوق الأربعين ودون المائة[52].

وقوله :

---

(48) عزام عن ابن جني 576

(49) التبيان . العكبري 1 : 217

(50) اللسان (اما) ، المغني (سعيد بن مرة) 62

(51) التبيان . العكبري 2 : 89

(52) عزام 273 ، لسان العرب (عكر)

منها اذا يُثْغَ له لا يغزل موجَّدِ الفقرة رخوِ المفصلِ[٥٣]

قال : «اذا أدرك الكلبُ الظبي فثغا من خوفه - أي صاح - فلها الكلب عنه قيل : قد غزل يغزل[٥٤]».

وقوله :

سل البيد : أين الجن منا بجوزها وعن ذي المهاري : أين منها النقانق[٥٥]

ذكر الشاعر ان النقانق : جمع نقنق : وهو ذكر النعام ، والهيق والهقل والخفيدد . وأما المهارى : فأبل تنسب الى مَهرة ابنة حيدان[٥٦]. فلم يكتف بشرح اللفظ بل أورد له عدة مترادفات ، اتضح منها سعة اطلاعه على ما يتصل بهذه البيئة .

وفي اجابته على ابن جنى حين سأله عن لفظة الشائلة في قوله :

فلقَّيْنَ كلَّ ردينية ومصبوحةٍ لبنَ الشَّائِلِ[٥٧]

ما يؤكد ماذكرناه آنفا من علمه بالدلالات الدقيقة للمفردات التي يذكرها ، فالشائل : التي لا لبن لها ، والتي لها لبن قليل يقال لها : الشائلة ، وهو ما أراده الشاعر هنا . وهو وإن أورد الكلمة هنا محذوفة التاء فليس ذلك لخلطه بين اللفظتين ؛ إذ انه قصد الشائلة بالتاء ثم حذفها لضرورة الشعر ، وهو مسلك مألوف وجد له الشاعر نظيرا في محفوظة فأورده ، قال :

إنا بنو عمكم لاإن نباعدكم ولا نجاوركم الا على ناحي[٥٨]

ولم يكن أثر البادية في ثقافة الشاعر اللغوية بخاف على كثير من المتقدمين من النقاد ، لذلك رأيناهم يرجعون بعض الألفاظ التي خالف فيها الشاعر السماع أو أتي فيها بالنادر الى ماستفاده الشاعر من حياته بين البدو .

---

(٥٣) التبيان . العكبري ٣ : ٢٠٣

(٥٤) ديوان المتنبي . عزام ١٢١ ، لسان العرب (غزل)

(٥٥) التبيان . العكبري ٢ : ٣٤٣

(٥٦) ديوان المتنبي . عزام ٦٨

(٥٧) التبيان . العكبري ٣ : ٢٦

(٥٨) الفتح الوهبي . ابن جنى . ١٠٢ ، عزام (عن شرح المعري) ٢٦١

وتترد في شروحه التي ذكرنا أطرافا منها بعض العبارات مثل : سمعت الفصحاء من العرب ، وسمعت العرب تقول ، وقال بعض أهل البادية . مثال ذلك قوله :

تريدين لُقيان المعالي رخيصةً ولابدَّ دون الشَّهْدِمن إبَرِالنَّحْلِ[٥٩]

فقد مال الشاعر الى ايراد (لُقيان) بضم اللام معتمدا على ماسمعه من أحد فصحاء البادية قال «أنشدني أبو الحسن العميدي ، عن عدي بن جناب ابن نهبل بن كلب بن وبرة بالبادية ، وكان فصيحا من دعاة أبي القاسم صاحب الناقة بالشام أيام المكتفي .. قال سمعت أبا القاسم يقول :

أحب لُقيان عدو ربي والموت فيه راحة المحب[٦٠]

وهذا مما خطىء الشاعر فيه ؛ لتركه المشهور وهو كسر اللام من لقيان الى غيره ، على الرغم من أنه كان يعلم ان الكسر هنا أشهر عند أهل العلم على حد تعبيره .

والى جانب الشواهد الشعرية التي نراها منثورة في ثنايا الشروح نلمح لدى الشاعر التفاتا واسعا لأقوال علماء اللغة ، يستنير بآرائهم ويستشهد بأقوالهم . ففي شرحه لكلمة «ضوع» التي أوردها في قوله :

أتت زائرا ماخامر الطيبُ ثوبَها وكالمسك من أردانهايتضوَّعُ[٦١]

أورد مارُوي عن الاصمعي في هذا اللفظ بخلاف ماقصد الشاعر في البيت ... قال «الأصمعي : يقال للفرخ اذا سمع صوت أبيه فتحرك وتحول : قد ضاعه صوت أبيه يضوعه ضوعا ، وأنشد :

فريخان ينضاعان في الفجركلها أحسادويّ الريح أوصوتَ ناعب[٦٢]

وقد استشهد في شرحه للفظ «حاج» - التي سبق ذكرها - بما روي

---

(٥٩) التبيان . العكبري ٣ : ٢٩٠
(٦٠) عزام عن ابن جنى ٥٢٠
(٦١) التبيان . العكبري ٢ : ٢٣٧
(٦٢) عزام ٢٣٠ ، لسان العرب (ضوع)

عن الأصمعي وابن دريد ، قال «زعم الأصمعي ان حـوائج مولدة ، وهي كثيرة على ألسن العرب ، ولكنها خرجت عن القياس فأنكروها ... وقد ذكر ابن دريد حاجة وحائجة»[٦٣].

وحين سئل عن ضبط لفظتي الحضارة والبداوة في قوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب[٦٤]

ذكر رأي الأصمعي وأبي زيد «قال أبو زيد البَداوة والحِضارة ، وسمع الحَضارة والبِداوة ، من العرب ، وأنشد الأصمعي :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا[٦٥]

وما ذكره المتنبي في هذا الموضع وفي غيره موافق لما بين أيدينا من المعاجم ، مما يدل على سعة اطلاعه واستقصائه لاقوال العلماء .

ومن العلماء الذين استشهد الشاعر بأقوالهم : أبو عمرو بن العلاء[٦٦]، وأبو عمرو الشيباني[٦٧]، وأبو عبيدة معمر بن المثنى[٦٨]، وأبو زيد الأنصاري[٦٩]، والأصمعي[٧٠]، وابن الأعرابي[٧١]، وأبو حاتم السجستاني[٧٢]، وابن السكيت[٧٣]، وأبو بكر بن دريد[٧٤] .

وقد يشير أحيانا الى مواضع ما استشهد به من أقوالهم في مؤلفاتهم التي اطلع عليها كما سبق أن ذكرنا . وقد يستشهد بما ورد في القرآن الكريم مثل قوله :

---

(٦٣) المصدر نفسه ٢٤ ، لسان العرب (حوج)
(٦٤) التبيان . العكبري ١ : ١٦٨.
(٦٥) ديوان المتنبي . ابن جنى ١ : ٣٦١
(٦٦) التنبيهات علي بن حمزة ٣٤٠
(٦٧) الوساطة للجرجاني ٤٥٧
(٦٨) المصدر نفسه ٤٥٧ ، عزام ٤٥٣
(٦٩) عزام ٤٧٧
(٧٠) عزام ٢٤ ، ٤٧٧
(٧١) التنبيهات . علي بن حمزة ٣٤٢
(٧٢) الوساطة ٤٥٧ ، عزام ٧٧
(٧٣) الوساطة ٤٥٧
(٧٤) عزام ٢٤

وعــرف انــك من هــمــه وأنــك في نصره ترفــل

قال : الهـم هنا : الارادة ، ومن قوله عز وجــل« وقد همت به وهم بها»[٧٥] فقد أورد الشاعر هذا الشاهد القرآني لتقريب المعنى وشرحـه ، غير انا نراه مرة أخرى يستعين بالقرآن في ضبط بعض المفردات التي قد يختلف حـولها اللغويون ، فيكون اللفظ القرآني حاسما للخلاف مثل قوله في همز «دنيء» :

ليت الملوك على الأقــدار معطية فلم يكــن لدنيء عنــدها طمع

فقـد أجـاب الشــاعر عندما سئل عن الهمز في دنيء «لا أهمزه لأنني رأيتهم قد أجتمعـوا على ترك الهمز في قوله تعـالى : أتسـتبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير»[٧٦]

وقد يسـتشهد ببعض القـراءات القـرآنية ، كما قال في تبرير حــذفه لتنوين على في بيته :

في رتبــة حجب الورى عــن نيلهــا وعلا فســموه على الحاجبــا

بأنه تبع في ذلك قراءة من قرأ «قل هو الله أحد الله الصمد»[٧٧].

ويورد في بعض الأحيان شـواهد من الحـديث الشريف ، مثل ما ذكر في قوله :

إذا عذلوا فيهــا أجبت بأنه حبيبتا قلـبي فؤادي هيا جمل

فقد أجاب حين سئل عن تصغير «حبيبة» بأنه صغرها للتقريب كقـول النبي ﷺ «قدموا أصحابي أصيحابي»[٧٨].

---

(٧٥) ديوان المتنبي . عبد الوهاب عزام ٢٩٦

(٧٦) النظام في شرح ديواني المتنبي وأبن تمام . ابن المستوفي (خ ٢:١٥٥ أ) ، ديوان المتنبي . عبد الوهاب عزام ٣٠٦ ، انظر مختصر ابن خالويه ٦

(٧٧) ديوان المتنبي . عبد الوهاب عزام ١٠١ ، انظر السبعة لابن مجاهد ٧٠١

(٧٨) ديوان المتنبي . عزام ٣٩

آثار ثقافته اللغوية في شعره

١ - لعل أبرز ظاهرة نحوية تحدث عنها النقاد في شعر المتنبي هي ماسلك فيه الشاعر مسلك مدرسة الكوفة ، فالشاعر - كما وصفه بعضهم - كوفي المولد ، كوفي المنشأ . وقد ورد على لسان الشاعر ما يمكن أن يبيح للنقاد أن ينسبوه الى هذه المدرسة ؛ فقد ذكر في احدى مناقشاته مع المهلبي «هذا على مذهب البصريين ، ولا أعمل عملهم»[٧٩].

ولعل ما عرف من انتماء الشاعر إلى مدرسة الكوفة كان وراء كثير من التأويلات التي ذهب اليها الشراح ، وخاصة العكبري ، ولو أسقط هؤلاء ما استقر في أذهانهم من انتماء الشاعر إلى هذه المدرسة لاستطاعوا تخريج كثير من أبياته ، دون حاجة الى ادراجها في اطار الشذوذ الكوفي .

لقد كان من الطبيعي من شاعر مثقف كالمتنبي أن يكون مطلعا على مسائل الخلاف مما لا نملك أن نصدر فيه حكما .

وسنعرض في هذا الموضع لبعض المسائل التي اندرجت تحت هذا الباب :

- أفعل التفضيل :

قال المتنبي :

أبعد بَعِدْتَ بياضا لابياض له   لأنت أَسْوَدُ في عيني من الظُّلَمِ[٨٠]

صاغ الشاعر أفعل التفضيل من اللون ، وقد ذكر في شرحه الذي أملاه لهذا البيت يقال هو أشد سوادا من كذا . وأسود من كذا . قال طرفة :

إن قلت نصر فنصر كان شرفتي   قوم وأبيضهم سربال طباخ

وقد حكى الفراء عن حميد بن الأرقط قال : سمعت العرب تقول

(٧٩) المنصف . ابن وكيع (خ ٣٤ أ)
(٨٠) التبيان . العكبري ٤ : ٣٥

ماأسود شعره ، ويستعملون هذا ، وأنشد :

جارية في درعها الفضفاض   تقطع الحديث بالايماض
أبيـــض من أخت بــني ابــاض[٨١]

فقد أورد الشـاعر هنا ماسـاقه نحاة الكوفة من النقـل للتدليل على جواز بناء اسم التفضـيل من الألوان ، غير اننا نراه من ناحية أخـرى يشرح تأويل الجمهور لاستعمال هذه الصيغة فيقول : «وان أردت أسود من ظلم سـود أي أنت من الظلم جــاز . قال ويكون معناه لأنت أســود في عيني . وتم الكلام . ثم قال : أنت من الظلم كما تقول هو مقعد من الزمن»[٨٢].

وقد اعتمد المتنبي هنا على تأويلهـم لقـول طـرفة «أبيضـهم» بأنه من قبيل الصفة المشبهة كقولنا هذا أحسن منه وجها ، وهو أحسن القـوم وجهـا ، فإن مجـيء الصـفة المشـبهة من الألوان مألوف ، مثل فلان أبيض اللون .. الخ .. وقد احتج البصريون لهذا التأويل بقول الشاعر :

وأبيض من ماء الحديد كأنه   شهاب بداوالليل داج عساكره[٨٣]

فقد دلل الشاعر هنا على المامه الكامل بدقائق هذه المسـألة ، ولعـل فيما ساقه من تأويل للبيت ردا على النقـاد ، الذين عدوا قوله من الشـاذ الذي أغرم به .

نداء ما فيــــه أل :

يا مزيل الظـــلام ...

واليماني الذي لو اسطعت كانت   مقلتي غمده من الاعزاز[٨٤]

أورد الاسـم المنادى محلى بأداة التعـريف ، وقد خـطأه البصريون فيما ذهب اليه ، وأجازت ذلك الكوفة قياسا على ماحفظه التراث . قال الشاعر :

---

(٨١) ، (٨٢) ديوان المتنبي . عزام ٢٩ (عن ابن جنى)
(٨٣) الانصاف . ابن الانباري ١٥٣
(٨٤) التبيان . العكبري ٢ : ١٧٦

فديتك يا التي تيمت قلبي وأنت بخيلة بالود عني[٨٥]

وقول الآخـــر :

عباسُ يا الملكُ المتوج والذي عرفت له بيت العلا عدنان[٨٦]

الترخـــيم :

أجدَّكَ ما تنفك عانٍ تفكُّه عُمَ بن سليمانٍ ومالاً تقسمٌ[٨٧]

عاب عليه ابن جنى ترخيمه للاسم الثلاثي ؛ فقد ذهب البصريون إلى أن ترخيم ما كان على ثلاثة أحرف غير جائز ، لأنه خفيف لايحتمل الحذف .

أما الكوفيون فقد أجـازوا الترخـيم في الثلاثي المتحـرك الوســط ، وأجازه بعضهم في الأسماء على الاطلاق .

مهلا ألا لله ما صنع القنا في عمرو حابٍ وضبة الأغتام[٨٨]

رخم الاسم المضـاف (عمرو حـاب) ، ولم يجـز ذلك البصريون ، أما الكوفيون فقد أجازوه وأوقعوا الترخيم في آخـر الاســم المضـاف اليه . ولهــذا الترخيم نظائر في الشعر : قال اوس بن حبناء :-

ان ابن حارث ان اشتق لرؤيته أو أمتدحه فان الناس قد علموا[٨٩]

أراد ابن حارثة .. وقال آخر :

لنعم الفتى تعشوا الى ضوء ناره طريف بن مال ليلة الجوع والخصر[٩٠]

(طريف بن مالك)

فقـد تبع الشـاعر هنا ماورد بالتراث على سـبيل الندرة ، وقد هيأ له النحو الكوفي ما يشبع ميله الى الغريب والنادر .

---

(٨٥) التبيان العكبري ٢ : ١٧٦
(٨٦) كتاب سيبويه ١ : ٣١٠
(٨٧) الانصاف . ابن الانباري ٣٣٦
(٨٨) التبيان . العكبري ٤ : ٩٠
(٨٩) التبيان . العكبري ٤ : ١١
(٩٠) كتاب سيبويه ١ : ٣٤٣.

إضافة ذو الى الضمير :

وقد يضيف ذو الى الضمير خلافا لجمهرة العرب ، التي تمنع اضافتها لغير اسم الجنس ، فقال :

سرب محاسنه حرمت ذواتها ... داني الصفات بعيد موصوفاتها[91]

وقد أجاز ذلك الكوفيون قياسا على المسموع من قول كعب بن زهير :-

صبحنا الخزرجية مرهفات ... أباد ذوي أرومتها ذووها[92]

وأنشد الأصمعي :

أهنا المعروف مالم ... تبتذل فيه الوجوه

انما يصطنع المعرو ... ف في الناس ذووه[93]

وللأحوص :

ولكن رجونا منك مثل الذي به ... حرمنا قديما من ذويك الأوائل[94]

أعمال أن بعد حذفها :

ذهب الكوفيون الى اعمال ان بعد حذفها ، أما البصريون فذهبوا الى أنها لا تعمل إن حذفت دون بدل ، الا بعد الفاء السببية وبعد الواو والام وأو وحتى .

وقد أعمل المتنبي أن بعد حذفها في عدة مواضع :

توقه فتى ماشئت تبلوه ... فكن معاديه أو كن له نشبا[95]

بيضاء يمنعها تكلم ... دلها تيها ويمنعها الحياء تميسا[96]

وكلما لقى الدينار صاحبه ... في ملكة افترقا من قبل يصطحبا[97]

---

(٩١) الانصاف ابن الانباري ٣٥٤

(٩٢) التبيان . العكبري ١ : ٢٢٥

(٩٣) شرح ديوان كعب بن زهير ٢١٢

(٩٤) شرح المفصل للزمخشري ١ : ٥٣

(٩٥) لسان العرب (ذو)

(٩٦) التبيان . العكبري ١ : ١١٤

(٩٧) المصدر نفسه ٢ : ١٩٥

وقد احتج الكوفيون لرأيهم بما ورد في الشعر كقول طرفة :

ألا ايهذا الزاجري أحْضرَ الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي[98]

وقول الآخر :

أنظرا قبل تلوماني الى طلل بين النقا والمنحنى[99]

وقد عد البعض من هذا الباب قول المتنبي :

وقبل يرى من جوده مارأيته ويسمَعُ منه ما سمعت من العدل[100]

فقد نص العكبري على إعمال أن المحذوفة كالأبيات السابقة ، أما الواحدي فقد أورد البيت برفع «يسمع» ، ولعل قول الواحدي أقرب الى الصواب ؛ لأن اتباع الشاعر لما اتفق عليه الجمهور أفضل من حمله على الشذوذ .

وقوله :

أحبك أو يقولوا جر نسل ثبيرا وابن ابراهيم ريعا[101]

القول في هذا البيت قريب مما ذكرنا في البيت السابق ، من حيث انه ورد موافقا لمذهب الجمهور ؛ إذ أن إضمار أن واجب بعد أو المقدرة بحتى أو إلا . فالأول كقول الشاعر :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال الا لصابر[102]

أما الثاني فكقول امرىء القيس :

فقلت له لاتبك عينك انما نحاول ملكا أونموتَ فنعذرا[103]

فالفعل يقولوا في بيت المتنبي منصوب بأن المضمرة وجوبا بعد أو ، التي بمعنى حتى .

---

(٩٨) المصدر نفسه ١ : ١١٦

(٩٩) ديوان طرفة بن العبد ٢٧

(١٠٠) الواحدي ٩٤

(١٠١) التبيان . العكبري ٣ : ٥٠ ، الواحدي ٤١٢

(١٠٢) التبيان . العكبري ٢ : ٢٥٣

(١٠٣) شرح ابن عقيل ٢ : ٣٤٧

ونظير هذين البيتين للاخـــرين كثير مما حمله الشراح على الشـــذوذ الكوفي ، على الرغم من أنه مما أجاز جمهور النحاة للشعراء من باب الضرورة .

منع المنصرف :

الى واحد الدنيا إلى ابن محمد   شجاعِ الذي لله ثم له الفضل[١٠٤]

فقد حذف تنوين شجاع - لالتقاء الساكنين - سكونه وسكون اللام الأولى من الذي ، وهذا مما أبيح للشاعر في الضرورة كقول أحدهم :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عجاف[١٠٥]

ويصـــادفنا هنا ما ســبق أن ذكرنا من اصرار بعض الشراح على الاقرار بكوفية الشاعر ، فقد فسر العكبري هذا البيت وفقـا لمذهب الكوفة ، ذاكرا حجتهـم في ترك صرف ما ينصرف وحجـة البصريين ، معـددا من وافق الكوفيين من نحاة البصرة ومن خـالفهم ، وكان باستطاعته حمل قول الشـاعر على الضرورة ...

ومن هذا الباب ترك صرف (طغج وجفّ) في قوله :

حمته من الاعداء من كل جانب   سيوف بني طغج بن جف القماقم[١٠٦]

زعم الواحـــدي والعكبري ان الشـــاعر ترك صرف هذين العلمين باجـازة نحـاة الكوفة ، أما عند البصريين فهـــو منصرف لأنه أعجمي ثلاثي كنوح ..

وقد ذهب ابن جـنى الى أن الأجـود فيهما الكسر ، ثم حـذف التنوين لالتقاء الساكنين ، ولعل اعتماد الواحـدي على ماذكره راوية الشـاعر هو الذي حداه إلى التراجع والقـول بأن الأجـود أن يكسر الشـاعر الكلمتين ويحـذف التنوين منهما لالتقاء الساكنين ، واستشهد على ذلك بقراءة من قرأ «عزيرُ ابن

---

(١٠٤) ديوان امرىء القيس ٦٦

(١٠٥) التبيان . العكبري ٣ : ١٨٤

(١٠٦) الانصاف . ابن الأنباري ٦٦٣

الله» وقولهم «حاتم الطائي وهاب المئي» .

وهذا السلوك من الضرورات التي أجيزت للشعراء ، ومنه قول أحدهم :

لتجدني بالأميد برًّا وبالقناة مدعسا مكِرًّا

إذا غطيفُ السلمي فرًّا[١٠٧]

وأراني أميل هنا الى ماذكره ابن جنى : فقد سمع شعر الشاعر منه نفسه وجادله في كثير من المسائل ، وعلم ابن جنى في غنى عن الوصف ، وفيما ذكره الواحدي ما يؤيده .

ومن باب الضرورة أيضا قد نستطيع اجازة ترك صرف حمدون وحارث في قول الشاعر :

وحمدانُ حمدونُ وحمدونُ حارث وُحارثُ لقمانُ ولقمانُ راشدُ[١٠٨]

وله نظائر في شعر العرب المحتج بهم . قال الأخطل :-

طلب الأزارق بالكتائب إذ هوت بشبيبَ غائلة الثغور غدور[١٠٩]

ولحسان بن ثابت :

نصروا نبيهم وشدوا أزره بحنين يوم تواكُلِ الأبطال[١١٠]

وغير هذين البيتين كثير .

الضمير (العطف) :

ومما أورده العطف على الضمير المتصل المرفوع . قال :

مضى وبنوه وانفردت بفضلهم وألف اذا ماجمعت واحد فرد[١١١]

يباعدن حبا يجتمعن ووصله فكيف بحب يجتمعن وصده[١١٢]

---

(١٠٧) الواحدي ٣١٩ ، التبيان ٤ : ١١٥

(١٠٨) الانصاف . ابن الانباري ٦٦٥

(١٠٩) التبيان . العكبري ١ : ٢٧٧

(١١٠) شعر الأخطل ٧٦

(١١١) الانصاف ٤٩٣ ، غير موجود بالديوان

(١١٢) التبيان ١ : ٣٨١

أجاز الكوفيون العطف على الضمير المتصل المرفوع ، ومنعه البصريون في غير ضرورة الشعر . ويمكن أن نعد ماذكره المتنبي ضرورة اقتدى فيها المتنبي بمن سبقه . قال جرير :

ورجا الأخيطل من سفاهة رأيه   ما لم يكن وأب له لينالا[113]

وقال عمر بن أبي ربيعة :

فلما لحقنا والجياد عشية   دعوا يالكلب واعتزينا لعامر[114]

الفصل بين المضاف والمضاف اليه :

حملت اليه من لساني حديقة   سقاهاالحجى سقيَ الرياضَ السحائبِ[115]

فصل المتنبي بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول ، وقد أجاز الكوفيون الفصل بينهما بغير الجار والمجرور والظرف ، وقصر البصريون ذلك على الشعر من باب الضرورة .

وقد ورد ذلك كثيرا في أشعار العرب . قال الشاعر :

فزججتها بمزجة   زج القلوصَ أبي مزادة[116]

وقال الطرماح :

يصفن بجوزي المراتع لم ترع   بواديه من قرع القسى الكنائن[117]

٢ - وقد يرد بشعر المتنبي من الأساليب ما خالف به مذهب جمهور العرب ؛ مما يجعله عرضه للنقد والتجريح ، ولكن الشاعر لم يأت بهذه الاساليب عن جهل بالنحو وانما عن سعة اطلاع ؛ فقد يقدم على بعضها اضطرارا لااختيارا ، ثم يجد لما أورده نظائر في شعر العرب المحتج بهم فلا يعدل عما ذكر .

فقد يأتي الشاعر بعلامة المثنى أو الجمع في الفعل المسند الى الظاهر ،

---

(١١٣) المصدر نفسه ٢ : ١٩

(١١٤) الانصاف . ابن الانباري ٤٧٤ ، شرح ديوان جرير ٤٥١

(١١٥) المصدر نفسه ٤٧٤ ، غير موجود بالديوان .

(١١٦) التبيان ١ : ١٥٨

(١١٧) الانصاف . ابن الانباري ٤٢٨

في مثل قوله :

لا يستحي أحـــد يقال له نضلوك آل بويه أو فضلوا[118]
نفديك من سيل اذاسئل الندى هول اذااختلطا دمٌ ومسيحُ[119]
العارفــين بهــا كـما عرفتَهمُ والراكبين جـدودَهم أمّاتِها[120]

وقد تبع الشاعر في مسلكه لغة طـائفة من العـرب ، قد تكون طيبًا أو شنوءة ، وعلى هذه اللغة حمل قوله تعالى «وأسروا النجوى الذين ظلموا» وقول الرسول صلى الله عليه وسلم «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» .

وقد ترددت هذه اللغـة في أشـعار العـرب ، كقـول عبيدالله بن قيس الرقيات :

تولى قتال المارقين بنفسه وقد أسلماه مبعد وحميم

وقول عبدالرحمن بن عبدالله العتبي :

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي فأعرضن عني بالخدودالنواضر[121]

وقول أبي فراس :

نتـجَ الربيــعُ محاسـناً ألْقَحْنَهُ غُرُّ السحائب[122]

وقد عيب على الشاعر انه اوقع الضمير المتصل بعد إلا . قال :

ليـس الاك يا علي همـــام سيفـه دون عرضـه مسلول[123]
ألم تــر من نادمــت الاكا لا لســوى ودك لي ذاكا[124]

فالمشهور عن جمهور العرب أن ينفصل الضمير عن الا كقـوله تعـالى «ضل من تدعون الا اياه» ، ولكنهم أجازوا الوصل لضرورة الشعر .

وقد ردّ الشاعر على من أخـذ عليه هذا القـول ، محتجـاً بما أنشــد

---

(١١٨) ديوان الطرماح ٢٤٨٦
(١١٩) التبيان . العكبري ٣ : ٣٠٩
(١٢٠) المصدر نفسه ١ : ٢٥٣
(١٢١) المصدر نفسه ١ : ٢٢٩
(١٢٢) شرح ابن عقيل ١ : ٤٦٩ ، المغنى ٤٠٧
(١٢٣) ديوان أبي فراس ١ :٥٢
(١٢٤) التبيان . العكبري ٣ : ١٥٦

الفراء :

فما نبالي إذا ما كنت جارتنا ألا يجاورنا الآك ديار[١٢٥]

ونظير ذلك قول الشاعر :

أعوذ برب العرش من فئة بغت عليّ ، فمالي عَوْض الاهُ ناصر[١٢٦]

وقد تبع مسلك من أجاز تقديم ضمير الغائب المتصل على المخاطب ، ومما رووه في هذا الباب حديث عثمان رضي الله عنه «أراهني الباطل شيطانا»[١٢٧] .

قال :

خلت البلاد من الغزالة ليلها فأعاضهاك الله كي لا تحزنا[١٢٨]

فخالف بذلك رأي الجمهور في تقديم الأخص من الضميرين المتصلين هنا - وهو ضمير المخاطب - وكان الأولى به أن يقول أعاضكها أو بفصل بين الضميرين فيقول أعاضها اياك .

٣ - نتحدث في هذه المقالة عن أثر من آثار ثقافة المتنبي اللغوية في شعره ، وهو ولعه بالغريب من المفردات والصيغ ، ومخالفته للسماع في بعض الجموع .

لقد عاش المتنبي بين الأعراب في البوادي عدة سنوات في مرحلة مبكرة من عمره كان مهيأ فيها لاستيعاب ما يعرض له من الالفاظ ، فاكتسب ذخيرة واسعة من المفردات والصيغ التي دارت على مسامعه .

وقد أقبل المتنبي على دراسة اللغة باهتمام كبير ، فاطلع على دقائقها وحفظ غريبها حفظ الباحث الذي لاتفوته شاردة فيها ، فكان بذلك عضوا مهما في المناقشات اللغوية التي جرت في بلاط سيف الدولة الحمداني ، وحضرها خيرة علماء اللغة كابن خالويه وأبي الطيب اللغوي ، ولعل هذا ما

---

(١٢٥) المصدر نفسه ٢ : ٣٨٣
(١٢٦) الوساطة . للجرجاني ٤٥٧
(١٢٧) شرح ابن عقيل ١ : ٨٩
(١٢٨) المصدر نفسه ١ : ٨٩

حدا بأبي علي الفارسي الى توجيه السؤال الى الشاعر حول الجموع على وزن فعلى ثم انفاق الفارسي ثلاث ليال ليجد لما ذكر المتنبي تصحيحا فلم يعثر على ضالته[١٢٩]، وهو ماجعل أديبا كابن العميد يستنير برأيه حول ديوانه الذي قيل انه جمعه في اللغة فقرأه عليه[١٣٠].

أضف الى ذلك ما استفاده الشاعر من محفوظه الشعري الغزير من مفردات أمدته بأسانيد من التراث فيما استعمل في أشعاره من ألفاظ .

وقد أكسبته هذه الثقافة الواسعة باللغة ثقة بطبعه وقوة سليقته اللغوية ، جعلته يقدم على كثير من الالفاظ التي يراها مؤدية لما أراد من المعاني دون ان يلتفت الى انها من الالفاظ التي اسقطتها الحضارة ، ولفظها المعجم العربي المتطور ؛ لذلك رأيناه يجيب حين سئل عن لفظ مرجاه في قوله :

ما لمن ينصب الحبائل في الأرض ومرجاه أن يصيد الهلالا

قلتها بالطبع ثم وجدتها في شعر الأعشى»[١٣١]. ويرد على من انتقد عليه أحد أقواله قائلا «انما أمري على طبعي وأقول ما يسوغه لساني»[١٣٢] .

وقد أجاد ابن رشيق في تصوير جرأته على الألفاظ وثقته الواضحة بمسلكه اللغوي بقوله «أبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهرا وعنوة ، أو كالشجاع الجرىء يهجم على مايريده لا يبالي مالقي ولا حيث وقع»[١٣٣]. ولم يكن يعوز هذه الجرأة على الألفاظ امعان النظر فيها والتأكد من سلامتها وخلوها مما يجعل شعره عرضة للنقد والتجريح ؛ إذ أن الشاعر كان حريصا على تأييد العلماء اكثر من حرصه على ممدوحيه[١٣٤].

وإذا طرحنا بعض الألفاظ ، التي أطلق عليها بعض النقاد كالحاتمي

---

(١٢٩) التبيان ٤ : ٢٠٧
(١٣٠) الصبح المنبي . البديعي ١٤٣
(١٣١) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . الاصفهاني ١٦
(١٣٢) ديوان المتنبي . عزام ٤٠٦
(١٣٣) الموضحة للحاتمي ٧٧
(١٣٤) العمدة . ابن رشيق ١ : ١٣٣

والصاحب بن عباد والثعالبي وأبي كثير صفة الغريب وعدوها من العيوب التي كان الأولى بالشاعر أن يتجنبها ، فاننا نلاحظ ان كثيرا منها لحقته هذه الصفة ؛ لأنه لم يكن مألوفا من شاعر متحضر عاش في القرن الرابع الهجري وفي بيئة ذات حضارة راقية كحلب ومصر ، ومن ثم فقد عد استعماله لها من التفاصح والتعالم الذي عيب عليه ، فنرى ابن عباد يقول «ومن أطم ما يتعاطاه التفاصح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء أو غذى لبن ولم يطأ الحضر ولم يعرف المدر»[١٣٥] وجعله ابن رشيق متعمدا اظهار علمه باللغة وغريبها[١٣٦].

ولعل مانعرفه من اقرار العلماء بطول باع المتنبي في اللسان العربي وسعة اطلاعه على دقائقه مما لا يحوج الشاعر الى تعمد اظهاره ليبهر هؤلاء العلماء ، فهذا الحكم الذي أصدره ابن عباد يفتقر الى بعض الموضوعية ، كغيره من الأحكام الذي حفلت بها رسالته .

ويبدو ان الثعالبي كان متأثرا بابن عباد الى حد كبير فيما أصدر من أحكام بالاضافة الى ما أورده من آراء ابن عباد نفسه ، فرأيناه يصدر بعض الاحكام التي تتسم بالعموم ، كقوله «لم أسمعه في شعر غيره» وغير ذلك من الاحكام التي يمكن أن تنسب الى مرحلة متقدمة من تاريخ النقد العربي كالحكم بأمدح بيت وأهجاه .

ونعرض فيما يلي بعض هذه الألفاظ التي عدت من الغريب في شعره :

١- جفخت وهم لايجفخون بهابهم   شيم على الحسب الأغر دلائل[١٣٧]

يرى ابن عباد ان المتنبي أورد لفظ جفخت ليدل على علمه بالغريب» . ولعل الشاعر قد استقى اللفظ من قول أحدهم :

أتوعدني بجفخ بني عمير   وقد أفحمت شاعر كل حي[١٣٨]

---

(١٣٥) ديوان المتنبي . عزام ٥٦١

(١٣٦) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي . الصاحب بن عباد ٤٨

(١٣٧) العمدة لابن رشيق ٢ : ٢٦٦

(١٣٨) التبيان . العكبري ٣ : ٢٥٨

٢ـ ومنها كلمة (يلل) التي ذكرها في قوله :

والى حصى أرض أقام بها بالناس من تقبيلها يلل[١٣٩]

وقد وصف الثعالبي هذا اللفظ بالغرابة والندرة وانه لم يسمعه في غير شعر الشاعر[١٤٠] أو هو من اختراعاته التي لم يسبق اليها على حد تعبير ابي كثير[١٤١] . والمعروف ان اليلل : قصر الاسنان والتصاقها على غار الفم ، وقد يبدل على ألل ، ومنه وصف الرجل بأنه ايل . قال لبيد :

رقميات عليها ناهض تُكْلِحُ الأروقَ منهم والأَيَل[١٤٢]

٣ - ومن هذه الألفاظ : الحزائق بمعنى الجماعات ، في قوله : -

هو البين حتى ما تأنى الحزائق وياقلب حتى أنت ممن أفارق[١٤٣]

ولفظة الحزائق جمع من المنقول الصحيح ، ومفردها : حزيق ، وقد وردت في شعر العرب المحتج بهم . قال لبيد :

ورَقَاقٍ عُصَبٍ ظُلْمَانُه كحزيق الحبشيين الزُّجَل[١٤٤]

وقال ذو الرمة :-

كأنه كلما ارفضت حزيقتها بالقلب من نهسه اكفالها كلب[١٤٥]

فشاعرنا لم يسلك في بيته غير ماأثر عن العلماء والشعراء ، ولعل وجود نظائر للفظ في الشعر مما يؤكد لنا ان ماأصدر النقاد على هذا البيت ونظيره من أحكام لم تأت بعد بحث واستقصاء لمدى صحة اللفظ وسلامة مصدره .

---

(١٣٩) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي . الصاحب بن عباد ٧٥
(١٤٠) التبيان . العكبري ٣ : ٣٠٦
(١٤١) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ١٣٤
(١٤٢) تنبيه الأديب ، أبو كثير (خ ٦٢)
(١٤٣) لسان العرب (يلل) غير موجود بديوان لبيد
(١٤٤) التبيان . العكبري ٢ : ٣٤١
(١٤٥) ديوان لبيد ١٧٤

قوله :

ودقيق قِدَى الهباء أنيق　　متوالٍ في مستو هزهاز[146]

استعمل المتنبي لفظ قِدَى بمعنى مقدار ، وله نظائر ؛ فقد أنشد الأصمعي لأحدهم :

ولكن إقدامي إذا الخيل أحجمت　　وصبري إذا ماالموت كان قِدَى شبر[147]

وقال هدبة بن الخشرم :-

واني اذا ماللوت لم يك دونه　　قِدَى الشبر أحمى الأنف ان أتأخرا

ومما أنكر على الشاعر وعد من عثراته ، التي أوقعه فيها ولعه بالغريب ، قوله :

بالواخدات وحاديها وبي قمر　　يظل من وخدها في الخدر حشيانا[148]

.ورجل حشيان : اذا أخذه البهر ، ومنه قول أبو جندب الهذلي :ـ

فنهنهت أولى القوم عنهم بضربة　　تنفس منها كل حشيان مُحْجَرِ[149]

ولم يكن الشاعر يبدي استياءا اذا وصف بعشقه للغريب وترسمه لألفاظ العرب الجافية ، بل نراه أحيانا يدل على المصدر الذي أخذ منه بعض المفردات الواردة في شعره ، وكأنه بهذا العمل يؤكد تأثره بالمحفوظ من الشعر الفصيح ، فقد أنشد في شرح قوله :

ربحلة أسمر مقبلها　　سبحلة أبيض مجردها

أنشد قول القائل :

سبحلة ربحلة　　تنمي نماء النخلة[150]

٦ - وقوله :

أيفطمه التَوراب قبل فطامه　　ويأكله قبل البلوغ الى الأكل[151]

أورد الشاعر لفظ : توراب ، وهي لغة صحيحة في تراب كالتورب

---

(١٤٦) ديوان ذي الرمة ١٣

(١٤٧) التبيان . العكبري ٢ : ١٧٤

(١٤٨) لسان العرب (قدى)

(١٤٩) التبيان للعكبري ٤ : ٢٢١ ، اليتيمة ١ : ١٣٤ ، أبو كثير (خ ٧٧) .

(١٥٠) لسان العرب (حشى)

(١٥١) عزام ٣

والتيرب والترباء الخ .. وعلى الرغم من سلامة مصدرها فقد عابها عليه بعض النقاد ، وعدوها من الألفاظ الجافية التي كان الأولى به أن يتجنبها[١٥٢] .

وقد يحمل مثل هذا اللفظ على الضرورة في اشباع الضمة والكسرة والفتحة وجعلها واوا وياء وألفا ، فلو ضبطت هذه الكلمة بضم التاء وسكون الواو لكانت نظير قول الشاعر :

وانني حيث مايثني الهوى بصري | من حيث ماسلكوا أدنو فانظور[١٥٣]

ومن ذلك استعمال الكيذبان والكذاب محل الكذاب والكذب ، في قوله :

أأخفت العين عنده خبرا | أم بلغ الكيذبان ما أمله[١٥٤]

ان الكذاب الذي أكاد به | أهون عندي من الذي نقله[١٥٥]

وقد أمده حفظه للأشعار واختلاطه بالقبائل بطائفة من الصيغ واللهجات التي تكلمت بها العرب في أقوالها وأشعارها ، فانسابت على لسانه مما جعله معرضا لطعن الطاعنين وانتقاد الناقدين ، وقد علل أحدهم ذلك بأن كل شاعر من شعراء العرب نطق بلغته التي لا يعرف سواها أو أستمرأ لسانه عليها ، أما الشاعر الحضري الذي تعلم وتأدب وحفظ اللغات والأشعار فان عليه أن يختار منها الأعرف ، حتى لا ينصرف القاريء عن تذوق شعره ببحثه عما غمض من ألفاظه[١٥٦]، لذلك رأينا العكبري يعلق على لفظ هنّا في قول الشاعر :

وخيل حشوناها الأسنة بعدما | تكدس من هَنّا علينا ومن هَنّا[١٥٧]

بأنه غريب في التصريف ، وليس من لفظه .

---

(١٥٢) التبيان . العكبري ٣ : ٥٠

(١٥٣) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي . الصاحب بن عباد ٤٩ ، الموضحة للحاتمي ٣١

(١٥٤) ما يجوز للشاعر في الضرورة . القزاز ٩٦

(١٥٥) التبيان للعكبري ٣ : ٢٧١

(١٥٦) المصدر نفسه ٢ : ٢ : ٢٦٩

(١٥٧) الفسر لابن جني ١ : ١٠٨

ولم يأت الشاعر فيما ذكر ببدعة ؛ فاستعمال هنا بدلا من ههنا مما ورد في اشعارهم . قال الأعشى :

لات هنّا ذكرى جبيرة أمَنْ ... جاء منها بطائف الأهوال[158]

الراعي :

أفي أثر الأضعان عينك تلمح ... نعم لات هَنَّا ان قلبك مِتْيحُ[159]

وللعجاج : هنّا وهنّا وعلى المسجوح[160].

ومن ذلك استخدامه للغات المختلفة في الاسم الموصول (الذي) ، كقوله :-

لولم تكن من ذا الورى اللَّذْ منك هو ... عقمت بمولد نسلها حواء[161]

فقد استعمل (اللّذ) بدلا من (الذي) ، وكذلك (اللّذّي) بتشديد الياء :-

أهذا اللّذياّ بنت وردان بنته ... هماالطالبان الرزق من شرمطلب[162]

وقد يورد لغة : (الذي) جمعا (اللذْ) مثل قوله :

بضرب هام الكماة تم له ... كسب الّذِيْ يكسبون بالملق[163]

ولما أورد المتنبي نظائر في شعر العرب . قال الأخطل :

أبني كليب ان عمي اللّذّا ... قتلاالملوك وفككا الأغلالا[164]

وللأشهب بن رميلة :

وان الذي حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم ياأم خالد[165]

وقد يسلك مسلك بعض العرب في ابدال همزة أن هاء مع اللام ،

---

(١٥٨) التبيان . العكبري ٤ : ١٦٧

(١٥٩) ديوان الاعشى ٣ ، ورد أو من.

(١٦٠) ديوان الراعي ٤٠

(١٦١) ديوان العجاج ٢٤٣

(١٦٢) التبيان . العكبري ١ : ٣١

(١٦٣) المصدر نفسه ١ : ٢١٨

(١٦٤) المصدر نفسه ٢ : ٣٧٣

(١٦٥) شعر الأخطل ٤٤

فقال :

(لهنك) بدلا من (لانك) :

لَهِنـــكَ أولى لائم بملامـــة وأحوج ممن تعذلين الى العذل[١٦٦]

وكثيرا مارأينا ذلك في شعر العرب المحتج بهم . قال تليد الضبي :

لهنى لأشقى الناس ان كنت غارما قلائص بين الجهلتين ترود

ولخداش بن زهير :

لهني لأشقى الناس ان كنت غارما لعاقبة قتلى خزيمة والخضر[١٦٧]

وقد ذهب الشاعر مذهب طـيء في معـاملة الفعـل الثلاثي المعتل اللام المكسور العين بقلب واوه أو يائه ألفا ، فيقولون رَضَى ورَقَى مكان رضي وبقي .

قال :

فتعطى من بقي مالاجسيما وتعطى من مضى شرفاعظيما[١٦٨]

خاض الحمام بهن حتى مادرى أمن احتقارذاك أم نسيان[١٦٩]

ملك زُهَت بمكانه أيامه حتى افتخرن به على الأيام[١٧٠]

وقد عمد الشاعر الى هذه اللغة ليشبع ولعه بالغـريب والنادر ، ونظير ذلك في الشعر قول البولاني :

تستوقدالنبل بالحضيض وتصـ طاد نفوسابنت على الكرم[١٧١]

وقول زيد الخيل الطائي :

لعمرك ما أخشى التصعلك ما بقى على الارض قيسي يسوق الأباعرا[١٧٢]

٤ - وكان الشاعر يميل الى ايراد بعض الجموع النادرة أو الغريبة ، من ذلك جمعه : أخ على : أخاء ، في قوله :

---

(١٦٦) لسان العرب (لذا)

(١٦٧) التبيان . العكبري ٣ : ٢٨٩

(١٦٨) لسان العرب (هنا)

(١٦٩) التبيان . العكبري ٤ : ٥

(١٧٠) المصدر نفسه ٤ : ١٧٥

(١٧١) المصدر نفسه ٤ : ١١

(١٧٢) لسان العرب (بقي)

كل آخائه كرام بني الدنـ   يا ولكنه كريم الكرام[١٧٣]

فعلى الرغم من هذا اللفظ من الصحيح الذي أثر عن العـرب ، وقد حكاه سيبويه عن يونس وورد في قول الشاعر :

وجدتم بنيكم دوننا اذنسبتم   وأي بني الآخاء تبنومناسبه[١٧٤]

إلا اننا رأينا من النقـاد من أنكر على الشـاعر أن يورد مثل هذا الجمع ؛ إذ لو ورد برائية الشماخ لاستثقل على حد تعبير ابن عباد[١٧٥]. وقد كان بامكان الشـاعر أن يجمع أخ على اخـوان دون أن يختل نظام البيت ، غير أنه أراد باختياره لهذا الجمع أن يظهر بعض ما حفظ من نوادر الالفاظ .

ومن النادر الذي ذكره : (أروض) في جمع أرض ، قال :

أروض الناس من ترب وخوف   وأرض أبي شجاع من أمان[١٧٦]

وهو قياس صـحيح ، ومن أقوالهـم ما اكثر أروض بني فلان ، وقد حكام أبو زيد في نوادره . وقد ندر سماع هذا الجمع ؛ لامتناع العـرب عن تكسير أرض استغناء بقولهم : أرضات وأرضون ، فيما روى أبو الفتح ابن جنى عن سيبويه[١٧٧]. وأغلب الظن أن الشاعر قد ظفر بهذا اللفظ في احدى مطالعاته لكتب اللغة .

ومن الجموع العزيزة التي ذكرها المتنبي - على حـد تعبيرالأزهري - جمع :

(توأم) على : تؤام ، في قوله :

وعندهم الجفان مكللات   وشزر الطعن والضرب التؤام[١٧٨]

فالمعـروف أن توأم تجمع على التوائم ، غير اننا رأيناها قد جمعـت في بعض الأشعار على توأم - كما ذكرها المتنبي . قال الراجز :

---

(١٧٣) لسان العرب (بق)
(١٧٤) التبيان . العكبري ٣ : ٣٧٨
(١٧٥) لسان العرب (أخو)
(١٧٦) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي . الصاحب بن عباد ٥٤
(١٧٧) التبيان . العكبري ٤ : ٢٥٨
(١٧٨) التبيان ٤ : ٢٥٨ (عن ابن جنى)

قالت لنـــا ومعهـــا تؤام كالـدر اذ أسلمـه النظـام
على الذين ارتحـلوا سـلام

وقال أبو دؤاد الايادي :

نخلات من نخل نيسان أينعـ ن جميعا ونبتهن تُوَأُم[179]

وللجمع نظائر كقولنا «أعتز رباب» .

أما جمع كبد على اكبد في قوله :

لقوك بأكبُدِ الابل الأبايا فسقتهم وحد السيف حاد[180]

وقولـــه :

يلقاك مرتديا بأحمر من دم ذهبت بخضرته الطلى والأكبُدُ[181]

فالأصل في كَبِد أن تجمع على كبود وأكباد . واذا خففت بتسكين الباء جاز لنا ان نجمعها على أكبد نظير فلس وفلوس وأفلس .

وقد ذكر ابن المستوفي أن الشاعر أورد هذا الجمع معتمدا على سماع في سعد ، ولعلها إحدى القبائل التي حل الشاعر بين ظهرانيها[182].

وقال :

ان حل فارقت الخزائن ماله أوسار فارقت الجسوم الروسا[183]

فجمع رأس على روس - بخلاف المشـهور من جمعهـا على رؤوس ، وقد وافق جمعه القياس الصحيح في جمع فَعْل على فُعل كسـقَف وسُـقْف ، وله نظائر في شعر العرب ، قال امرؤ القيس :

فيوما الى أهلي ودهري اليكم ويوماأحط الخيل من رؤس أجبال[184]

وقد نعى عليه بعض النقـاد ايراده لبعض الجموع التي قلما تسـمع في

---

(١٧٩) التبيان . العكبري ٤ : ٧٨
(١٨٠) دراسات في الادب العربي لغربناوم ٣٣٨
(١٨١) التبيان . العكبري ١ : ٣٦٢
(١٨٢) المصدر نفسه ١ : ٣٣٩
(١٨٣) النظام . ابن المستوفي (٢ : ٧ أ)
(١٨٤) التبيان . العكبري ٢ : ١٩٦

الشعر ، فقد جمع : دنيا على دنا ، نظير كبر في جمع : كبرى . قال :

أعز مكان في الدنى سرج سابح وخيرجليس في الزمان كتاب[185]

تتقاصر الأفهـام عن ادراكه مثل الذي الأفلاك فيه والدنا[186]

فقد قاس المتنبي جمعا لهذه الكلمة من حصيلته اللغوية ، ولعل [illegible]ـعهـا في بعض الأشعار كما يقـول المعـري . وربما كان من هذه الأشـعار التي ذكرها المعري قول كثير :

وقد شب من أتراب ظلامة الدنا غرائر أبكارلعينيك مقنع[187]

وقالوا مثل ذلك (في لغة) حيث جمعها الشـاعر لغـى ، محـل لغـات وقال :[188]

عليم بأسرارالديانات واللغى له خطرات تفضح الناس والكتبا[189]

---

(185) لسان العرب (رأس)
(186) التبيان . العكبري ٤ : ٢٠١
(187) التبيان . العكبري ٣ : ١٩٣
(188) النظام . ابن المستوفي (خ ٤٤٣/١ أ) ، وفي ديوان كثير ٤٠١ :
وقد شب من أتراب ظلامه الدمى غرائر أبكار لعينيك مقنع
(189) اليتيمة ١ : ١٣٥ ، أبو كثير (خ ١٧)
(190) التبيان ١ : ٦٢

الفصل الثاني

الثقافة الادبية

نتطرق في هذه المقالة إلى الحديث عن جانب من ثقافة المتنبي هو حصيلة الشاعر من التراث الشعري الذي تناهى اليه عبر القرون . ولعل هذا الجانب اكثر أهمية من غيره ؛ إذ ليس لشاعر غنى عنه ، فإذا كان حديثنا عن شاعر من رعيل القرن الرابع الهجري أدركنا مدى أهمية هذا الجانب في فكره .

وقد حظيت دراسة أثر الموروث في شعر الشعراء باهتمام النقاد العرب ، وشغلت حيزا كبيرا في الدراسات النقدية ممثلة في تتبع المعاني والصور لدى الشعراء من عصر لآخر ، ومعرفة مدى تأثر اللاحق بالسابق ، وما أضافه إليه فيما عرف بدراسة السرقات الأدبية .

وقد كان استيحاء الموروث الشعري أو التأثر به من أقدم الظواهر في أدبنا العربي ، ولا نكاد نجد شاعرا لم يستفد من شعر غيره الذي يمثل لديه حياة أخرى وعالما آخر يزخر بالتجربة والفكر .

ولم يكن المتنبي ليغفل عن أهمية التراث الأدبي في حياة أي شاعر ، ومن ثم فقد أشار الى بعض الجوانب المهمة في عملية الابداع الفني ونعني بذلك دور الخيال في عملية النظم ، ومدى استفادته من محفوظ الشاعر الذي اختزنته الذاكرة فيستمد منها الصور والمعاني التي يوردها في شعره ، فالذاكرة عنده تقوم بدورها في التذكر التلقائي اللاواعي ، إلى جانب التذكر المتعمد او استدعاء المعاني التي يحتاج اليها الخيال حين تستبهم مسالك الابداع - على حد تعبيره - فيجد الشاعر في الذاكرة منجما يثري الملكة ويغذيها ، ولا يبرىء

الشاعر خاطرة مما قد ينساب على قلمه دون وعي منه لكثرة ما يحفظ من أشعار غيره ؛ فالحفظ سبب قوي في تأثر الشاعر بغيره واستيحائه معانيه[1]. وقد تنبه الى ذلك كثير من النقاد : فالآمدي يفرق بين تعمد الشاعر للأخذ عن غيره وعفويته ، فيعلل تأثر البحتري بأبي تمام وأخذه عنه بكثرة ما كان يطرق سمعه من شعره[2] ، كذلك كان شغف أبي تمام وجهده في جمع المختارات الشعرية سببا فيما أخذ عليه من ترسم معاني غيره[3].

وتحدث المتنبي عن التشابه الذي يقع بين معاني وصور بعض الشعراء ، فيتهم بعضهم بالأخذ عن بعض ، واستنكر الاجحاف بحق الشاعر في تناول ما يلوح له من المعاني والألفاظ ، وكأنه يشير بذلك إلى محنة الشعراء المحدثين الذين لم يسلموا من النقد بسبب تداولهم المعاني التي سبق للمتقدمين أن طرقوها ، في الوقت الذي لم يبرأ فيه شاعر جاهلي أو اسلامي من التأثر بغيره والاستعانة بشعره[4].

ولكي يدلل المتنبي على أن تأثير الشعراء واستيحاءهم ممن سبقهم مسلك مألوف في تاريخ الأدب اتبعه شعراء الجاهلية والاسلام من الفحول الذين عدهم الشعراء في العصور التي تلت مثلا أعلى يحتذونه ويترسمون خطاه عرض بعض أشعار الجاهلية مثل شعر امرىء القيس ، والنابغة الذبياني ، وزهير بن ابي سلمى ، والأعشى ، فامرؤ القيس استوحى قوله :

كأنَّ غلامي إذ علا حال متنه   على ظهر باز في السماء محلّق[5]

من قول أبي دؤاد الايادي :

إذا شاء راكبه ضمّه   كما ضمّ بازٍ اليه الجناحا[6]

---

(١) تراجع الرسالة الموضحة . الحاتمي ١٠٧

(٢) الموازنة للآمدي ١٤

(٣) المصدر نفسه ٤٦

(٤)تراجع الرسالة الموضحة ١٤٣

(٥) الرسالة الموضحة . الحاتمي ١٤٣ ، ديواه امرئ القيس ١٧٣

(٦) الموضحة ١٤٣ ، وفى دراسات فى الأدب العربى لغرنباوم ٣٠٢ :

اذا شاء فارسه ضمه   كما ضم باز اليه الجناحْ

واعتمد في قوله :

له جوْجوٌ حشرٌ كأن لجامه يعالي به في رأس جذع مشذب[٧]

على قول أبي دؤاد كذلك :

وهادٍ تقدم لاعيب فيه كالجذع شذب عنه الكَرْب[٨]

واتبع زهير بن ابي سلمى المسلك نفسه حين ترسم خطى المهلهل في قوله :

يطعنهم ما ارتموا حتى اذا طعنوا ضارب حتى إذا ماضاربوا اعتنقا[٩]

قال المهلهل :

انبُضوا معجِس القسيّ وأبرقـ نا كما توعد الفحول الفحولا[١٠]

أما الأعشى فقد أخذ قوله :

يلوينني ديني الغداة وأقتضى ديني اذا وقد النعاسُ الرقدا[١١]

من قول عمرو بن قميئة :

نأتك أمامة الا سؤالا والا خيالا يوافي خيالا

يوافي مع الليل ميعادها ويأبى مع الصبح الازوالا[١٢]

ثم قدم المتنبي صورة لهذا المسلك من شعر المحدثين : كأبي نواس ، والبحتري ، وأبي تمام . فأبو نواس أسوة لمن أتى بعده وهو القائل :

وتدخل عينها في كل قلب مداخل لا تغلغلها المدام[١٣]

واسترشد فيه بقول ذي الرمة :

---

(٧) الموضحة ١٤٣ ، ديوان امرىء القيس ٣٨٥
(٨) الموضحة ١٤٣ ، غربناوم ٢٩٢
(٩) الموضحة ١٤٥ ، شرح ديوان زهير ٥٤
(١٠) الموضحة ١٤٥
(١١) الموضحة ١٤٥ ، وفي ديوان الأعشى ٢٢٦ :
يلوينني ديني النهار واجتزي ديني اذا وقذ النعاس الرقدا
(١٢) الموضحة ١٤٥ ، ديوان عمرو بن قميئة ١٠٦ (زبالا)
(١٣) الموضحة ١١٠ ، وفي ديوان أبي نواس ٣٧٩ :
ويدخل حبة في كل قلب مداخل لا تقلقلها المدام

وعينان قال الله كونا فكانتا   فعولان بالالباب ماتفعل الخمر[14]

وقد وجد المتنبي في شعر أبي تمام دليلا واضحا على التأثر بالموروث الشعري ، واستيحائه فيا ينظم ، ونراه يعرض لبعض أشعاره التي بدا فيها التأثر واضحا فقد أخذ قوله :

يرىٰ أقبحَ الأشياء أوبةَ آمل   كسته يـدُ المأمول حلة خائب
وأحسنُ من نَوْرٍ تفتحه الصَبا   بياض العطايا في سوادالمطالب[15]

من قول الأخطل :

رأين بياضا في سواد كأنه   بياض العطايا في سوادالمطالب[16]

وأخذ قوله :

ولىٰ ولم يظلم وهل ظلم امرؤ   حَثَّ النَّجاءَ وخلفه التنيِّن[17]

من قول كثـير :

يقلب عيـني حيـة بمحـارة

أو من قول الأخطل :

ضفادعُ في ظلماء ليل تجاوبت   فدل عليها صوتُهاحيةَ البحر[18]

قدم المتنبي بهذه المناقشة لشعر بعض فحول الجاهلية والاسلام ومشاعير المحدثين صورة لما حواه موروثه الشعري الذي تألف من عناصر مختلفة تجاور فيها القديم بالحديث ، مؤلفا بذلك حصيلة غنية أثرت خياله وأمدته بمادة وفيرة استعان بها فيا نظم ، ويمكن ان نقول إن دخول الشاعر في مناقشة شعر هؤلاء وغيرهم في مجلس المهلبي ، وفي حضرة معارضيه دليل واضح على ثقته باطلاعه الدقيق على شعرهم ، وتتبعه للمنابع أو الأصول التي استمدوا منها معانيهم ؛ احساسا منه بأهمية هذا الجانب في دراسة الشعر .

(١٤) الموضحة ١١٠ ، ديوان ذي الرمة ٢١٣
(١٥) الموضحة ١٦١ ، ديوان أبي تمام ١ : ٢٠٥
(١٦) الموضحة ١٦١ ، غير موجود بديوانه .
(١٧) الموضحة ١٦٧ ، ديوان أبي تمام ٣١٨
(١٨) الموضحة ١٦٧ ، شعر الأخطل ١٣٢

لقد أخضع المتنبي ذاكرته لعمليات منظمة لتكوين موروث شعري تعددت مصادره وتنوعت ، وقد بدأ هذا الجهد في سن مبكرة بلا شك يمكن أن نرجعها الى سني حياته الأولى في كتاب الكوفة ، حيث كان الشعر جزءا مما يتعلمه الصبي ثم تلقفته دكاكين الوراقين التي حفلت بدواوين الشعراء ، إلى جانب مازخرت به بيئة القرن الرابع من مؤلفات مختلفة . وقد كان الصبي يعد نفسه لنظم الشعر ومن ثم أقبل على الحفظ وساعده على تنمية هذا الجانب ما تميز به من حافظة نادرة ومثابرة على الدرس والتحصيل .

وقد أبدى المتنبي اهتماما بحضور مجالس الشعراء وكتابة ما يملونه على الحضور ، فقد ادعى الناشيء الاكبر ان الشاعر كان يحضر مجلسه بالكوفة ، وقد كتب عنه بعض أشعاره التي استوحاها في بعض شعره[19]. وقد نشك في مثل هذا القول إذ انه صادر عن الناشيء نفسه ويحمل في أعطافه اتهاما بالسرقة ، مما يدفع الباحث إلى تصور الوضع فيه ؛ فقد كان الناشيء من شعراء الشيعة الذين سخروا شعرهم لمدح آل البيت ، وقد زار حلب ومصر وبغداد[20]، ولكنه لم ينل شهرة كالمتنبي ولعله أراد المشاركة في الحركة النقدية التي اتجهت لدراسة أثر التراث الشعري في شعر المتنبي من خلال بحث سرقاته .

ونظير ذلك مارواه ابن وكيع التنيسي ، عن علي بن حمزة البصري ، من أن المتنبي عارض في مطلع حياته شاعر البصرة نصر بن أحمد الخبز أرزي في قصيدته الشاطرية[21] ونحن وان لم نجد بالديوان هذه القصيدة فان المعارضة منهج معهود من الشعراء ؛ للدربة أو تدريب الملكة من جهة ، ولاظهار البراعة والاقتدار من ناحية أخرى .

ولم يقتصر هذا الجهد لتكوين ثقافة شعرية على مراحل حياته الأولى بل لازمه طوال عمره . نستدل على ذلك بما تناقله المؤرخون عن لزومه لديواني

---

(١٩) معجم الأدباء . ياقوت ١٣ : ٢٩٠

(٢٠) المصدر نفسه ١٣ : ٢٨٢

(٢١) المنصف . ابن وكيع (خ-٣١ ب)

أبي تمام والبحتري واصطحابه لهما في أسفاره حتى انه عند مقتله وُجد الديوانان في تركته وقد كتبهما بيده وعليهما ملاحظات دونها الشاعر نفسه"[22]، مما يوحي بأن قراءته لهذين الديوانين لم تكن قراءة شاعر لديوان شاعر آخر يشغل شعره جانبا من محفوظه الذي يضم الكثير ، بل كانت قراءة موجهة توجيها خاصا تنم عن اعجاب واضح بالشاعرين ، وحرص من المتنبي على التأثير بهما واستيحاء معانيهما كما يبدو من دراسة شعره .

إن ما ذكرنا هنا يتنافى مع ما أشيع في الأوساط الأدبية في القرن الرابع من انكار المتنبي انه اطلع على ديواني الشاعرين أبي تمام والبحتري"[23]، وكلاهما نال من الاشتهار ما ينتفي معه جهل أحد من متأدبي العصر بهما ، فإن كان هذا الانكار من شاعر ذي علم كالمتنبي فانه يحمل الكثير من التساؤلات .

وقد ظهرت هذه الدعوى في حلب ورسم الخالديان مصدرها بقولهما «بعض من كان يحسده»"[24]، ثم تلقفها الحاتمي وروج لها في الرسالة الموضحة ، ونقل على لسان الشاعر اعتراضات شتى فيها انكار ساذج لايليق بعلم الشاعر ومكانته : فهو - أي المتنبي - لم يسمع بذكر أبي تمام والبحتري إلا من تلك الحاضرة"[25]، ويقسم بالله انه لم يقرأ شعرا لأبي تمام قط ، وإلى جانب هذا التجاهل ينسب إلى الشاعر كثيرا من الانتقادات لبعض استعارات أبي تمام وبعض سرقاته من غيره .

فان صحت دعوى الحاتمي وغيره في انكار المتنبي لشعر الشاعرين ، فهل كان ذلك حرصا من المتنبي على بقاء هذا الجانب المهم في عملية الابداع الشعري في إطار خفي ، ومن ثم اخفى محاولته لتكوين ثقافة أدبية على الرغم من أهمية هذا الجانب في دراسة فنه فالمقارنة بين الشعراء تكشف عن التقاليد

---

(٢٢) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . أبو القاسم الأصفهاني ١٠ ، الابانة . العميدي ٢٤
(٢٣) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي . الصاحب بن عباد ١١
(٢٤) الصبح المنبي . البديعي ١٣٤
(٢٥) الرسالة الموضحة . الحاتمي ١٠٦

الأدبية التي اتبعها الشاعر حين نعلم الشعراء الذين عدهم مثلا أعلى احتذاه ، وتكشف بالتالي عن مدى تأثره بهم وما أضافه اليهم ، وقد يكون المتنبي مأخوذا بما رآه من اهتمام النقاد بتتبع معاني الشعراء وصورهم ، والالحاح في طلب التأثر بالتراث ، وعدهم السرقة من مآخذ الشعراء على الرغم من اقرارهم باستفادة المتأخر ممن تقدمه فلم يشأ المتنبي جعل السبيل ممهدا أمام النقاد لتوجيه سهام انتقاداتهم اليه .

ويمكن القول ان بطلان هذه المقالة أمر واضح جلي ، وقد أثبت ذلك الحاتمي نفسه الذي يغلب على الظن انه مصدر هذه الدعوى : فقد التقى بالشاعر في حلب قبل قدوم الأخير الى بغداد ، ولعله تعمد نشر الخبر في الموضحة مكررا ليثبت ما أثار حفيظته من غرور الشاعر واستعلائه ، الأمر الذي يقطع كل شك ، إن صحت رواية الأصفهاني والعميدي : وهو ما سبق ان قلناه من ان تركة الشاعر اشتملت على ديواني الشاعرين الكبيرين . ولم ينس الحاتمي أن يلمح الى هذا التناقض الذي صوره في مؤلفه فيعنف المتنبي قائلا : «من أوضح البرهان انك تصفحت شعر أبي تمام ، وتأدبت بمعانيه ، وقفوت مذهبه ، واقتريت طرقك فيه تتبعك هذه المواضع عليه وتعيينك عليها واشارتك اليها ومدحك فيها»[٢٦].

ولم يفت أبو القاسم الأصفهاني والصاحب بن عباد الاشارة الى ماشاع حول صلة المتنبي بالشاعرين . أما ابن وكيع فيحلل الأمر بصورة أخرى حيث يعزو ماورد على لسان المتنبي من انكار اطلاعه على شعر أبي تمام الى تلاعب لفظي تعمده المتنبي ، فهو اما انه قال الشعر في مطلع شبابه دون أن يطلع على شعر أبي تمام – وهذا معقول في نظر ابن وكيع – أو أنه لم ير شعره قط ولم يسمع به ، ويتنافى هذا التصور الأخير مع شهرة أبي تمام وشيوع ذكره في المجالس ودكاكين الوراقين التي كان المتنبي أحد روادها ، إلى جانب

(٢٦) الرسالة الموضحة . الحاتمي ١٧٧

تأثر المتنبي الواضح بشعر أبي تمـــام[٢٧] .

ويجعـل العميدي من هذه الرواية سـببا قويا يحفــزه على البحث في سرقات المتنبي ، فقد أثار حفيظته ادعاء المتنبي الجهل بالفضلاء الذين لا يشك أحد في اطلاعه على دواوينهم واستنارته بهديهم[٢٨] .

إن فهم المتنبي لأثر الموروث الشعري في عملية النظم ، إلى جانب ما أثر عنه من أخبار محـاولاته لتكوين هذا الموروث ، وماحفلت به المصـادر من مناقشاته لشعر غيره تقدم للباحث تصورا لمكونات هذا الموروث لديه .

ويدعم هذا التصـور ما حفلت به المصـادر التي تتبعـت ما أدعى المؤلفون انه قد سرقه من حديث عن الشعراء الذين تأثر الشاعر بأشعارهم أو أستوحاها فيما نظم ، ولعل من مزايا شاعرنا انه ظفر بقدر كبير من الدراسـات حول سرقاته لم يظفر به شاعر آخـر ، مما هدانا الى تصـور جـوانب ثقـافته الشعرية إلى حد كبير . ومن هذه المؤلفات : الواضح في مشكلات شـعر المتنبي لأبي القاسم الأصفهاني ، والرسـالة الموضـحة لأبي علي الحـاتمي ، والمنصــف لابن وكيع التنيسي ، والوساطة للجـرجاني ، والابانة للعميدي ، والاسـتدراك لابن الأثير ، وسرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسام .

وقد قدمت هذه المؤلفات صورة واضحة عن الشعراء الذين تأثر بهـم الشاعر أو استوحى معـانيهم فيما نظم ، إذ بذل مؤلفـوها جهـدا في تتبع معـانيه وصـوره وعقـد الصـلة بينه وبين من سـبقه ، ولكن الدوافع التي كانت وراء تأليف معظم هذه الدراسـات تجعـل من الضروري تلمس الحقيقـة من خـلالها بقدر كبير من البحث والنظر ؛ إذ أن اكبار هؤلاء الباحثين للتراث ، وتعليقهـم بظاهرة الاسناد التي تنشـأ عن «الاعتقـاد بأن معـنى الكلام أو قيمته ليسـت في ذاته وحدها بل هناك قيمة أخرى تنشأ عن الارتباط بشـخص معـين تقـدم أو

(٢٧) انظر المصنف . ابن وكيع التنيسي (خ - ٢٥ ا)

(٢٨) الابانة . العميدي ٢٤

تأخر»[٢٩] شأنهم في ذلك شأن المحدثين واللغويين ، الى جانب ما اشتهر عن المتنبي من تعاظم وانكار لكثير من المواهب ، كل ذلك يجعل هذه المؤلفات حافلة بكثير من المبالغات المتعسفة .

نلمح في كتاب الابانة وحده أشعار مائة وخمسين شاعرا معظمهم من المغمورين الذين لا نرى لهم أثرا كبيرا فيما وصلنا من تاريخ أدبنا العربي ، على الرغم مما ذكره العميدي نفسه في مؤلفه حين ذهب إلى أن المتنبي «طلب الدواوين التي للمكثرين لئلا تبين سرقته إذا أخذ منها شيئا : فان المقلين أشعارهم معروفة مشهورة والمكثرين لا يكاد يستوعبها ويأتي على حفظ قصائدها الا الشواذ من الأدباء والنوادر من الحفظة»[٣٠]، وحديث العميدي ينطوي على شيء من المغالطة ؛ فالمكثرون أشهر من غيرهم ومن ثم تتداول أشعارهم وتشتهر في أوساط المتأدبين اكثر من المقلين ، ومتى نال الشاعر شهرة وانتشارا صعب على غيره استيحاء معانيه والتأثر به دون أن يتهمه النقاد بالسرقة منه .

لقد تحدث العميدي عن تأثر المتنبي بطائفة من شعراء الجاهلية : كامرىء القيس ، والنابغة الذبياني ، وزهير بن ابي سلمى ، وعنترة بن شداد ، ومن الأمويين : عمر بن أبي ربيعة ، وكثير عزة ، وقيس بن ذريح ، والكميت ، وجرير ، وقطري بن الفجاءة ، وعمران بن حطان ، وعبدالله بن الزبير الأسدي ، وعبد الرحمن بن دارة ، وثابت قطنة ، ومن مخضرمي الدولتين : بشار بن برد ، ومطيع بن إياس ، ومن العباسيين : أبو العتاهية ، وعلي بن الجهم ، وابن المعتز ، وابن الرومي ، ودعبل الخزاعي أبي الشيص ، ومنصور النمري ، وربيعة بن ثابت ، والسيد الحميري ، وأشجع السلمي ، والعبرتائي ، ومثقال الواسطي وغيرهم .

ومن هؤلاء الشعراء من عاصر المتنبي كالخبز أرزي ، والناشيء

---

(٢٩) نظرية المعنى في النقد العربي . مصطفى ناصف ٩٩

(٣٠) الابانة . العميدي ١٤١

الاكبر ، والصنوبري ، وأبي فراس .

إن هذه الأسماء التي وردت في كتاب الابانة وغيره من كتب السرقات تنفي الادعاء القائل بأن المتنبي كان قليل النظر في شعر المحدثين[٣١]، وقد نسب الثعالبي هذا الادعاء إلى المتنبي ، ولعله استند في مقالته هذه على ماورد على لسان المتنبي حين سئل عن قوله :

اذ اعوجَّ القنا في حامليه | وجاز الى ضلوعهم الضلوعا[٣٢]

قال المتنبي : قلت وأشبه في ضلوعهم الضلوعا ثم رأيت بيتا لأحد المولدين فرغبت عنه ، وقد عنى المتنبي بذلك قول البحتري :

في معرك ضَنْكٍ تخال به القنا | بين الضلوع إذاانحنين ضلوعا[٣٣]

أو انه يشير إلى ماراج في الأوساط الأدبية من إنكار المتنبي للشاعرين الكبيرين أبي تمام والبحتري كما سبق أن ذكرنا .

ويمكن القول إن حديث المتنبي عن المولدين في هذا الموقف أو غيره ليس من باب التعريض بهم وإنكار دورهم في تاريخ الأدب ، وإنما أراد أن يدفع عن نفسه تهمة الأخذ والسرقِ التي ما فتىء النقاد يشهرونها في وجهه وأن يبعد نفسه عن دائرة الاتهام التي نصبها العلماء حولِ المعاني : لبحث مصادرها وردها الى دواوين الفحول من شعراء الجاهلية والاسلام .

لقد كان المتنبي ينظر بعين الاكبار إلى كثير من الشعراء الذين سلكهم النقاد في خيط المولدين كأبي تمام الذي كان يعده أستاذ كل من قال الشعر بعده ، وبدا اعجابه به واضحا من روايته لجميع شعره وأنشاده لبدائعه[٣٤]، وعده مثلا اعلى يُحتذى ، أما أبو نواس فامام المحدثين[٣٥] وهو لا ينكر انه استمد

(٣١) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ١١٤
(٣٢) التبيان . العكبري ٢ : ٢٥٥
(٣٣) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي للصاحب بن عباد ١١ ، ديوان البحتري ٢ : ١٢٥٦
(٣٤) الصبح المنبي . البديعي ١٤٣
(٣٥) الرسالة الموضحة . الحاتمي ١١٠

بعض معانيه فيما أنشد ، ولا يعد من العيوب أن يوسم بالسرق منه"[٣٦].

أثر التراث في شعر المتنبي :

إن الحديث عن أثر الموروث الشعري في شعر الشاعر يحمل الباحث على تتبع المصادر التي استق منها الشاعر مادته ، مما نجده في التراث الشعري الذي عكف عليه المتنبي : ادراكا منه لأهمية هذا الموروث في شعره ، والكشف عن الكيفية التي عامل بها شاعرنا هذا الموروث ، وإلى أي حد تأثر به واستمد منه .

وما أشبه هذا العمل الذي يهتم بالبحث عن المصادر التي أتى منها الشعراء بمعانيهم بعملية التحليل الكيميائي - كما وصفها عبدالعزيز الأهواني - حين يوجه الباحث اهتماما واسعا للكشف عن العناصر المعدنية التي تألفت منها السبيكة أو الأعشاب والمواد التي ألفت منها عجينة ذلك الطيب"[٣٧].

وقد أعاننا على دراسة هذا الجانب ان المتنبي ظفر بما لم يظفر به شاعر غيره من دراسة لسرقاته وتتبع لمعانيه ، نتبين ذلك من الرصيد الكبير الذي وصلنا من مؤلفات تبحث عما أخذ الشاعر من غيره من الشعراء في مختلف العصور .

كما أسهمت أخبار الشاعر في هدايتنا الى كثير من مصادر شعره ، حين ذكرت عدداً من الشعراء الذين ثبت اطلاع المتنبي على دواوينهم ، وفي مقدمتهم الشاعران الكبيران ابو تمام والبحتري .

وسنعرض فيما يلي لنماذج من شعر المتنبي نتبين فيها الوسائل التي سلكها الشاعر للاستعانة أو لاستيحاء موروثه الشعري ، سواء أكان ذلك مقتصرا على إطار البيت المفرد ، أو الصورة الواحدة ، أو شاملا لنطاق القصيدة كلها ، حين نرى من الشاعر معارضة لقصائد أخرى .

ولعل أبرز أثر للموروث الشعري لدى المتنبي هو تلك المعاني والصور

---

(٣٦) المصدر نفسه ١١٢

(٣٧) ابن سناء الملك . عبد العزيز الأهواني ١١٦

التي يبدو فيها احتذاء المتنبي الواضح لمن سبقه من الشعراء في الفكر والتصوير والتعبير .

وقد عددت المصادر التي استمد منها المتنبي هذه الأبيات ؛ إذ نسبت لشعراء مختلفين ، كما اختلف تاريخ نظمها من أوائل حياته حتى أواخرها ، ومن هذه الأبيات :

المتنبي :

قدذُقْتُ شدةَ أيأمِي ولذتها ... فماحصلت على صابٍ ولاعَسلِ[٣٨]

مروان بن أبي حفصة :

قاسيتُ شدةَ أيامي فاظفرت ... يدايَ منها بصابٍ لا ولا عسل[٣٩]

المتنبي :

غُصنٌ على نَقْوَي فلاة نابتٌ ... شمْس النهارِتُقِلُّ ليلاً مُظْلِما[٤٠]

ديك الجن :

دعُص يُقِلُّ قضيبَ بانٍ فوقهُ ... شمُس النهارِ تُقلُ مُظْلما[٤١]

المتنبي :

كأن بناتِ نعشٍ في دجاها ... خرائدُ سافراتٌ في حِدَادِ[٤٢]

ابن المعتز :

وأرى الثريا في السماء كأنها ... خَوْدٌ تبدَّت في ثيابِ حداد[٤٣]

المتنبي :

شرفٌ ينطحُ النجومَ برَوْقيـ ... ـه وعِزٌ يُقَلْقِلُ الأجْبَالا[٤٤]

السيد الحميري :

(٣٨) التبيان . العكبري ٣ : ٧٧
(٣٩) الابانة . العميدي ١٧٠
(٤٠) التبيان ٤ : ٢٩
(٤١) الابانة . العميدي ٢٥
(٤٢) التبيان ١ : ٣٥٤
(٤٣) الابانة ١ : ٧٧ ، ديوان ابن المعتز ٢١٨
(٤٤) التبيان ٣ : ١٣٤

همّةٌ تنطحُ الثُّريا وعزٌ نبويّ يزعزعُ الأجْبالا[٤٥]

المتنـــبي :

وما عِشتُ من بَعْدِ الأحِبةِ سلوة ولكنّني للنائباتِ حَمُوْلُ[٤٦]

بشـــار :

ولم أعِش سلوةً من بعد بُعْدِهم لكنني لِصُرُوفِ الدَّهرْ حَمّالُ[٤٧]

المتنـــبي :

تَرَكْتَني اليَوْمَ في خَجْلَةٍ أمُوْتُ مِرَاراً، وأحْيا مِرَارا[٤٨]

العباس بن الأحنف :

لعمري لقد جعل القادحون بيني وبينك يورون نـــارا
ونفسي مُعَلقةٌ بالرجـــاءِ تموتُ مرارا وتحيا مـــرارا[٤٩]

وقد تعاقب النقـاد على هذه الأبيات في شـعر المتنبي بالنقـد اللاذع ، وعدها كثير منهـم من قبيل السرقة الفـاضحة التي لا تتطلب من الباحث أقل قدر من الجهد لوضوحها ، بينما ذهب فريق آخر الى محاولة تفسير هذا التشـابه بأنه من قبيل توارد الخواطر ؛ إذ وقع للشاعر معنى سبقه اليه غيره من غير أن يلم به ، كالآمدي ، وابن رشيق ، وابن الأثير . وقد أوضح ابن رشيق وجهة نظره قائلا : «انه لم يخف على حاذق بالصـنعة أن الصـانع إذا صـنع شـعرا في وزن ما وقافية ما وكان لمن قبله من الشعراء شـعر في ذلك الوزن وذلك الروي وأراد المتأخر معـنى بعينه فأخـذ في نظمه أن الوزن يحضره والقـافية تضـطره وسياق الألفاظ يحـدوه ، حـتى يورده نفس كلام الأول ومعناه حـتى كأنه سمعـه

---

(٤٥) التبيان ٣ : ١٧٦
(٤٦) التبيان ٣ : ٩٥
(٤٧) التبيان ٣ : ١٧٢ ، الابانة ١٥٦
(٤٨) التبيان . ٢ : ٩٤
(٤٩) الرسالة الموضحة . الحاتمي ١٣١ ، ديوان العباس بن الأحنف ١٢٩ جاء فيه :

ونفسي مضمنة من هو ك مالا أطيق عليه اصطبارا
معلقة ببقايا الرجاء ترى الموت في كل يوم مرارا

وقصد سرقته وان لم يكن سرقه قط»[٥٠].

ونقف هنا وقفة قصيرة لنتسائل .. هل كان هذا الاستمداد أو التأثر الواضح بشعر الآخرين من قبيل اجتلاب الشاعر لمعاني غيره بطريقة واعية متعمدة ، أم ان هذا التأثر قد تم دون وعي منه لكثرة محفوظه من شعر غيره ؟ يغلب على الظن ان الاجابة على هذا التساؤل ستكون بالنفي لشطره الأول ، وخاصة الشعر الذي نظمه في أواخر حياته ، وقد صار شاعرا مشهورا له حساد يبحثون عن سقطاته ؛ إذ نستبعد من شاعر كالمتنبي أن يسلك هذا المسلك الذي هاجمه النقاد وتعقبوا الشعراء المتبعين له ، ويتفق شطره الثاني مع ما نعرفه من قوة ذاكرة الشاعر وكثرة محفوظه ، لا سيما وان هذا الشعر قد أنشد في مراحل مختلفة من حياته زاد فيها اطلاعه على شعر غيره في كل مرحلة عن سابقتها .

وقد يستمد صورا ومعاني من شعراء آخرين ، فيوردها بلفظ قريب من الأصل الذي استمدت منه ، فاذا قال أبو تمام :

في ثُبَةٍ إنْ سَرَوْا فَجِنٌّ   أو يَمَّموا شُقَّةً فَطَيْرُ[٥١]

استوحى المتنبي هذا البيت فقال :

نحن رَكْبٌ ملجن في زي ناسٍ   فوق طيرٍ لها شُخُوصُ الجمالِ[٥٢]

وقد نظم المتنبي هذا البيت في بداية حياته ، وترسمه لأبي تمام فيه مما لا يخفى على المتأمل للوهلة الأولى وإن كان أسلوب التعبير قد أختلف قليلا لدى المتنبي عنه لدى أبي تمام ؛ إذ عقد الشاعر التشبيه لمشبهين بدلا من مشبه واحد وقلب التشبيه . على ان الاضافة التي نراها في البيت انما توحي بأن الشاعر تعمد استيحاء بيت أبي تمام ، وان حاول اخفاء تأثره به بما أحدثه في البيت من تغيير .

---

(٥٠) قراضة الذهب . ابن رشيق ٨٦

(٥١) التبيان . العكبري ٣ : ١٩٤ ، غير موجود بديوان أبي تمام .

(٥٢) التبيان . العكبري ٣ : ١٩٤

وقد يهديه المعنى الذي يريد أن يعبر عنه الى صورة لشاعر قديم فاذا ما أمعن الفكر فيها خرج الى صورة جديدة تختلف عن الصورة التي تأثر بها واستوحاها بعض الاختلاف ، وان اتفقت معها في الأصل الذي استمدت منه .

قال أبو تمام :

بمجامع الثُّغْرين ماينْفَكُّ من   جَيْش أزبَّ وغَارةٍ شَعْواء[٥٣]

وقال المتنبي :

صدمتَهم بِخَمِيس أَنْتَ غُرَّتُهُ   وسمهريته في وَجْهِهِ غمم[٥٤]

فقد شبه أبو تمام الجيش بالرجل الأزب ، وهو الكثير الشعر ؛ ليشير بذلك إلى كثرة الرماح التي دجج بها الجيش ، وقد لاقت هذه الاستعارة قبولا لدى المتنبي فجعل تكاثف الرماح في الجيش كالغمم ، وهو كثرة الشعر واسباله على الوجه .

فالفكرة التي أدار الشاعران الصورة حولها واحدة ، وقد استمد المتنبي استعارة أبي تمام وخلق منها صورة اكثر وضوحا من الأصل الذي تأثر به .

وحين تطرق المتنبي الى وصف عذوبة حديث محبوبته كان متأثرا فيما أورده ببيت كثير عزة وأضرابه ممن سلكوا هذه السبيل ؛ فقد جعل كثير عذوبة حديث الحبيبة سببا ينزل العصم من مكانها في الجبال ، حيث قال :

وأدنيتني حتى إذا مـــا سَبَيْتِني   بقولٍ يُحِلُّ العصمَ سهلَ الأبَاطِحِ[٥٥]

أما لدى المتنبي ، فإن حديثها العذب يكلف الطيور في الأعالي الوقوع اليها من شدة أسره قال :

مُنَعَّمَـةٌ ، مُمنعـةٌ ، رَدَاحُ   يُكَلِّفُ لَفظُها الطَّيرَ الوُقُوعا[٥٦]

(٥٣) ديوان أبي تمام ١ : ١٥
(٥٤) التبيان . العكبري ٤ : ٢٣
(٥٥) ديوان كثير ٥٢٦
(٥٦) التبيان . العكبري ٢ : ٢٥٠

وقال مستوحيا دعبلا الخزاعي :

بلادٌ اذا زارَ الحسان بغيرهـا حصى تُرْبِها ثَقَبْنَهُ للمَخَانِقِ[٥٧]

قال دعبل :

فكأنَّما حصباؤُها في أَرْضِها خرزُ العقيقِ نُظِمْن في سلكِ[٥٨]

فاستمد من التشبيه الذي قدم دعبل المعنى بين يديه صورة أوردها في إطار صورة استدعت شيئا من إعمال الذهن لتصورها ، وقد أحدث بذلك تغييرا في أسلوب التعبير عن الصورة التي استقاها من محفوظه .

وقد تكون الصورة الواحدة مصدرا لصور أخرى على نمطها ، يستمدها الشاعر منها ويضيفها اليها ، كما نرى في استيحاء المتنبي لتلك الاستعارة التي ساقها الشاعر الجاهلي امرؤ القيس في وصفه لسرعة فرسه ، حيث قال :

وقد أغتدى والطَّيْرُ في وكُنَاتها بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ[٥٩]

فقال المتنبي :

يَتَقَيَّلُون ظِلاَلَ كُلُّ مُطَهَّمٍ أجلِ الظليمِ وربْقَةِ السرْحَانِ[٦٠]

فقد أضاف (أجل الظليم) إلى ما استمده من امرىء القيس ، كما كرر هذه الاستعارة مرة أخرى مضيفا اليها إمعانا في التمثل لهذا النموذج الذي لفت نظره وحاز اعجابه ، وأظهارا للقدرة على الاتيان بمثله ، فقال في وصف كلب :

نَيْلُ المُنى ، وحكمُ نفسِ المُرْسلِ وعُقْلَةُ الظَّبي ، وحَتْفُ التَتْفُلِ[٦١]

ومن شواهد اضافته الى ما يستوحيه قوله :

هوادٍ لأملاكِ الجُيوش كأنَّها تَخَيَّرُ أَرواحَ الكُمَاةِ وتنتقي[٦٢]

---

(٥٧) المصدر نفسه ٢ : ٣١٨

(٥٨) ديوان دعبل ١٢٠

(٥٩) ديوان امرىء القيس ١٩

(٦٠) التبيان . العكبري ٤ : ١٧٩

(٦١) التبيان . العكبري ٣ : ٢٠٦

(٦٢) المصدر نفسه ٢ : ٣٠٩

وقول أبي تمام :

فإذا ضلّت السيوفُ غداةَ الرَّوْعِ ... كــانَتْ هواديـــاً للهَوَادي[٦٣]

فالأبطال حين يشتد القتال قد تتنابهم حيرة في اختيار مواضع الطعنات القاضية التي يوجهونها لأعدائهم ، غير أن سيوفهم تهتدي للأعناق فتضربها ، وقد استوحى المتنبي هذه الصورة مضيفا اليها اهتداء السيوف الى أرواح الملوك ، وانتقائها من جموع الأبطال .

وقد يستعير صورة وينقلها إلى مجال مختلف ، نحو قوله :

يَتَعثَّرْنَ بالرؤوس كما مَرَّ ... بتــاءاتِ نطْقِهِ التَّمْتـــامُ[٦٤]

وصف المتنبي حركة الخيل في أرض المعركة وقد تناثرت فيها جماجم القتلى ، مما عاق حركة الخيول بينها وحال دون سرعة عدوها وصارت تتعثر بين الرؤوس ، وقد فكر الشاعر في صورة توفر له عنصر الحركة المترددة فقفزت إلى ذاكرته الصورة التي رسمها أبو نواس لرجل قد لعبت الخمر بحواسه وأثقلت لسانه فصار يتلعثم في حديثه كالفأفاء ؛ فجعل تردد الخيل في سيرها كتردد التمتام في حروف التاء إذا حاول النطق بها .

قال أبو نواس :

فأجابني والسكر يفسد نطقه ... بتلجلج كتلجلج ألفأفـاء[٦٥]

وقد كرر المتنبي هذا النمط من التشبيه بصورة مختلفة حين صور اختفاء القبائل امام الجموع التي واجهها بها سيف الدولة بخفاء الراءين في لفظ الألثغ إذا كررها قال :

قشير و بلعجلان فيها خفية ... كراءين في ألفاظ ألثغ ناطق[٦٦]

---

(٦٣) ديوان أبي تمام ١ : ٣٦٨

(٦٤) التبيان . العكبري ٤ : ٨٩

(٦٥) الابانة ٩٧ ، ديوان أبي نواس ٢٢٣ ، هو في الديوان :

فأجابني والسُكْرُ يخفضُ صَوْتَهُ ... والصبحُ يدفع في قفا الظلماء

وفي ٧٠٢ ،

وشكا إليَّ لسانه من سكرِه ... بتلجلجٍ كتلجلج الفأفاءِ

(٦٦) التبيان . العكبري ٢ : ٣٢٤

ويمكن أن نرجع عددا من صوره الى عنصرين مختلفين ، ينتمي كل منهما الى شاعر مختلف ، نحو قوله يصف الشيب :

ضَيفٌ ألَمَّ برأسي غَيْرَ مُحْتَشِمٍ والسيفُ أحسنُ فِعْلاًمِنْهُ بِاللمم[٦٧]

لقد أراد الشاعر أن يعبر عن تسلل الشيب الى رأسه ، وما يثيره ذلك في النفس من شجن يذكر بالشباب المولي والشيخوخة الكئيبة ، وعندما فكر في التعبير عن هذه الفكرة بصورة مناسبة تواردت على ذاكرته صور الشيب في شعر السابقين ، فوجد في شعر أحدهم وصفا للشيب بأنه ضيف في قوله :

ألقىٰ عصاه وأرخىٰ من عمامته
وقال : ضيف فقلت : الشيب ؟ قال أجل[٦٨]

ولكن هذا الوصف بدا ناقصا في نظره ؛ إذ أن رحيل الضيف - وإن طال به المقام - أمر متوقع ، أما الشيب فمتى حط رحاله يأبى الرحيل فأضاف اليها «غير محتشم» أي غير منقبض ؛ لثقل ظل الشيب على من يحل به .

والحديث عن الشيب مرتبط بأثره في نفوس الحسان ؛ إذ أنهن ينفرن عنه ، ويؤثرن عليه شابا يافعا أسود المفرق ؛ فيؤثر الموت على ذلك ، ويذكرنا ذلك بقول البحتري :

قال المتنبي :

مبيتي من دمشق على فراش حشاه لي بحر حشاي حاش
لقَى ليلٍ كعين الظبي لونا وهم كالحُميا في المُشاش[٧٠]

(٦٧) التبيان . ٤ : ٣٤
(٦٨) الوساطة . الجرجاني ٢٦٥
(٦٩) ديوان البحتري ٣ : ١٥٠٩
(٧٠) التبيان . العكبري ٢ : ٢٠٧

ألف المتنبي البيت الثاني من صورتين مختلفتين ، صور في المصراع الأول شدة سواد الليل فشبهه بعين الظبي التي يضرب بها المثل في السواد ، وأما الهموم التي استبدت بفؤاده وسرت في جسده فما أشبهها بالخمر حين تسري في المفاصل ، ونستطيع أن نلمح الأصول القديمة لكل مصراع من هذا البيت ، فالاول منه استمد الصورة الشائعة في التراث الأدبي ، والتي يمكن أن نجد مثالا لها في قول التنوخي :

والليل كالثاكل في احدادها   ومقلة الظبي إذا الظبي رنا[٧١]

أما المصراع الثاني فقد استعرض فيه المتنبي وصف الشعراء للأثر الذي تحدثه الخمر في المفاصل ؛ اذا وجد للهم شبها بها حين يسكن القلب ويشيع الوهن في الجوارح ، فكأن كل خلية في جسم المرء تحمل هذا الهم وتنوء به . ونذكر هنا شاعر الخمر أبا نواس وقوله :

فتمشت في مفاصلهم   كتمشي البرء في السقم[٧٢]

ويمكن القول ان ارتباط احساس النفس بطول الليل بما يعتريها من هموم تمنع عنها الكرى هو الذي قاد المتنبي الى الجمع بين هاتين الصورتين .

قال المتنبي :

وذي لجب لاذو الجناح أمامه   بناج ، ولا الوحش المثار بسالم

تمر عليه الشمس وهي ضعيفة   تطالعه من بين ريش القشاعم

اذاضوؤها لاقى من الطير فرجة   تدوّرفوق البيض مثل الدراهم[٧٣]

قدم المتنبي في هذه الأبيات وصفا لجيش ضخم كثيف اكتسح ما اعترضه من انسان وحيوان وقد ملأ الفضاء بما أثارته خيله من غبار ، وما ازدحم في سمائه من طير صحبته ثقة بالشبع مما سيخلفه وراءه من جثث القتلى ، وقد بدت الشمس في الأفق شاحبة تلتمس خلال ريش النسور التي

(٧١) التبيان . العكبري ٢ : ٢٠٧

(٧٢) ديوان أبي نواس ٤١

(٧٣) التبيان . العكبري ٤ : ١١٣

اظلت الجيش فرجة تلق منها أشعة واهنة تراءت على مغافر الجند في استدارات ، وجد لها الشاعر شبها بالدراهم .

وقد وجد المتنبي في شعر الطرماح وصفا للشمس وقد حال الغبار دون نفاذ أشعتها الساطعة قال فيه :

تجنبه الكماة بكل يوم مريض الشمس محمر الحوامي[٧٤]

فاستوحى من البيت فكرة الضعف للشمس ؛ ليدل بها على الفكرة التي أرادها . أما الصورة التي قدمها المتنبي في البيت الثالث لوصف تخلل الشمس للفرج فأغلب الظن ان الشاعر استمده من قول المعوج الرقي :

والشمس من فرج الأشجار ناثرة على المجالس أشباه الدنانير[٧٥]

فقد رأى في صورة المعوج الرقي صدى لما انعكس على خياله من مشاهداته ، فاستمدها واستعار منه بعض الألفاظ نحو «فرج» .

وقد أعاد المتنبي هذه الصورة مرة أخرى في وصفه لشعب بوان فقال :

فسِرتُ وقد حجبن الشمس عني وجئن من الضِياء بما كفاني
وألق الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنان[٧٦]

فاقتربت الصورة من الأصل الذي نظن انها استمدت منه ، وإن كان الشاعر قد أشاع فيها الحياة حين اضاف اليها عنصر الحركة ، فاستعار الفرار لأ هتزاز الأشعة بتحرك الظلال .

على ان هذه الاضافة - كما يرى ابن رشيق - إنما استمدها المتنبي من قول دليل أهل المهلب ، حين وصف فرارهم من سجن الحجاج فقال :

وقوم هم كانواالملوك هديتُهُم بظلماءَ لايبدو بها ضوءُ كوكب
نفر فرار الشمس مما وراءنا وندلج في داج من الليل غيهب[٧٧]

(٧٤) التبيان . العكبري ٤ : ١١٤
(٧٥) الابانة . العميدي ١٣٧
(٧٦) التبيان . العكبري ٤ : ٢٥٣
(٧٧) قراضة الذهب . ابن رشيق ٤٤ ، يرجح المحقق انه لهردان العليمي .

وقد يكون الجمع بين صورتين لاداء المعنى الذي قصده الشاعر مفتاحا يقود الباحث إلى معرفة الأصل الذي استوحاه المتنبي ، واستمد منه هذا البيت أو تلك الصورة .

قال :

كأن الهام في الهيجا عيونٌ وقدطُبِعَتْ سيوفُك من رقاد
وقد صغت الأسنةَ من هموم فما يَخطرن الا في فؤاد[٧٨]

فالحديث عن سداد الطعنة وإصابتها مقتلا من العدو حين تصيب القلوب أو تطيح بالرؤوس حفل به الشعر العربي الذي وصف المعارك على مر العصور ، والشواهد في هذا الباب متعددة نحو قول منصور النمري :

وكأن موقعه بجمجمة الفتى سكرالمدامة أونعاس الهاجع[٧٩]

وقول مهلهل :

الطاعن الطعنة النجلاء تحسبها نوما أناخ بجفن العين يغفيها
بلهدم من هموم النفس صنعته فليس ينفك يجري في مجاريها[٨٠]

وقول كعب بن معدان الأشعري :

كأن الرماح السمهريات بينهم هموم فمايطرقن غيرالحشاطرقا[٨١]

ويمكن أن نقول إن الصورة التي عرضها مهلهل قد تداعت الى خيال الشاعر حين نظم هذين البيتين ، ويتجلى تأثره بها في الجمع بين هاتين الصورتين وترتيب عناصرها ، كما يبدو في استيحاء المتنبي للغة البيتين اللذين يفترض انه ترسم سبيلهما في نظمه .

وقد يلجأ المتنبي في تكوين صوره إلى استمداد عناصر مختلفة من صور متنوعة المصادر ، ويؤلف بينها في إطار جديد يختلف عن الأصل الذي استمدت منه . قال :

---

(٧٨) التبيان . العكبري ٢ : ٣٦٠
(٧٩) المصدر نفسه ٢ : ٣٦٠
(٨٠) سرقات المتنبي ، ابن بسام ٤٠
(٨١) المصدر نفسه ٤١

وعجاجةً ترك الحديدُ سوادها زنجا تبسم أو قذالا شائبا
فكأنما كسى النهار بها دجى ليل وأطلعت الرماحُ كواكبا[٨٢]

حين شرع المتنبي في تصوير جو المعركة وتكاثف الغبار بفعل ماتحدثه سنابك الخيل وبريق السلاح خلال هذا الجو المعتم تداعت الى خياله الصور التي احتفل بها الشعراء في تصوير جو المعركة : حين يستحيل النهار المشرق إلى ظلمة تعم الفضاء إلا من بريق أسلحة يلوح خلالها ، نحو قول بشار :

خلقنا سماء فوقنا بنجومها سيوفاونقعا يقبض الطرف أقتما[٨٣]

وقوله أيضا :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافناليل تهاوى كواكبه[٨٤]

وقد قادته هذه الصور ومثيلاتها إلى صور غيرها في مجال آخر وردت إلى ذاكرته بواقع التشابه بين الصورتين ، وأعني بذلك تصوير تداخل النقيضين الليل والنهار ، وما قدمه الشعراء لهذه الظاهرة من صور متنوعة متعددة تبرز هذا التداخل ، وأغلب الظن ان الصور التي تعاقبت على ذاكرته من ملاحظة عناصر الصورة عنده هي :

أبو نواس :

فقلت والليل يجلوه الصباح كما جلاالتهسم عن غرالثنيات[٨٥]

ابن المعتز :

قد أغتدى والليل في مآبه كالحبشي فر من أصحابه
والصبح قد كشّف عن أنيابه كأنه يضحك من ذهابه[٨٦]

محمود الوراق :

---

(٨٢) التبيان . العكبري ١ : ١٢٧
(٨٣) ديوان بشار ٤ : ١٦٤
(٨٤) المصدر نفسه ١ : ٣١٨
(٨٥) ديوان أبي نواس ١٧٤
(٨٦) ديوان ابن المعتز ٢٨٩

حتى تبدى الصبح يتلو الدجى كالحبشي افتر للضحك[٨٧]

وحين نتتبع الحركة الذهنية التي قادت الشاعر إلى مثل هذا التصوير نلمح صورة الثنايا التي بدت في ابتسامة صورها أبو نواس وابن المعتز ، وحددها محمود الوراق ببسمة زنجي ؛ امعانا منه في ابراز التناقض بين السواد والبياض بصورة دقيقة .

وقد وجد المتنبي لأبي نواس صورة أعجبته في وصف طلوع الصباح :

لما تبدى الصبح من حجابه كطلعة الأشمط من جلبابه[٨٨]

إذ رأى فيها تصويرا للتناقض الذي أراده ، فنقلها الى شيب القذال حين تتسلل الشعيرات البيضاء ؛ لتغزو سواده وتحيله بياضا سرعان ما يصبح جليا لاقترانه بنقيضه .

وقد قدم المتنبي صورة لجو المعركة من مجموعة من الصور المتشابهة المتجاورة ساقه اليها خياله ، ولكننا لا نرى له مزجا حقيقيا بين عناصر هذه الصورة . ولعل مما زاد الصورة وضوحا ان المتنبي أردفها في البيت الثاني بصورة هدت الى مصادرها حين ذكر الليل والنهار والسلاح والكواكب .

ولست أزعم انني اهتديت في تحليلي لعناصر هذه الصورة وغيرها ومحاولة ردها الى أصولها التي نبعت منها إلى المصادر الفعلية التي استوحى منها المتنبي صوره ؛ إذ قد تكون للصور مصادر أخرى غير ماأذكر ، ولكنني حاولت التوصل إليها بتأمل العناصر التي دخلت في تكوينها ، وصلة هذه العناصر ببعضها البعض .

قال المتنبي :

سارٍ ولا قفرَ في مواكبه كأنما كل سبسب جبل
يمنعها أن يصيبها مطرٌ شدةُ ماقد تضايق الأسل[٨٩]

(٨٧) التبيان . العكبري ١ : ١٢٨

(٨٨) ديوان أبي نواس ٦٣١

(٨٩) التبيان . العكبري ٣ : ٢١٥

وصف المتنبي في هذين البيتين جيشا ضخما كثيفا أغرق السباسب والقفار فاستحالت جبالا لكثرة ما أزدحم بها من الرجال والسلاح ، حتى لو سقط عليها مطر لحالت الرماح دون نيله من الخيل والرجال لتضايقها وتكاثفها

فالفكرة التي أراد الشاعر التعبير عنها هي شدة التلاصق والكثافة التي تمنع نفاذ أي شيء خلالها مهما ضؤل ، وقد وجد الشاعر في محفوظه بيتين لقيس بن الخطيم وابن الرومي في وصف كثافة الجيش ، استقى منهما الفكرة الأساسية التي أدار حولها البيت .

قال قيس بن الخطم :

لو انك تلقى حنظلا فوق رأسنا   تدحرج عن ذي سامة المتقارب[٩٠]

ولابن الرومي :

فلو حصبتهم بالفضاء سحابة   لظلّ عليهم حصبُهايتدحرج[٩١]

وأغلب الظن ان لفظ سحابة - الذي ورد ببيت ابن الرومي - قد استدعى ذهنيا فكرة المطر ؛ لعلاقة السببية القائمة بينهما ، وقد قاده تأمله لهذا اللفظ وتلك الفكرة التي تبدد من بيتي الشاعرين الى صورتين أخريين لبشار بن برد وعلي بن الجهم ، عبرا بهما عن هذه الفكرة بصوّرة أعجبته .

قال بشار :

فبتنا معا لايخلص الماء بيننا   الى الصبح دوني حاجب وستور[٩٢]

علي بن الجهم :

فبتنا جميعا لوتراق زجاجة   من الراح فيما بيننالم تسرب[٩٣]

وقد وجد المتنبي في هذين البيتين في وصف المتعانقين صورة عبرت عن

(٩٠) ديوان قيس بن الخطيم ٣٣
(٩١) ديوان ابن الرومي ٢٢٨
(٩٢) المختار من شعر بشار ٢٤١
(٩٣) ديوان علي بن الجهم ٩٥

شدة التقارب الذي يحول دون تسرب الماء ، فنقلها الى وصف كثافة الجيش .

تركت جماجمهم في النقا وما يتخلصن للناخل[٩٤]

قدم المتنبي في هذا البيت صورة لجماجم القتلى التي تركها الممدوح في أرض المعركة ، وقد اختلطت أجزاؤها بالرمال لوقع حوافر خيله القوية عليها ، حتى لو ان ناخلا أراد فصلها لم يستطع لشدة اختلاطها بتراب الأرض . وإذا تتبعنا كيفية انبثاق هذه الصورة في خيال المتنبي ، فإننا نلمح لها جذورا في شعره ، وفي صور التراث التي نظن انها تواردت على ذاكرته ووجهته لتكوين هذه الصورة .

لقد وصف المتنبي كثرة القتلى واختلاط أجسادهم بأحجارها في قصيدة أخرى قال فيها :

أحجارُناس فوق أرض من دم ونجوم بيض في سماءقَتَام[٩٥]

وأغلب الظن ان الشاعر قد استمد هذا التشبيه الذي أورده في المصراع الأول من قول البحتري :

نثرت على الخليج الهام حتى كأن حصاالخليج طلى وهام[٩٦]

كذلك وصف قوة حوافر خيله في قصيدة أخرى فقال :

إذا وطِئَت بأيديها صخورا يفين لِوَطء أرجلهارِمَالا[٩٧]

وفي هذه الصورة نلمح أثر التشبيه الذي أورده ابن المعتز حين وصف ناقته قائلا :

فكنت كنصل السيف تتلولواقحا كأن حصاالصمان من وقعهارمل[٩٨]

ونلمح للبحتري بيتا قرن فيه بين قوة الخيل وشدتها على العدو في المعارك حين تحيله الى غبار قال :

(٩٤) التبيان . العكبري ٣ : ٣١
(٩٥) المصدر نفسه ٤ : ١٣
(٩٦) محاضرات الأدباء ٢ : ٩٢ ، لا يوجد بالديوان
(٩٧) التبيان . العكبري ٣ : ٢٢٩
(٩٨) الابانة ١٤٢ ، لم أعثر على البيت بالديوان

من هذه العناصر المختلفة التي قادتها الذاكرة استطاع المتنبي أن يقدم لنا صورة جديدة استوحاها من موروثه الشعري ، وقد مهد لنا في أبيات أخرى من قصائد مختلفة السبيل لتبين أصول هذه الصورة وتتبع الخطوات التي أجراها الخيال على هذا المحفوظ حتى أبرزه في هذا الاطار .

وقد واكب المتنبي الشعراء في تناول كثير من الصور والمعاني التي دارت على نطاق واسع في الشعر العربي حتى صارت تراثا مشتركا أو شبه مشترك ، ولم يكن أمامه مفر من التأثر بها واستمدادها فيما ينظم ؛ لأنه عرض لنفس الموضوعات التي نظم فيها من سبقوه ، فكانت معانيهم وصورهم تقحم نفسها فيما ينظم عن وعي منه أو لا وعي .

نذكر على سبيل المثال وصفه لبريق الرماح في المعركة الذي شبهه بالفتائل وبالشعل والشمع وغير ذلك من التشبيهات التي نراها في نحو قوله :

جوائلَ بالقُنِيِّ مثقفاتٍ كأن على عوامِلِها الذبّالا[100]

وردت بلادك غيرَ مغمدة وكأنها بين القنا شعل[101]

تهدي نواظرَّها والحرب مظلمة من الأسنة نارٌوالقنا شَمَعُ[102]

وغير ذلك مما نرى له نظيرا لدى كثير من الشعراء نحو امرىء القيس ، في قوله :

دفعتَ رُدَّينيا كأن سنانَهُ سنا لهبٍ لم يستعر بدخان[103]

وقول البحتري : تحكى أسنته النجوم أو الذبالا[104]

(٩٩) ديوان البحتري ١ : ١٨٢
(١٠٠) التبيان . العكبري ٣ : ٢٢٩
(١٠١) المصدر نفسه ٣ : ٣٠٧
(١٠٢) المصدر نفسه ٢ : ٢٢٧
(١٠٣) ديوان امرىء القيس ٤٧٧
(١٠٤) محاضرات الادباء ٢ : ٩٠

وابن المعتز :

وعم السماءَ النَّقْعُ حتى كأنه دخان وأطرافُ الرَماح شرار(١٠٥)

وللبحتري : مد ليلا من العجاج فما يمشون فيها الا بضوء سيوف(١٠٦)

وعلى الرغم من إقبال المتنبي على بعض المعاني والصور التي ترددت لدى كثير من الشعراء فإننا نلمح خلال هذا الحشد خيطا يقودنا إلى الصورة التي أعجبت شاعرنا فاستمدها فيما نظم ، ونرى مثلا لذلك في حديث طائفة من الشعراء عن تعليق الرؤوس على الرَماح في المعارك ، فجعلها جرير بمثابة التيجان للرماح قائلا :

كأن رؤوس القوم رماحنا غداة الوغى تيجان كسرى وقيصرا(١٠٧)

وأقتفى مسلم أثر جرير فقال :

يكسو السيوف نفوس الناكثين به ويجعل الهام تيجان القناالذبل(١٠٨)

أما ابن المعتز فجعل الرؤوس قلانس تلبس للرماح فقال :

ويجعل هامات أعدائه قلانس يلبسهن الرماحا(١٠٩)

وقد حاول أبو تمام إضافة الجدة إلى هذا النموذج الذي تتبعه الشعراء فشبه الرؤوس على الرماحِ بأعلام تدل عليها قال :

من كلِّ ذى لمة غطت ضفائرها صدرَالقناة فقدكادت تُرَى علما(١١٠)

وللمتنبي :

مبرقعي خيلهم بالبيض متخذي هامِ الكماة على أرماحهم عذبا(١١١)

ويمكن القول إن المتنبي استعرض في خياله هذه النماذج التي اشتهرت في شعر المعارك ، واستوحى من بيت أبي تمام تشبيه الرؤوس بالعلم فجعلها

---

(١٠٥) ديوان ابن المعتز ٣٧

(١٠٦) ديوان البحتري ٣ : ١٣٦٥

(١٠٧) ديوان جرير ٢٢٩

(١٠٨) ديوان مسلم بن الوليد ١١

(١٠٩) ديوان ابن المعتز ١٣٤

(١١٠) ديوان أبي تمام ٣ : ١٧١

(١١١) التبيان . العكبري ١ : ١١٨

عذبا وهي الخرق التي تشد على رؤوس الرماح ، وإن كنا نلمح أثر مسلم في الصورة التي قدمها المتنبي في الشطر الأول في قوله «يكسو السيوف نفوس الناكثين به» ، إذ حوّل المتنبي كساء السيوف الى الذود عن الخيل بالسيوف كأنما جعلت براقع لها .

ولم يكن المتنبي في تناوله لبعض المعاني والصور التي دارت دوراناً واسعا في الشعر العربي ، ليغفل عن ملاحظة التطور الذي مس المعنى في التراث وعلى بعض الشعراء ، فيكون استيحاؤه لهذه الصور في إطار التطور العام الذي أصابها . نرى مثلا لذلك في حديث المتنبي عن فل السيف وتكسر الرماح من كثرة المعارك وقد كان هذا مدعاة فخر للعرب منذ الجاهلية . قال السموأل :

وأسيافنا من كل غرب ومشرق ... بهامن قراع الدارعين فلول(١١٢)

وللنابغة :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب(١١٣)

ولأبي تمام :

ورب يوم كأيام تركت به ... متنَ القناة ومتن القرن منقصفا(١١٤)

وله :

ماإن ترى إلا رئيسا مقصدا ... تحت العجاج وعاملا مقصودا(١١٥)

وقد تردد هذا المعنى في شعر المتنبي ومما قاله :

شِمْ ماانقضيت فقدتركت ذبابه ... قطعا،وقد ترك العباد جُذاذا(١١٦)

يغشى الطعان فلا يرد قناته ... مكسورة ومن الكماة صحيح(١١٧)

---

(١١٢) شعر السموأل ١٤
(١١٣) ديوان النابغة الذبياني ٨٧
(١١٤) ديوان أبي تمام ٢ : ٣٧١
(١١٥) المصدر نفسه ١ : ٤١٦
(١١٦) التبيان . العكبري ٢ : ٨٢
(١١٧) المصدر نفسه ١ : ٢٥٢

فتسفر عنه والسيوف كأنما مضاربها مما انفللن ضرائب[118]

وعندما لمح المتنبي أستعارة أبي تمام الموت للحديد في قوله :

وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر[119]

سار المتنبي على نهجه واستمد من موت الحديد لديه استعارة القتل لسلاحه ، لعلاقة السببية بينهما فقال :

قتلت نفوس العدا بالحديد حتى قتلتُ بهن الحديدا

وهولٍ كشفتَ ونصلٍ قصفت ورمح تركتَ مُبَادا مُبِيدا[120]

ثم قال مرة أخرى :

القاتلُ السيفَ في جسم القتيل به وللسيوف كما للناس آجال

فكرر الاستعارة السابقة في المصراع الأول ، ثم استعان بالتمثيل في الشطر الثاني : للتدليل على المعنى الذي أراده .

ولم يقف تأثر المتنبي بالموروث الشعري عند المعنى والصور المفردة ، بل امتد الى استيحاء روح قصيدة كاملة لشاعر من الشعراء ، يقف أمامها متأملا ، ويجعلها نصب عينيه نموذجا يحتذيه وينظم على منواله .

وقد كشف طه حسين النقاب عن قصائد المتنبي التي ذهب إلى أن الشاعر عارض فيها الأعشى والسموأل ، فقصيدة المتنبي :

لاتحسبوا ربعَكم ولاطللَهْ أولَ حيٍّ فراقكم قتله[121]

تمثّل المتنبي حين أنشأها لامية الأعشى :

إنّ محـلا وان مرتحـلا وأن في السفر إذ **مضوامهلا**[122]

كما ذهب الى أن لامية المتنبي في مدح سيف الدولة التي مطلعها :

---

(118) المصدر نفسه ١ : ١٠٧

(119) ديوان أبي تمام ٤ : ٨٠

(120) التبيان . العكبري ٣٦٨-٣٧٠

(121) التبيان . العكبري ٣ : ٢٦٤

(122) ديوان الأعشى ٣٤

ليالي بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل[١٢٣]

قد صاغها على مثال لامية السموأل :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل[١٢٤]

والمتأمل لقصيدتي السموأل والمتنبي يتبين له ان المتنبي ، في معارضته للسموأل ، قد استمد طائفة من ألفاظ قصيدته ومعانيها وأساليبها .

فالمتنبي - حين يتحدث عن لقب حاميه سيف الدولة - لا يفوته أن يعقد موازنة بين ممدوحه والسيوف قائلا :

وفي كل نفس ماخلاه ملالة وفي كل سيف ما خلاه فلول[١٢٥]

فعرض المتنبي لما اعتادت العرب أن تفخر به من آثار الضرب على السيوف مستوحيا في ذلك قول السموأل :

وأسيافنا في كل غرب ومشرق بها من قراع الدارعين فلول

كذلك استوحى استعارة الفعل «تسيل للمهج» اقتداء بالسموال الذي قال :

تسيل على حدالظبات سيوفنا وليست على غيرالسيوف تسيل

واستمدها في حديثه عن فرار الدمستق من أرض المعركة مهزوما ذليلا جريحا ، مخلفا وراءه فلذة كبده نهبا للسيوف تنال منه مقتلا وتسيل دماؤه ، فقال :

لعلك يوما يادمستق عائد فكم هارب مما اليه يؤول
نجوت باحدى مهجتيك جريحة وخلفت إحدى مهجتيك تسيل
أتسلم للخطية ابنك هاربا ويسكن في الدنيا إليك خليل

أما قول المتنبي :

(١٢٣) التبيان . العكبري ٣ : ٩٥
(١٢٤) شعر السموأل ١١
(١٢٥) التبيان . العكبري ٣ : ١٠٤

وفي بطن هنزيط وسمنين للظبا وصُمّ القنا ممن أبدن بديل
طلعن عليهم طلعة يعرفونها لها غرر ما تنقضي وحجول

ففيه حديث عن كثرة تعرض هذه المواضع التي أسماها من بلاد الروم لغارات سيف الدولة واهلاكه لسكانها طائفة بعد أخرى ، فكلما عمرت بأهليها ألحق بها جيش الامير الخراب والدمار ، فألف أهلها هذه الهجمات وعرفوها لعظمتها وشهرتها كما تعرف الخيول بغررها وحجولها ، وقد سار المتنبي على هدى السموأل في استعارة الغرر والحجول في قوله :

وأيامنا مشهورة في عدونا لها غرر معلومة وحجول

أما حديث السموأل عن سمو مكانتهم وعلو شأنهم ، على الرغم من قلة عددهم في قوله :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها ان الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلى وكهول
وماضرنا أنّا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

فاننا نجد له صدى في حديث المتنبي عن اغترار الدمستق بطول جيوشه وعرضها ، وفاته ان هذا الممدوح لا يحفل ولا يأبه بكثرة عددهم ؛ إذ أن أرواحهم له بمثابة الغذاء الذي يتقوت به ، فهو يقبل على الجيوش مهما عظمت كما يقبل على طعامه وشرابه ، مثله في ذلك كمثل الفيل مع الاسد : إذ ان ضخامة الفيل وعظم خلقه لا تحول دون فتك الأسد به .

قال :

أغركم طول الجيوش وعرضها على شروب للجيوش أكول
إذا لم تكن لليث إلا فريسة غذاه ولم ينفعك أنك فيل

وقد ذكر الأكل والشرب على سبيل الاستعارة ، سيرا على هدى أبي تمام في قوله :

في مكر للروع كنت اكيلا للمنايا في ظله وشريبا[١٢٦]

(١٢٦) ديوان أبي تمام ١ : ١٦٤

وقد استخدم تشبيه التمثيل في البيت الذي تلاه ؛ لتوضيح المعنى الذي سبق .

لقد وقف المتنبي عند بعض الصور والمعاني التي أوردها السموأل ، واستمدها في قصيدته ، ولكن اعجابه بنهج السموأل لاينفي وجود آثار لمعاني وصور شعراء آخرين ، حفظ المتنبي أشعارهم فيما حفظ .

ومن القصائد التي نلمح فيها روح الشاعر الكبير أبي تمام تلك القصيدة التي نظمها المتنبي في مدح علي بن المنصور الحاجب ومطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا　　　اللابسات من الحرير جلاببا[127]

فقد عارض فيها قصيدة أبي تمام :

أأيامنا ما كنتِ إلا مواهبا　　　وكنتِ بإسعاف الحبيب حبائبا[128]

وقد نظم المتنبي هذه القصيدة في مطلع حياته ، واتخذ من أبي تمام إماما احتذاه في كثير من ألفاظه ومعانيه وصوره ، وتكشف هذه القصيدة عن جوانب مهمة أسهمت في فن المتنبي ، فاتباعه سبيل المعارضة في هذه الفترة من حياته دليل واضح على اعجابه الشديد بأبي تمام وترسمه لطريقه ، فأضفى على أشعاره كثيرا من خصائص وسمات أسلوب أبي تمام .

قال أبو تمام يهجو أحدهم :

شهدت جسيمات العلا وهو غائب　　　ولو كان أيضا شاهدا كان غائبا

فنقله المتنبي الى المديح وقال :

هذا الذي أبصرت منه حاضرا　　　مثل الذي أبصرت منه غائبا

لقد هجا أبو تمام هذا الرجل بأنه لا نفع وراءه : فوجوده وغيابه في الملمات سيان ، فنقله المتنبي الى المدح : ليثبت للممدوح عموم الفضل في الحضور والغيبة .

وقد مثل المتنبي لهذا المعنى فيما تلاه من أبيات بثلاث صور ، شبه فيها

(١٢٧) التبيان . العكبري ١ : ١٢٢

(١٢٨) ديوان أبي تمام ١ : ١٣٨

الممدوح بالبدر والشمس والبحر :

كالبدر من حيث التفت رأيته   يهدي الى عينيك نورا ثاقبا
كالبحريقذف للقريب جواهرا   جودا ويبعث للبعيد سحائبا
كالشمس في كبد السماء وضوؤها   يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

إن الفكرة التي أراد الشاعر أن يعبر عنها هي ان نفع الممدوح قد عم الناس كلهم من حاضر وغائب ، ولما كان المجال مدحا بالكرم والعطاء الغزير فقد تعاقبت على ذاكرة الشاعر صور الكرم التي احتفل بها الشعر العربي : من تشبيه للممدوح بالغيث والبحر ، والشمس والقمر ، فصاغ من التراث ثلاث تشبيهات للتمثيل على الفكرة التي استوحاها من القصيدة التي عارضها .

لقد ألم المتنبي بمعنى بيت أبي تمام ، واستطاع أن يستثمره بما أمدته به ذاكرته من صور الموروث التي أعانته على ايضاح الفكرة وتبيانها ، ولم يكن أمام المتنبي مفر من أن تنثال عليه الصور التراثية ، إذ انه عرض لصفات الكرم التي تعاقب عليها من سبقه من الشعراء ، ونرى هذا المعنى لدى بشار :

إذا جلس المهديُّ عمت فضوله   علينا كماعم الضياءمن البدر[١٢٩]

ولأبي تمام :

قريب الندى نائي المحل كأنه   هلال قريب النورنائي المنازل[١٣٠]

وللبحتري :

عطاء كَضوء الشمس عم فغرب   يكون سواء في سناه ، ومشرق[١٣١]

وله أيضاً :

كالبدر أفرط في العلو وضوؤه   للعصبة السارين جد قريب[١٣٢]

وقد يكون تأمل الشاعر لبعض ألفاظ القصيدة التي يعارضها عاملا

---

(١٢٩) ديوان بشار ٣ : ٢٨٩
(١٣٠)الوساطة ٢٦١
(١٣١) ديوان البحتري ٣ : ١٤٩٦
(١٣٢) المصدر نفسه ١ : ٢٤٩

يثير في ذهنه بعض المعاني التي تتعلق بهذا اللفظ مما ورد للشاعر الذي يعارضه في غير تلك القصيدة ، أو مما ورد لغيره من الشعراء .

قال أبو تمام :

وهل كنت إلامذنبا يوم أنتحى　　سواك بآمالي فأقبلت تائبا

وقال المتنبي :

حالا متى علم ابن منصوربها　　جاءالزمان إليّ منها تائبا

فان القافية تائبا التي وردت في بيت أبي تمام دعت الى خيال المتنبي بيتا آخر لأبي تمام استعار فيه التوبةَ للزمان حيث قال :

كثرت خطاياالدهر فيّ وقديرى　　بنداك وهوإليّ منهاتائب[١٣٣]

كذلك فان وقوف المتنبي عند القافية (كاذبا) التي وردت في بيت أبي تمام :

هوالغيث لوأفرطت في الوصف عامدا　　لأكذب في مدحيه ماكنت كاذبا

أثار في ذهن الشاعر بيتا آخر لأبي تمام بنفس القافية هو قوله :

تجاوز غايات العقول رغائب　　يكاد بها لولا العيان يكذب[١٣٤]

فاستوحاه المتنبي وقال :

كرما فلو حدثته عن نفسه　　بعظيم ماصنعت لظنك كاذبا

فاستوحاه المتنبي وقال :

كرما فلو حدثته عن نفسه　　بعظيم ماصنعت لظنك كاذبا

وللمتنبي :

قد عسكرت معها الرزاياعسكرا　　وتكتبت فيهاالرجال . كتائبا

ولأبي تمام :

خطوب إذا لاقيتهن رددنني　　جريحا كأني قدلقيت الكتائبا

---

(١٣٣) ديوان أبي تمام ١ : ١٧٥

(١٣٤) الوساطة ٢٣٢ ، لم يرد بالديوان .

إن تصوير أبي تمام لخطوب الزمان وويلاته في هيئة كتائب من الجيش تخلف وراءها جرحى وقتلى هو الذي ساق المتنبي الى استعارة الفعل «عسكر» للرزايا ، وأغلب الظن ان الشاعر اضطر الى اكمال البيت بهذه الصورة ، حتى يورد القافية المطلوبة وان كان الشارحون قد فسروه بما يوافق مبالغات المتنبي ، قائلين ان رجاله يخالهم العدو كتائب لفرط شجاعتهم وعظيم فعالهم .

ومن الأبيات التي استمدها من القصيدة المعارضة قوله :

فلقد دهشت لمافعلت ودونه مايدهش الملك الحفيظ الكاتبا

من قول أبي تمام :

إذا شئت أن تحصى فواضل كفه فكن كاتبا أو فاتخذ لك كاتبا

وقد يكون تأثره في نطاق أسلوب التعبير ، كأن يستعير القالب اللفظي للبيت الذي يعارضه كما يبدو من قوله :

المنبهات قلوبنا وعقولنا وجناتهن الناهبات الناهبا

وقول أبي تمام :

سلبنا غطاءالحسن عن حرأوجه تظل للب السالبيها سوالبا

أو الاستعانة ببعض المحسنات البديعية التي وردت في القصيدة المعارضة في نحو قوله :

سل عن شجاعته وزره مسالما وحذار ثم حذار منه محاربا

فقد اعتمد في هذا البيت المطابقة بين (مسالم - محارب) كما وردت في بيت أبي تمام :

وكنت أمرأ ألقى الزمان مسالما فآليت لا ألقاه الا محاربا

وقد عقد ابن الاثير الصلة بين قصيدة المتنبي التي نظمها في مدح سيف الدولة ووصف هزيمته سنة ٣٣٩ هجرية ، ومطلعها :

غيري بأكثرهذا الناس ينخدع إن قاتلواجبنوا أوحدثوا شجعوا(١٣٥)

---

(١٣٥) التبيان . العكبري ٢ : ٢٢١

وبين قصيدة أخرى لابي تمام ، زعم ان قصيدة المتنبي قد صيغت في وزنها وقافيتها ، ومطلعها :

أيُّ القلوب عليكم ليس ينصدع وأيُّ نوم عليكم ليس يمتنع[136]

وقد أورد ابن الأثير هذه الموازنة عند حديثه عن سرقات الشعراء ، وعد من عيوب الأخذ أن يورد أحد الشعراء في قصديته معنى سبقه اليه شاعر آخر في قصيدة بنفس الوزن والقافية[137]، واستشهد لذلك بقول المتنبي في هذه القصيدة :

لم يسلم الكرُّ في الأعقاب مهجته إن كان أسلمها الأصحاب والشيع

وقول أبي تمام :

ماغاب عنكم من الاقدام أكرمه في الروع إذغابت الأنصاروالشيع

وبتأمل هاتين القصيدتين يتضح للدارس ان المتنبي لم ينظر الى قصيدة أبي تمام كنموذج يحتذيه ؛ إذ لم يكن في نيته معارضة هذه المرثية ، على ان وحدة الوزن والروي في القصيدتين دعت إلى ذاكرة المتنبي بيتين لأبي تمام أحدهما ماذكره ابن الأثير والآخر قول أبي تمام :

بني حميد بنفسي أعظمٌ لكم مهجورة ودماء منكم دُفَع

الذي استوحاه المتنبي في قوله :

وفارس الخيل من خفت فوقَّرها في الدرب والدم في أعطافهادُفَعُ

مما دفع بابن الأثير الى أن يظن ان المتنبي قد عارض أبا تمام في هذه القصيدة .

ولم يكن المتنبي في صلته بالموروث الشعري يتوقف عند استمداد أو أستيحاء صور هذا الموروث ومعانيه فيما ينظم ، فتترك في شعره آثارا واضحة أو خفية ، بل اننا نراه قد أمعن النظر في التراث ؛ ليتبين الطرق التي سلكها الشعراء في أساليبهم ، ومتى اتضحت له هذه الأساليب رسم لها في ذاكرته

(١٣٦) ديوان أبي تمام ٤ : ٨٩

(١٣٧) المثل السائر . ابن الأثير ٤٧٧

نموذجا يسير على نهجه وينسج على منــــواله .

لقد اقتدى المتنبي بما شاع في التراث من ولع بالتشبيه ، وايراد عدة تشبيهات في البيت الواحد كما في قول أبي نواس :

يا قمرا أبرزه مــأتم ... يندب شجوا بين أتراب
يبكي فيذري الدر من نرجس ... ويلطم الورد بعناب(١٣٨)

وابن الرومي :

كأنَّ تلك الدموع قطرندى ... يقطرمن نرجس على ورد(١٣٩)

فقال موردا تشبيهات متتالية :

ترنو إليّ بعين الظبي مجهشة ... وتمسح الطل فوق الوردبالعنم(١٤٠)

وله :

بدت قمرا ، ومالت خــوط بان ... وفاحت عنبرا ، ورنت غزالا(١٤١)

ووقف عند التشـبيه التمثيلي ، الذي أستعان به أبو تمام لبيان المعـنى العقلي الذي أراده ، وهو تفضيل الفـروع على أصولها التي نشـأت فيهـا أو استمدت منها ، حين قال :

ولاتقل اننا من نبعة فلقد ... بانت نجائب إبل من نواضحها(١٤٢)

فلجـأ المتنبي الى هذا الأسـلوب وكرره بصـورة مختلفـة مما يدل على اعجابه به فأمعن فيه :

فإن يك سيار بن مكرم انتضى ... فإنك ملءالورد إن ذهب الورد(١٤٣)
فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال(١٤٤)

---

(١٣٨) ديوان أبي نواس ٢٤٢
(١٣٩) ديوان ابن الرومي ٤٣١
(١٤٠) التبيان . العكبري ٣ : ٣٧
(١٤١) المصدر نفسه ٣ : ٢٢٤
(١٤٢) ديوان أبي تمام ١ : ٣٥٤
(١٤٣) التبيان . العكبري ١ : ٣٨٠
(١٤٤) المصدر نفسه ٣ : ٢٠

وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها فإن في الخمرمعنى ليس في العنب[١٤٥]

وحين أراد الحديث عن مهارة ممدوحه في الضرب والطعان ، مما يعد من دواعي الانتظار في المعارك ،أعجبه أسلوب الكناية الذي ساقه ابن معد يكرب ومن سار على منواله من الشعراء في التعبير عن سداد الطعنة واصابتها مقتل الأعداء ، فقال :

فيابن الطاعنين بكل لدن مواضع يشتكي البطل السعالا[١٤٦]

قال ابن معدي :

الضاربين بكل أبيض مرهف والطاعنين مجامع الأضغان[١٤٧]

وللبحتري :

فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد[١٤٨]

فقد استعمل الكناية في هذا البيت تأثرا واحتذاء لبيت ابن معدى ، ونلمس التأثر واضحا في استعارة بعض الألفاظ (بكل لدن - بكل أبيض مرهف) ، وايراد اسم الفاعل بصيغة مجموعة (الضاربين - الطاعنين) مما يجعل أثر النموذج المستمد واضحا .

وقد يستعين بالاحتراس في اداء المعاني التي ينشدها ، كما نرى قول طرفة :

فسق ديارك غيرَ مفسدها صوبُ الربيع وديمة تُهمي[١٤٩]

وقول جرير :

فسقاك حيث حللت غير فقيدة هزج الرواح وديمة لاتقلع[١٥٠]

فسار المتنبي على نهج هذين الشاعرين وغيرهما وأحسن اتباعهما

---

(١٤٥) المصدر نفسه ١ : ٩١
(١٤٦) المصدر السابق ٣ : ٢٢٧
(١٤٧) محاضرات الأدباء ٢ : ٩١
(١٤٨) ديوان البحتري ٢ : ٧٤٤
(١٤٩) ديوان طرفة ٩٣
(١٥٠) ديوان جرير ٣٤٣

فقال :

صلى الاله عليك غير مودع وسقى ثرى أبويك صوب غمام[151]

كذلك سار على نهج النابغة ومن سار مساره في تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله :

ولاعيب فيهم غير ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب[152]

ولعله أعجب بهذا الأسلوب لما فيه من مبالغة في أداء المعنى فقال :

أنت الذي لو يعاب في ملأ ما عيب إلا لأنه بشر
وان إعطاءه الصوارم والخيل وسمر الرماح والعكر[153]

وإذا عمد بعض الشعراء الى المعاظلة اللفظية في بعض أشعارهم لم يأنف المتنبي من سلوك هذا المسلك والاقتداء بهم ، على الرغم من قبح هذا الأسلوب والحاح النقاد على عده من العيوب التي يجدر بالشعراء أن يتلافوها ، ومن النقد الذي وجهه المتنبي نفسه لأبي تمام في أنماط من التعبير لا تختلف عما أورده هو نفسه حين نقد قوله :

فالمجدُ لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى امروٌ يرجوك إلابالرضا[154]

قائلا : أراه سمع بيت مسلم فأحب أن يركب الكلام ويعاظله تركيب مسلم ومعاظلته[155] في قوله :

سلت فسلت ثم سلَّ سليلها فأتى سليل سليلها مسلولا[156]

وقد سلك مسلم في هذا البيت مسلك الأعشى الذي قال :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني شاو مشل شلول شلشل شول[157]

---

(١٥١) التبيان . العكبري ٤ : ١٤
(١٥٢) ديوان النابغة ٨٧
(١٥٣) التبيان . العكبري ١ : ٨٩
(١٥٤) ديوان أبي تمام ٢ : ٣٠٧
(١٥٥) الرسالة الموضحة ١٧٤
(١٥٦) ديوان مسلم ٣٧
(١٥٧) ديوان الأعشى ٥٩

فكَرَر المتنبي هذا النمط من التعبير في أبيات متعددة :

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا ... قلاقل عيس كلهن قلاقل[158]

ومن جاهل بي وهو يجهل جهله ... ويجهل علمي أنه بي جاهل[159]

وقوفين في وقفين شكر ونائل ... فنائله وقف ، وشكرهم وقف[160]

ويمكن أن نقرن بالمعاظلة محاولة المتنبي الاقتداء ببعض الشعراء في اصطناع التكرار في الأفعال ؛ لاظهار البراعة في اللغة والاقتدار عليها ، ومن هؤلاء الشعراء امرؤ القيس :

أفاد وجاد وساد وزاد ... وذاد وقاد وعاد وأفضل[161]

ولأبي العميثل :

يامن يؤمل أن تكون خلاله ... كخلال عبدالله انصت واسمع

اصدق وعف وبر وانصر واحتمل ... واحلم وكاف وداروا اصبر واشجع[162]

فقال المتنبي مبالغا في هذا التكرار :

أقل أنل أن صن احمل علّ سلّ أعد ... زد هش بش هبِ اغفر ادن سر صل[163]

وله ايضا :

عش ، ابق ، اسمُ ، سُدْ ، قُدْ ، جُدْ ، مُرِ ، انه ، رِفِ اسر نِلْ

غِظِ ارمِ صبِ امم اغزُ اسْبِ ... رُعْ زَعْ ، د ، ل ، اثن ، نُلْ[164]

ويقودنا الحديث عن التكرار إلى ظاهرة تلفت النظر في شعر المتنبي ، وهي تكراره لبعض المعاني والصور ، وقد فطن بعض النقاد القدماء الى هذه الظاهرة في شعره ، فعقد الثعالبي في اليتيمة فصلا للحديث عما تكرر من معانيه

---

(١٥٨) التبيان ٣ : ١٧٤

(١٥٩) التبيان . العكبري ٣ : ١٧٤

(١٦٠) المصدر نفسه ٢ : ٢٨٦

(١٦١) ديوان امرىء القيس ٤٧

(١٦٢) التبيان . العكبري ٣ : ٨٦

(١٦٣) المصدر نفسه ٣ : ٨٩

(١٦٤) المصدر نفسه ٣ : ٨٩

في شعره[165] ، ونبه الجرجاني في الوساطة الى هذا التكرار في بعض المواضع[166] . أما العميدي ، فقد عد هذه الظاهرة دليلا واضحا على تأثر المتنبي بابن الرومي ، فكرر بعض معانيه ضربا على قالب ابن الرومي في تكرار المعنى إذا استحسنه[167] .

ونحن لا ننكر تأثر المتنبي بابن الرومي ، واستيحاءه بعض معانيه وصوره ، ولكن عد هذه الظاهرة في شعر المتنبي في إطار التأثر بشاعر واحد فهذا ما نستبعده .

وقد يفسر تكرار بعض الصور التي ارتبطت بخبرة الشاعر الحسية بأن ذلك راجع الى تكرار الموقف ، مما يسوق الشاعر الى تكرار صوره ومعانيه ، ولكن التكرار في بعض الصور العقلية يبدو فيه القصد الواضح والجهد المتعمد .

فعندما يصف المتنبي ممدوحه بأنه حوى جميع الفضائل والمكارم حتى تساوى مع الخلق كلهم ، يلفت نظره بيت أبي نواس الذي يبدو موافقا لما ارتضاه المتنبي لممدوحه من وصف يتسم بالمبالغة :

وليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد[168]

فيردد هذه الصورة في شعره عدة مرات ، قال :

أحلما نرى أم زمانا جديدا   أم الخلق في شخص حي أعيدا[169]

هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى   ومنزلك الدنيا ، وانت الخلائق[170]

مدبة ما رأيت مهديها   الا رأيت العباد في رجل[171]

---

(165) يتيمة الدهر. الثعالبي ١

(166) الوساطة . الجرجاني ٢١٧ ، ٢٦٩ ، ٣٢٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥

(167) الابانة . العميدي ١٦٤

(168) ديوان أبي نواس ٤٥٤

(169) التبيان . العكبري ٢ : ٣٦٦

(170) المصدر نفسه ٢ : ٣٥٠

(171) المصدر نفسه ٣ : ١٧٣

ولقيت كل الفاضلين ، كأنما رد الاله نفوسهم الاعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى فذلك اذ أتيت مؤخرا[172]

فقد أدار الفكرة في هذه الأبيات فأوردها في مصراع البيت الاول والثالث والرابع ، وفي نصف مصراع البيت الثاني حين أوجزها في قوله «أنت الخلائق» ، أما في البيت الرابع فقد اكد الصورة السابقة بأخرى أضافها اليها .

وقد ترد هذه الصور المكررة بألفاظ متقاربة وقافية واحدة ، مما يؤكد الدور الفعال الذي أدته الذاكرة في ايراد هذه المعاني . فقد لفت نظر المتنبي قول أبي نواس :

كأنما أنت شيء حوى جميع المعاني[173]

وقول ابن دريد :

الله يعلم والراضي وشيعته ان الوزارة لفظ أنت معناه[174]

فاستوحاه في عدة أبيات قائلا :

الناس مالم يروك أشباه والدهر لفظ وأنت معناه[175]
ولولا كونكم في الناس كانوا هراء كالكلام بلا معاني[176]
لا يتوقى أبو العشائر من ليس معاني الورى بمعناه[177]
يُدِلّ بمعنى واحد كل فاخر وقدجمع الرحمن فيك المعانيا[178]

وقد يقع التكرار في بعض المعاني التي ارتبطت بخبرة الشاعر وتجربته في الحياة ، فيوردها بأسلوب يوجز التجربة في إطار بيت واحد مما يدخل في

---

(١٧٢) المصدر نفسه ٢ : ١٧١
(١٧٣) ديوان أبي نواس ٢٤٤
(١٧٤) التبيان . العكبري ٤ : ٢٦٣
(١٧٥) المصدر نفسه ٤ : ٢٦٣
(١٧٦) المصدر نفسه ٤ : ٢٦٢
(١٧٧) المصدر نفسه ٤ : ٢٦٦
(١٧٨) المصدر نفسه ٤ : ٢٨٩

باب الحكمة وضرب الأمثال نحو قوله :

ذو العقل يشقي في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم[١٧٩]

تصفو الحياة لجاهل أو غافل
عما مضى فيها وما يتوقع[١٨٠]

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن
يخلو من الهم أخلاهم من الفطن[١٨١]

ويلاحظ ان المعنى الذي قصده المتنبي من المعاني التي تداولت عليها الشعراء ، كما نرى في قول ابن المعتز :

وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا[١٨٢]

والبحتري :

أرى الحلم بؤسا في المعيشة للفتى
ولا عيش الا ماحباك به الجهل[١٨٣]

ويمكن القول ان ظاهرة التكرار التي نراها لدى المتنبي وغيره تدل على فاعلية التجربة التي استقبلت فيها ذاكرة الشاعر هذا المعنى أو ذاك ، وتنم عن أعجاب الشاعر ببعض المعاني التي توافق بعض دوافعه النفسية ، فيكون التكرار تأكيدا لدور الذاكرة في عملية النظم ، وتوجيه الشاعر الى بعض المعاني توجيها متعمدا مقصودا .

---

(١٧٩) المصدر نفسه٤ : ١٢٤
(١٨٠) المصدر نفسه ٢ : ٢٦٩
(١٨١) المصدر نفسه ٤ : ٢٠٩
(١٨٢) التبيان . العكبري ٤ : ١٢٤ ، غير موجود بديوان الشاعر .
(١٨٣) ديوان البحتري ٣ : ١٦١٦

الفصل الثالث

الثقافة الدينية

نبدأ حديثنا عن ثقافة الشاعر الدينية بالتعرف على المهاد العقائدي الذي أثر في تكوين هذه الثقافة ووجه مسارها في مراحل حياة الشاعر المختلفة ، ويعتمد تكوين هذا المهاد - بطبيعة الحال - على عنصرين مهمين :-

أولا : ظروف البيئة التي عاش فيها الشاعر ، سواء في نشأته الأولى - حيث كانت نفسه بكرا مهيئة لتقبل كثير من المذاهب والآراء - أو البيئات التي تنقل فيها الشاعر طوال حياته .

ثانيا : جوانب شخصية الشاعر ، التي تبين مدى استعداده النفسي لتقبل المذاهب المختلفة والآراء المتباينة .

لعل اكثر البيئات تأثيرا في التوجيه المذهبي لشاعرنا هي بيئة الكوفة ، حيث ولد الشاعر في أسرة شيعية[1] ، وجهته توجيها دينيا خاصا حين الحقته بمدرسة أشراف العلويين[2] ، فتلقى مباديء دينية خاصة فرضها وضع هذه المدرسة .

وقد تضافرت عوامل متعددة جعلت من الكوفة مدينة ذات سمات مذهبية خاصة : فقد سكنتها أجناس مختلفة ، من عرب وفرس ونبط وسريان ، حملت معها رواسب دينية متعددة ، من مجوسية ويهودية ونصرانية[3].

---

(١) نزهة الالباء لأبن الانباري ٢٠٤
(٢) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . الأصفهاني ٦
(٣) حياة الشعر في الكوفة . يوسف خليف ١٥٧

وقدْ كانت الكوفة معقلا للتشيع : فهي مركز خلافة علي وشيعته ، وشيعة أولاده من بعده[4]، ومنها انبقت المذاهب التي غذاها التشيع على مر تاريخها . وقد عاصر المتنبي احدى الحركات المنبثقة عن المذهب الاسماعيلي ممثله في القرامطة ، وما أن أهل القرن الرابع حتى كانت مدينة الكوفة هدفا لغارات القرامطة وهجماتهم المتكررة ما بين سنتي ٣١٥ - ٣٢٥ هـ[5].

وفي البادية اصطدم الشاعر ببيئة قرمطية : فقد استطاع زكرويه بن مهرويه - داعية القرامطة - أن ينشر دعوته في بادية السماوة[6] وبعض مدن الشام ، ويتخذ له انصارا يدينون له بالاطاعة والولاء ، أبرزهم قبيلة كلب[7] - التي كانت من أشد القبائل حماساً لحركته ، وقد عاش الشاعر زمنا في هذه القبيلة .

وننتقل مع الشاعر الى بيئة الحمدانيين ، حيث قضى اكثر سنوات حياته أمانا واستقرارا ، وقد كان الحمدانيون شيعة محافظة[8] ، لذلك رأينا للتشيع - باعتباره المذهب الرسمي للدولة - بصمات واضحة في ادبهم ، وشغل شعر التشيع - بما تضمنه من ذكر مآثر آل البيت والبكاء على قتلاهم والقدح

---

(٤) فجر الاسلام . أحمد أمين ١ : ٣٢٦

(٥) الكامل . ابن الاثير . ٨ : حوادث سنة ٣١٥ .. الخ

(٦) تاريخ الامم والملوك . الطبري ٨ : ٢١٤ - ٢١٦

(٧) المصدر نفسه ٨ : ٢١٤

(٨) ظهر الأسلام . أحمد أمين ١ : ٧٥

فيمن اغتصب الخلافة منهم - جانبا واضحا في دواوين الشعراء الذين التفوا حولهم ، وكان معظمهم من الشيعة .

وقد كان الشعر الشيعي الذي أنشد في بلاط الحمدانيين سندا اعتمد عليه بعض الباحثين في تحديد المذهب الشيعي الذي انتمى اليه بنو حمدان ، حيث ذهب الى انهم كانوا شيعة اثنى عشرية[٩] ، وكان دليله على ذلك هذه الابيات لأبي فراس :

شافعي أحمد النبي ، ومولا ي علي والبنت والسبطان
وعلي وباقر العلم والصا دق ثم الأمين ذو التبيان
وعلي ومحمد بن علي وعلي والعسكري والداني
والامام المهدي في يوم لاينـ فع الا غفران ذي الغفران[١٠]

فقد كان ترتيب أئمة الشيعة في هذه الأبيات موافقا لمذهب الشيعة الاثني عشرية ، ولما كان أبو فراس ابن عم سيف الدولة وقد تربى على يديه ، فقد عد مذهبه مذهبا للدولة كلها .

وعلى الرغم من ان المتنبي كان شيعي المولد والنشأة ، وكان يدين بالولاء لسيف الدولة الحمداني ، وكان شعره معبرا عن آمال الممدوح وأمانيه ومهللا لانتصاراته ، فان صوت الشعر الشيعي في ديوانه خافت . وقد أحس معاصروه بهذا الأمر فسأله بعضهم : «لم لم تمدح عليا ؟ فقال :

وتركت مدحي للوصي تعمدا إذ كان نورا مستطيلا شاملا
واذا استقل الشيء قام بذاته وكذاضياءالشمس يذهب باطلا[١١]

وتبدو ضآلة هذا الجانب في شعر المتنبي واضحة اذا قارنا بينه وبين أحد الشعراء الذين عاصرهم في بلاط سيف الدولة : كأبي فراس الذي عقد للشعر الشيعي قصائد طويلة .

---

(٩) مصطفى الشكعة - الشعر في بلاط الحمدانيين ٣٠١
(١٠) ديوان أبي فراس ٢ : ٣٩٧ وأيضا ٢ : ٤٢٩
(١١) شرح ديوان المتنبي . الواحدي ٨٥٦

واذا استعرضنا بعض شعره الذي نلمس فيه سمة تشيع نرى ان منه أبياتا متناثرة في مدح آل البيت دعت اليها المناسبة ، مثل ما ورد في مدحه لطاهر بن الحسين العلوي فقال :

الطيب مما غنيت عنه كفى بقرب الأمير طيبا
يبني به ربنا المعالي كما بكم يغفر الذنوبا[١٢]

ونحو قوله :

نصرت عليا يا ابنه ببواتر من الفعل لافل لها في المضارب
وأبهر آيات التهامى أنه أبوك وأجدى مالكم من مناقب[١٣]

فقد مدح العلويين بانتسابهم الى الرسول ، وجعل ذلك احدى مناقبهم الكثيرة ، أو على رواية «وأجدى» انهم من معجزات النبي وآية لتصديقه وتحقيق لقوله تعالى «ان شانئك هو الابتر» ردا على المشركين الذين قالوا : محمد صنبور أبتر لا عقب له ، ويروي البيت برواية ثالثة لابن فورجة «آية»[١٤] يعني ان اباك علي بن أبي طالب كان آية من آيات الرسول .

ونراه في القصيدة يذكر أبناء فاطمة :

كذا الفاطميون الندى في بنانهم أعز امّحاءً من خطوط الرواجب[١٥]

وقال عندما هزم سيف الدولة جيوش الاخشيديين بقيادة محمد بن طغج بصفين :

ياسيف دولة ذي الجلال ، ومن له خير الخلائق والأنام سمى
انظر الى صفين حين دخلتها فانحاز عنك العسكر الغربى
فكأنه جيش ابن هند رعته حتى كأنك يا علي على[١٦]

وقد لمح الشاعر الى فكرة رجعة الامام ، أو الامام الخفي ، التي كانت

---

(١٢) التبيان . العكبري ١ : ١٤٦
(١٣) المصدر نفسه ١ : ١٥٤
(١٤) شرح مشكلات ديوان المتنبي . ابن فورجة ١٦٣
(١٥) التبيان . العكبري ١ : ١٥٢
(١٦) شرح ديوان المتنبي . الواحدي ٨٥٥

تسود كافة فروع الشيعة في الاعتقاد بخلود الامام وعودته الى الظهور في المستقبل مهديا لكي يختم سلسلة الأئمة فقال :

يعللنا هذا الزمان بذا الوعد ويخدع عما في يديه من النقد[١٧]
فان يكن المهدي قدبان هديه فهذا والا فالهدى ذا فما المهدي

وذكر المهدي في مجال المدح هنا يسبغ على الممدوح صفات التقديس التي كان الشيعة يرونها في أئمتهم ؛ فالامام عندهم «يتلقى علمه من الله عن طريق الوحي ، والله يعده اعدادا خاصا ، ويعصمه من الذنوب ، ويورثه علم الأنبياء ، ويطلعه على ما كان وما سيكون ، والنبي علم الناس علما ، وآثر عليا بعلم خاص ، وهو العلم الذي توارثه الأئمة من بعده»[١٨].

وقد ذكر المتنبي المهدي رمزا للعلم والحكمة والهداية ، وهي صفات ترضى ممدوحه ابن العميد .

أما قوله «يعللنا هذا الزمان بذا الوعد» فلعله تعبير عن ضيق كثير من الشيعة بانتظار الامام الذي سيظهر آخر الزمان لينتقم ممن أساؤا الى علي وشيعته ، ويعيد اليهم حقوقهم المسلوبة ؛ فقد طال انتظار الشاعر ولم تنصر هذه الفئة ممن ظلموها .

ونراه يضفي على بعض ممدوحيه صفة العلم بالغيب ؛ ليجعلهم في مرتبة تفوق سائر الناس ، اقتداءا بالشيعة الامامية في نظرتهم للأئمة نحو قوله :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى الى قول قوم أنت بالغيب عالم[١٩]
وهل يخطى بأسهمه الرمايا وما يخطى بما ظن الغيوبا[٢٠]
مستنبط عن علمه ما في غد فكأن ما سيكون فيه دونا[٢١]

ونضيف الى ذلك الملاحظات التي قدمها ماسينيون في بحثه عن المتنبي

(١٧) التبيان . العكبري ٦٧:٢
(١٨) ضحى الاسلام . أحمد أمين ٣ : ٢٢٠
(١٩) التبيان . العكبري ٣ : ٣٨٧
(٢٠) المصدر نفسه ١ : ١٤٢
(٢١) المصدر نفسه ٤ : ٢٠١

بعنوان «المتنبي امام المجتمع الاسماعيلي» فقد لاحظ ان الشاعر كان متاثرا بالشيعة الاسماعيلية في بعض الصفات التي اسبغها على ممدوحيه : كالقائم ، والوصي ، والمهدي ، والهادي نحو قوله :

القائم ، الملك ، الهادي ، الذي شهدت قيامه وهداه العرب والعجم[٢٢]

وقوله :

اذا ما العالمون عروك قالوا أفدنا أيها الحبر الامام[٢٣]

وقوله :-

افتح الجفن واترك القول في النو م وميز خطاب سيف الامام[٢٤]

ومما عده ماسينيون تأثرا بالاسماعيلية قوله :

أحاد ام سداس في أحاد ليلتنا المنوطة بالتنادي
كأن بنات نعش في دجاها خرائد سافرات في حداد[٢٥]

فقد ذهب ماسينيون الى ان الشاعر رمز بالعدد في البيت الأول الى بنات نعش ، وعددها سبع في البيت الثاني[٢٦] .

ولعل المتنبي رمز هنا الى دلالة النظام السبعي في الكون لدى الاسماعيلية : فالكواكب سبع ، والأرضون سبع ، وأيام الأسبوع سبعة ، وذلك مرتبط بأدوار الامامة في معتقدهم ، فتسلسل الأئمة ينتهي بالامام السابع حيث نهاية أدوار الأئمة بيوم القيامة ونظام الأرض عندهم مرتبط بالكواكب السبعة السيارة[٢٧].

وقد اضطرب الشراح في شرح هذا البيت ، وفي تعليل استعماله لصيغة

---

(٢٢) المصدر نفسه ٤ : ٢٦
(٢٣) الواحدي : ١٦٦ ، وعند العكبري ٤ : ٨٠ ورد البيت :
«أفدنا أيها الحبر الهمام» وهو خطأ اذ انه ادار شرحه على لفظ الامام
(٢٤) التبيان . العكبري ٣ : ٣٧٧
(٢٥) التبيان . العكبري ١ : ٣٥٥
Massignon. Motanabbi devant Le siecle Ismailien. 491.
(٢٧) قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين . محمد عبد الفتاح عليان ١٨٨

فعال من العدد السادس على ندرتها ، وأحاد التي لا تستعمل في موضع الواحد . وقد ذكروا انه لم يرد الضرب الحسابي ، وانما اراد العدد سبعة ، لأنه عنى أيام الأسبوع ، والأسابيع تتوالى الى يوم القيامة .

ووفقا لما ذكر ماسينيون من ان العدد يرمز الى بنات نعش فان تعليل ارتباطه بأفكار الاسماعيلية يبدو قريبا من المعقول الى حد ما ، وقد يكون وراء هذه الاستعمالات اللغوية التي أوردها .

وقد يكون ماسينون منطلقاً في هذه التأويلات من ايمانه بانتماء الشاعر الى طائفة الاسماعيلية . وقد ساق الأدلة لاثبات هذا الانتماء من تاريخ حياة الشاعر ومن شعره .

وقد سار بعض الباحثين في اتجاه ماسينيون محاولين اثبات القرمطية للمتنبي . وسار فريق آخر في اتجاه مضاد ، وتتلخص الأدلة التي قدمها الجانبان فيما يلي :-

أولا : الاتجاه الذي يثبت قرمطية المتنبي .

تعزز الأدلة التاريخية اتصال المتنبي بالقرامطة ؛ فقد كان الشاعر بالكوفة حين تعرضت لهجمات القرامطة ، وقضى سنين في بادية السماوة حيث وجدت القرمطية صدى لآرائها بين قبائل البادية - التي كانت بعيدة عن الاتجاه الديني الرسمي للخلافة ، وقد اضطلعت قبيلة كلب التي ثبت اتصال الشاعر بها بجهد بارز في الدعوة القرمطية[٢٨] ، وفي مصر انتقل الشاعر الى وسط مماثل : حيث كان ابن الفرات وزير كافور الاخشيدي قرمطيا في الخفاء[٢٩] .

وقد وجد بعض الباحثين في سمات شخصية المتنبي دعما لما ذهبوا اليه

---

(٢٨) تاريخ الأمم والملوك . الطبري ٨ : ٢١٤

Massignon. Motanabbi devant le siecle Ismailien. 491.

(٢٩) الوزير جعفر بن الفرات (ابن خنزابة) بن الفضل بن الفرات الذي اتهمه البلاط العباسي بالميل الى القرامطة . الكامل في التاريخ . ابن الأثير ٨ : ٥٠

من دعوى قرمطيته

وقد كان في ميل الشاعر الى الشدة والعنف - الذي يبدو واضحا في شعره - دليل على تأثره بالعنف الذي تميزت به الحركة القرمطية[٣٠] .

وقد تملكت الشاعر نزعة قوية الى السيادة والحكم ، يغلب على الظن أنها كانت سبب سجنه في كلب ، ودافعا وراء رحلته الى كافور الاخشيدي نرى لها صدى في قوله :-

وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا[٣١]

وقد تنبه بعض القدماء الى هذه السمة ، فقال الثعالبي «ومازال في برد صباه الى أن أخلق برد شبابه ، يدور حب الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه في الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف»[٣٢].

وقد ربط أحد الباحثين ذلك بمحاولات القرامطة المستمرة في السيطرة على أقاليم العالم الاسلامي[٣٣] .

ومما عدوه من مظاهر قرمطيته تصرفه في بعض الفرائض[٣٤]، اذ شوهد يصلي العصر ركعتين كعادة القرامطة في اسقاط بعض الفرائض .

ثانيا : الاتجاه الذي ينفي القرمطية عنه :

ان معاصرة الشاعر لهجوم القرامطة على الكوفة ، واطلاعه على حياة هذه الجماعة في البادية تركت في نفسه انطباعات سيئة عن هذه الفئة التي ضج العالم الاسلامي بذكر مساوئها .

---

(٣٠) مع المتنبي . طه حسين ٤٣

(٣١) التبيان ، العكبري ٤ : ٢٩٠

(٣٢) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ٩٣

(٣٣) الظواهر اللغوية . محمد عزت عبد الموجود ٤٦

(٣٤) المتنبي . شفيق جبري ١٣٨

وقد وجد هؤلاء الدارسون في قيم الشاعر ومبادئه - سواء ما اتضح من سيرته أو ما عبر عنه في شعره - تعارضا مع مبادىء القرمطية ، وضربوا مثلا لذلك ، برأي الشاعر في تولي الأصلح للأمر - بغض النظر عن أصله - وذلك مناقض لرأي القرامطة في وراثة الأئمة[٣٥] ، كذلك فان خلقه يأبى عليه ما شاع عن القرامطة من اباحية[٣٦].

ولعل خير مايمثل استنكاره للقرمطية قصيدته التي هجا بها ضبة بن يزيد الكلابي[٣٧]، وقد أقذع الشاعر فيها على نحو لم نر له نظيرا في ديوانه كله ؛ مما قد يشي بالحقد الذي حمله للقرمطية .

أن المتأمل للأدلة التي ساقها الدارسون لاثبات قرمطية الشاعر أو نفيها يرى ان كثيرا منها لايصمد أمام النقد ، وان كان بعضها يتفق مع تاريخ الشاعر وجوانب شخصيته ، فبناء قرمطية الشاعر على اساس بعض الأبيات الحماسية التي وردت في ديوانه - والتي تتفق مع العنف الذي اتسمت به الحركة القرمطية - فيه كثير من التجاوز ، اذ ان مولد الشاعر في الكوفة ، التي كانت على الدوام معقلا للفتن والثورات ، ومعاناته لحياة الصحراء ـ بما اتسمت به من عنف ـ نمى في نفسه روح القوة والعنف .

أما ما روى من أنه عقد ركعتين لصلاة العصر تمشيا مع مبادىء القرمطية في التصرف بالفرائض فيسقطه من الاعتبار جواز قصر الصلاة للمسافر ، بشروط اقرتها الشيعة الامامية المعتدلة[٣٨]، وربما كان المتنبي على سفر .

وحين نتحدث عن صلة الشاعر بالوزير ابن الفرات - التي اتخذها بعض الباحثين دليلا على أن الشاعر لم يفارق البيئة القرمطية حتى مصر -

---

(٣٥) المتنبي والقرمطية . محمد محمد حسين . مجلة كلية الاداب - الاسكندرية . مجلد ١٨ ص ١٥

(٣٦) المصدر نفسه ٤٠

(٣٧) المتنبي والقرمطية . محمد محمد حسين ص ٤٤

(٣٨) المختصر النافع في فقه الامامية . أبو القاسم نجم الدين الحلي ٥٠ - ٥١

فانها تقوم دليلا لا على قرمطية الشاعر بل على نفي القرمطية عنه ؛ اذ أن صلته بابن خنزابة شابها كثير من النفور ، ولم يقبل المتنبي على صحبه الوزير على ما نعرفه من احترامه للعلماء وكان ابن خنزابة جديرا بان ينال تقديره واهتمامه ؛ فهو مقصد الطالبين لرواية الحديث من كل حدب وصوب ، وله تآليف في الرجال والأنساب[٣٩].

وقد روى ان المتنبي مدح ابن الفرات بقصيدة مطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك ان لم يجرِ دمعك أوجرى[٤٠]

فلما غادر مصر مغضباً حولها في مدح ابن العميد .بل أن المتنبي لم يتورع عن التعريض بابن الفرات[٤١].

ولو كان المتنبي يميل الى القرامطة لخص ابن الفرات بخالص وده ، في بلد لم يكن له فيه أصدقاء ولا أنصار .

لقد كان تاريخ الحمدانيين حافلا بالجهاد ضد القرامطة وأعوانهم : بدأه الحسين بن حمدان الذي عهد اليه المكتفي بقتال القرامطة بقيادة الزعيمين القرمطيين يحيى بن زكرويه الملقب بالشيخ ، وأخيه الحسين بن زكرويه الملقب بصاحب الشامة ، وذلك سنة ٢٩٠ و ٢٩٣ ـ ٢٩٤[٤٢].

وقد شارك ابو الهيجاء عبدالله بن حمدان في حرب القرامطة ، حين كان عاملا على الكوفة والسواد وطريق مكة : فقاتل الجيش القرمطي بقيادة أبي طاهر سليمان الجنابي ، وقد اشار المتنبي في مدحه لسيف الدولة الى هذه المعارك بقوله :

القائم الملك الهادي الذي شهدت قيامه وهداه العرب والعجم
ابن المعفر في نجد فوارسها بسيفه وله كوفان والحرم[٤٣]

(٣٩) وفيات الأعيان . ابن خلكان ١ : ٣٠٦
(٤٠) التبيان . العكبري ٢ : ١٦٠
(٤١) الواحدي ٧٠٣ وعند العكبري ١ : ٤٣ (يدرس أنساب أهل العلا)
(٤٢) تاريخ الطبري . ١٠ : ١١٦ - ١٢١
(٤٣) التبيان . العكبري ٤ : ٢٦

وعندما تولى سيف الدولة الحكم كان يدرك خطورة الزحف القرمطي على أمارته ؛ فلم تشغله حرب البيزنطيين عن اعداد الجيش لحرب القرامطة . وعندما بلغه نبأ تزعم القرمطي صاحب الخال لقبائل طيء وكلب في غزو أطراف الشام . وأسرهم لأبي وائل تغلب بن داود نائبه اتجه اليه في جيش كبير فقضى على الداعية القرمطي ، وأدب من سار في ركابه بحرق قراهم ، وكان ذلك سنة ٣٣٦هـ ، والى هذه المعركة أشار المتنبي في قصيدته التي مطلعها :

الام طماعيــة العـاذل ولا رأي في الحب للعاقل[٤٤]

وقد أشار في هذه القصيدة الى تضليل صاحب الخال لهذه القبائل حين نسب نفسه الى العلويين ؛ فاستطاع بذلك كسب ود هذه القبائل التي كانت تميل الى التشيع ، وذلك بقوله :

وجيش أمام على ناقة صحيح الأمامة في الباطل[٤٥]

وهو في قوله «على ناقة» يشير الى ما روى عن زعيم القرامطة الذي عرفته هذه القبائل ، ودانت له بالولاء ، وهو يحيى بن زكرويه ، الذي كان يركب في القتال ناقة يدعى أنها مأمورة ، وأنهم اذا اتبعوها في مسيرها ظفروا بالنصر ، فهي آية على صدق دعوته ، وكان يحيى هذا يزعم لمن تبعه انه اذا أشار بيده الى جهة فيها خصومه أنهزموا[٤٦] وقد ألمح الشاعر الى ذلك بقوله :

واني لأعجب من آمل قتالا بكم على بازل
أقال له الله لاتلقهم بماض على فرس حائل[٤٧]

ولم يفت المتنبي أن يشير الى تضليل القرامطة للناس بادعائهم العلم بالغيب وتلقي الروح ، فهم حاربوا على النوق ؛ لأنهم أمروا بألا يركبوا

---

(٤٤) التبيان . العكبري ٣ : ٢١
(٤٥) المصدر نفسه ٣ : ٢٦
(٤٦) قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع . محمد عبد الفتاح عليان ص ٨٦
(٤٧) التبيان ٣ : ٢٩

فرسا[٤٨]. وقد ذكر المتنبي القرامطة مرة أخرى في قصيدته التي مطلعها :

ضيف ألم برأسي غير محتشم　　والسيف أحسن فعلا منه باللمم[٤٩]

قال له :

لأتركن وجوه الخيل ساهمة　　والحرب أقوم من ساق على قدم

بكل منصلت مازال منتظري　　حتى أدلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة　　ويستحل دم الحجاج في الحرم

وقد نمت هذه الإبيات عن روح تشيع واضحة ، تنطق بالكره لخلافة بني العباس «دولة الخدم» أما قول «شيخ» فقد أحس الشراح بما وراء البيت من تعريض ؛ فقالوا «وهو بالهجاء أشبه» ، وحاول بعضهم التخلص بجعل الشيخ هنا من أسماء السيف ، كقول الشاعر أبي المقدام البصري :

رب شيخ رأيت في فم شيخ　　يضرب المعلمين والأبطالا[٥٠]

وقد عرض المتنبي في الأبيات بالقرامطة ، بذكر ما أسخط جمهور المسلمين على القرامطة ودعوتهم ممثلا في التصرف في الفرائض ، وما أرتكبه القرامطة من اعتداء على الحجاج وسفك دمائهم .

ومهما كان من أمر عقيدته ومذهبه ... فان شعره يكشف عن سماع بالقرامطة ، واتصال بهم ، ومعرفة ببعض أقوالهم ، وتسجيل لها .

ولم يفت المتنبي أن يشير الى بعض المعتقدات التي عرفها العرب ، أو من أتصل بهم من الأمم كالفرس والهنود .

منها ديانة الصابئة : وهي أحدى الديانات التي عرفها العرب قبل الاسلام ، وقيل انها انتشرت بوجه خاص بين عرب الجنوب[٥١]، إذ كان منهم

---

(٤٨) شرح ديوان المتنبي . الواحدي ٤٠٠

(٤٩) التبيان . العكبري ٤ : ٣٤

(٥٠) المصدر نفسه ٤ : ٤٢

(٥١) محاضرات في الفلسفة الاسلامية . يحيى هويدي ٤٤

صابئة مشركون عبدة للكواكب والنجوم ، وقد أشار اليهم القرآن بقوله تعالى : «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون»[٥٢].

والى هذه الديانة أشار المتنبي في قصيدة مدح بها سيف الدولة :

وكيف تقصر عن غاية   وأمك من ليثها مشبل
وقد ولدتك فقال الورى   ألم تكن الشمس لاتنجل
فتباً لدين عبيد النجوم   ومن يدعي انها تعقل
وقد عرفتك فما بالها   تراك تراها فلا تنزل
ولو بتما عند قدريكما   لبت وأعلاكما الأسفل[٥٣]

ويمكن أن نفترض أن تشبيه الشاعر لأم سيف الدولة بالشمس في جلالتها أورد على ذاكرته عبادة الشمس التي كانت ترمز الى الأم ، إلى جانب القمر والزهرة اللذين رمزا الى الأب والدين في ديانة الصابئة ، فاستوحى الشاعر أحد أركان هذا الدين وهو القول بأن الكواكب والنجوم هي مدبرة هذا العالم لكي يثبت للممدوح منزلة تفوق الكواكب والنجوم التي عبدها هؤلاء المشركون مشيراً الى بطلان معتقدهم في عقلانية النجوم ، ولو أنها عاقلة كما وصفوها لنزلت لهذا الممدوح لما عرفت مبلغ ماوصل اليه من مجد وسؤدد .

وقال مرة أخرى مشيراً الى خلود النجوم في معتقدهم :

وقد زعموا ان النجوم خوالد   ولو حاربته ناح فيها الثواكل[٥٤]

وقد ذكر عبادة المجوس للنار عدة مرات في شعره ، من ذلك :

أو كان للنيران ضوء جبينه   عبدت فصار العالمون مجوساً[٥٥]

فقد قدم الشاعر فكرته في إطار صورة استقاها من عبادة المجوس

---

(٥٢) سورة فصلت ٨٣
(٥٣) التبيان . العكبري ٣ : ٧٣
(٥٤) التبيان . العكبري ٣ : ١١٩
(٥٥) التبيان . العكبري ١ : ١٩٩

للنار ، واستعان بها في المبالغة في وصف الممدوح بأشراق الجبين ؛ اذ لو كان للنيران ضياء هذا الجبين ؛ لاستطاع المجوس أن يحولوا العالمين جميعا الى عبدة للنار . وقد كان هذا القول من سلسلة أبيات ذكر فيها عدداً من مأثوراته الدينية (موسى - عيسى - ذو القرنين - المجوس) .

وقال من قصيدة مدح بها سيف الدولة

وفي أكفهم النار التي عبدت قبل المجوس الى ذا اليوم تضطرم[٥٦]

ويمكن القول إن ذكر الحرائق التي أضرمها سيف الدولة في أرض العدو ، فأحالتها الى حمم في البيت الذي سبق ، دعت الى ذاكرته عبادة النار لدى المجوس ؛ فاستعار النار للسيوف لاهلاكها لمن تصيبهم كما تفعل بالنار .

وقال أبو الفتح بن جنى إنه أشار إلى أن هذه السيوف قديمة قدم عبادة النار لدى المجوس ، غير أن وصف السيوف بالقدم ليس مما يثبت لها امتيازا خاصا الا ان يكون الشاعر قد رمى الى ممارستهم للقتال منذ القديم ، وفي ذلك تذكير بأمجاد الحمدانيين السالفة .

وقد توحي هذه الصورة المستعارة من ديانة المجوس بأن هؤلاء قد لزموا سيوفهم لا تفارقهم فكأنهم عابدون لها ، وفي ذلك اشارة الى حبهم للقتال وكثرة معاركهم . وقد تشير الى تقديس الشاعر لمنطق القوة ؛ فجعل السيوف بمنزلة النار التي خضع لها المجوس تعظيما لشأنها ، ويتفق هذا التأويل مع ما عرف عن الشاعر من ميل الى القوة والعنف الذي شاع في شعره وأثر في علاقاته الانسانية .

كذلك أشار الى اباحة المجوس للزواج بالبنات والأخوات في قصيدته التي هجا بها ابن كيغلغ .

لهوى النفوس سريرة لاتعلم عرضا نظرت وخلت أني أسلم
يا أخت معتنق الفوارس في الوغى لأخوك ثم أرق منك وأرحم

---

(٥٦) المصدر نفسه ٤ : ٢٢

يرنو اليك مع العفاف وعنده أن المجوس تصيب فيما تحكم[٥٧]

يبدو للوهلة الأولى ان الشاعر قد اقتبس هذه الفكرة في غزله ليصف من شبب بها بمنتهى الحسن والجمال ، حتى ليود أخوها أن تحل له زوجة ، وأن شكواه المرة من قسوتها ومقارنتها بأخيها تضمنت وصفها بالصون والمنعة .

غير أن ملاحظة جو الهجاء الذي سيطر على القصيدة وما ورد بها من تعريض بأم المهجو قد يحمل على الافتراض بأن هذه الغزلية نوع من الارهاص بالهجاء .

وفي إطار هذا الفرض يمكن أن نقول ان الشاعر قد وجد في هذه الصورة تحقيقا لرغبته في النعي على من ذكر ، اذ ان ذكر العفاف في المصراع الأول يتناقض مع الاقرار بصواب حكم المجوس في الثاني ، وقد يؤيد هذه النظرة البيت الذي سبق حيث ضمن تناقضا أخر بين الوصف بالشجاعة «معتنق الفوارس» وبين وسمه له بالجبن ، حين جعل هذا الأخ يفوق اخته رقة ورحمة .

وقد ذكر المتنبي في إحدى مدائحه لكافور المانوية احدى ملل الفرس التي تؤمن بالثنوية أو القول بالهين أحدهما للنور والآخر للظلمة ، وقد جعلوا النور رمزا للخير وحملوا الظلمة الشرور والآثام[٥٨].

في هذه القصيدة تحدث الشاعر عن مسيره من حلب الى مصر ، فوصف الطريق التي سلكها ، وذكر تستره بالليل لحجبه عن عيون أعدائه حتى تمكن من الخروج إلى مصر ، ولعل ذكر هذه الرحلة وما حف بها من مخاوف حملت الشاعر على تذكر أفضال الليل عنه ، وهنا تداعى إلى خيال الشاعر رأى في الليل ضد لما ذكر وهو قول المانوية بأن الليل مصدر الشرور ، فصدر به حديثه مدللا على كذب مزاعم هؤلاء . قال الشاعر :

ولله سيرى ما أقل تئية عشية شرقي الحد الى وغرب

---

(٥٧) التبيان . العكبري ٤ : ١٢٢

(٥٨) الملل والنحل . الشهرستاني ٢ : ٤٩

عشية أحق الناس بي من جفوته　　وأهدى الطريقين الذي أتجنب
وكم لظلام الليل عندك من يد　　تخبر ان المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء تسري عليهم　　وزارك فيه ذوالدلال المحجب[٥٩]

وقد ذكر الأصفهاني ان الشاعر أشار الى مذهب القائلين بالتناسخ في قوله :

تمتع من سهاد أو رقاد　　ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى　　سوى معنى انتباهك والمنام[٦٠]

والتناسخ من الديانات الهندية القديمة التي تقضي بانتقال الأرواح من جسد لآخر وان مايلقاه المرء في حياته مترتب على ماأسلفته الروح وهي في جسد آخر[٦١]. ولا أرى في هذين البيتين ما يتسع لمثل هذا الرأي الذي ذهب اليه الأصفهاني ، وقد عنى الشاعر بثالث الحالين الموت الذي هو غير النوم واليقظة .

وقد لمح ابن جني الى ما يحتمله قول الشاعر «ولا تأمل كرى تحت الرجام» من أنكار للبعث بعد الموت بذكر نومة القبر التي لا انتباهة بعدها[٦٢]، ويبدو هذا القول متعسفا كسابقه .

ومن هذا المنطلق الذي يفترض تأثر الشاعر بعقيدة التناسخ ؛ فسر بعضهم ايراده لجمع الدنيا «دنا» في البيتين :

أعز مكان في الدنا سرج سابح　　وخيرجليس في الزمان كتاب[٦٣ -]
تتقاصر الأفهام عن ادراكه　　مثل الذي الأفلاك فيه والدنا[٦٤ -]

ونحن لا نستبعد أن يطلع المتنبي على مثل هذا المعتقد الذي عرفه

---

(٥٩) التبيان . العكبري ١ : ١٧٩
(٦٠) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . الأصفهاني ٨ ، التبيان . العكبري ٤ : ١٤٩
(٦١) الملل والنحل . الشهرستاني ٢ : ٥٨
(٦٢) الفتح الوهبي . ابن جني ١٦٠
(٦٣) التبيان . العكبري ١ : ١٩٣
(٦٤) المصدر نفسه ٤ : ٢٠١

العرب من الهند منذ أواخر القرن الأول الهجري ، وقد تأثرت به احدى الفرق التي انبثقت عن الهاشمية[٦٥]، وتردد في شعر بعض الشعراء كالسيد الحميري وغيره ، غير ان تفسير هذا الجمع بهذا الوجه يبدو بعيدا عن الموضوعية ، والأرجح ان الشاعر أراد بها توالي الأجيال من الأمم في هذا العالم .

ولعل قولة ابن جني - عفا الله عنه[٦٦]- محاولة لتبرئة الشاعر مما قد ينسب اليه من أيمان بعقيدة التناسخ التي تكفر بالقيامة ؛ لاعتقادها بأن العقاب يكون في الدنيا في الأجساد التي تنتقل فيها الروح .

وقد أشار الشاعر الى بعض مذاهب الملحدين في قوله :

الا فتى يورد الهندي هامته كيما تزول شكوى الناس والتهم
فانه حجة يؤذي القلوب بها من دينه الدهروالتعطيل والقدم[٦٧]

هذان البيتان من مقطوعة هجا بها الشاعر كافورا الاخشيدي ، ونعى فيها على أهل مصر خضوعهم لهذا العبد الأسود وتوليته أمورهم ، وكأن مصر قد افتقرت الى سيد يلي أمور المسلمين فيها ، ويتساءل الشاعر : هل من فتى تحركه غيرته على الدين في أمته فيقضي على هذا العبد ؛ حتى يبعد عن العقول ماشابها من أوهام وشكوك في حكمة الله الذي يدبر أمور خلقه .

وقد أومأ الشاعر الى رأي الدهرية في انكار وجود خالق لهذا العالم ، وعدم التسليم بما جاءت به الأديان من شرائع وبعث وعقاب ، ولمح إلى محور مذهبهم وهو القول بقدم الدهر وعدم فناء المادة ورد ما يحدث في العالم الى فعل الطبيعة[٦٨]، وقد كانت هذه الصورة كفيلة بايصال الشكوك التي ألمت بالعقول الى الكفر المطلق . وقد تلا الشاعر البيتين بقوله :

ما أقدر الله أن يخزي خليقته ولايصدق قوما في الذي زعموا[٦٩]

---

(٦٥) الملل والنحل . الشهرستاني ٤ : ١٥١
(٦٦) الفتح الوهبي . ابن جني ١٧٠
(٦٧) التبيان . العكبري ٤ : ١٥١
(٦٨) دائرة المعارف الاسلامية (دهرية)
(٦٩) التبيان . العكبري ٤ : ١٥١

وكأن الشاعر قد نصب نفسه كأحد المتكلمين للرد على الدهرية والمعطلة ، وتكذيب مزاعمهم في انكار الخالق بأن ارادة الله قضت أن تمتحن الأمة بمثل هذا الرجل ، وقد كذب الملحدون في زعمهم .

وإذا قرنا هنا البيت ببعض الألفاظ التي لوحظ ان الشاعر قد أوردها في بعض أبياته التي تشير الى هذه المعتقدات كقوله «زعموا - تكذيب - تبا» فاننا نتبين حرص الشاعر على تصدير هذه الآراء من وجهة النظر الأسلامية المنكرة لها ، ولعلها محاولة من الشاعر لدرء خطر التأويلات التي قد تنشأ حول حول هذه الآراء التي ترد في الشعر ، والتي قد تتخذ دليلا يمس سلامة معتقد بعض الشعراء ، ولم يكن المتنبي بما دار حول عقيدته من أقاويل بعيدا عن مثل هذه المزالق .

القرآن :

ونعرض فيما يلي لعنصر اساسي في الثقافة الدينية لشاعرنا هو القرآن . وقد تضافرت عوامل متعددة وجهته لدراسة القرآن والتراث الديني الاسلامي : فنشأة الشاعر الدينية بالكوفة هيأت له علاقة مبكرة بكتاب الله ، وطبيعة تكوينه الفكري كشاعر وهب نفسه لفن النظم وجهته لتمثل أرقى نمط بلاغي في الأساليب العربية ، وقد كان اهتمامه بالنحو واللغة العربية دافعا لحفظ أجزاء كبيرة من القرآن ، كان الشاعر يستند عليها في المناقشات التي دارت بينه وبين من أملى عليهم ديوانه ، وبين من ناظروه في كثير من مسائل النحو واللغة .

وقد رأيناه يستشهد بالقرآن في شرحه لبعض المفردات التي أوردها في شعره[٧٠]، ويحتج ببعض الآيات في ملاحظاته النقدية التي وجهها لشعر غيره ، مثل قوله عن بيت الأعشى :

وهل تنكر الشمس شمس النها
والقمر الواضح الأبرص

---

(٧٠) انظر فصل الثقافة اللغويه ٦٠

إذ أنه عاب على الأعشى لفظ الأبرص قائلا : لو كانت لفظة الأبرص في كتاب الله لكدرت شرب بلاغته ، ولما أراده الله تعالى كنى عنه بقوله «بيضاء من غير سوء»[٧١].

كذلك دللت بعض الملاحظات التي صدرت عنه درايته باختلاف القراءات[٧٢] وقد كان من الطبيعي ممن حفظ القرآن أو أجزاء كبيرة منه ، واطلع على بعض المأثورات الدينية أن تتسلل الى شعره بعض آثار هذا الاطلاع ممثلة في استلهام بعض القصص الديني ، واستمداد بعض الاستعارات القرآنية ، والاستفادة من إيحاء بعض الألفاظ التي وردت في القرآن ، والاستعانة بمعاني بعض الآيات .

١ - القصص الديني :

استوحى المتنبي قصة نوح والطوفان في تصوير كرم ممدوحه قائلا :

لوكنت بحراًلم يكن لك ساحل أوكنت غيثاً ضاق عنك اللوح

وخشيت منك على البلادوأهلها ماكان أنذر قوم نوح نوح[٧٣]

شبه المتنبي ممدوحه في البيت الأول بالغيث والبحر سيرا على الأنماط المألوفة في المدح ، وقد جعل المشبه يفوق المشبه به في العطاء ؛ اذ لاساحل له وقد ضاق عنه الفضاء ، فكان خوف الشاعر على البلاد من الطوفان .

وقد كان انذار نوح لقومه هنا وليد السياق ، اذ كنى به الشاعر عن الطوفان الذي ورد في قوله تعالى : «ان انذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم»[٧٤] فنقل الصورة من العذاب الى الكرم .

ولو لا ما سبق من تشبيه الممدوح بالغيث والبحر لكانت صورة نوح هنا ضرباً من الالجاء ساقته اليه القافية ، كما في ذكر المتنبي لثمود في قوله :

---

(٧١) الرسالة الموضحة . الحاتمي ٨٤

(٧٢) انظر فصل الثقافة اللغوية ٦١

(٧٣) التبيان . العكبري ١ : ٢٥٤

(٧٤) سورة نوح ١

وفي وجود كفيك ماجدت لي بنفسي ولو كنت أشقى ثمود[75]

وقد عرض في مدحه لكافور الاخشيدي لقصة قميص يوسف قائلا :

كأن كل سؤال في مسامعه قميص يوسف في أجفان يعقوب[76]

إذا غزته أعاديه بمسألة فقدغزته بجيش غير مغلوب

استوحى الشاعر قصة يعقوب وقميص يوسف ؛ لكي يعطي صورة لكرم كافور الذي لا يرد سائلا يقصده ، بل أن سؤال طالبي رفده يجلب الفرحة الغامرة الى قلبه ، كفرحة يعقوب بقميص يوسف .

وحين نذكر ما كان يضمره المتنبي من احتقار لكافور يغلب على ظننا انه ضمن البيت تلميحا خفيا الى أن كافورا لم يكن ممن اعتاد الملك والقصاد من الشعراء وغيرهم ، فقدوم هؤلاء عليه يحمل رونق المفاجأة التي حملها قميص يوسف لابيه ، وفيه فخر بنفسه ؛ إذ هو أحد السائلين الذين كان لزيارتهم لكافور صدى عميق أشبه بالفرحة التي غمرت قلب يعقوب .

وقد ذهب بعض شارحي الديوان[77] إلى أن البيت قد تضمن فطنة كافور ودهاءه ، الذي يحول بينه وبين خداع بعض سائليه ، كما خدع يعقوب بالدم الكاذب على قميص يوسف ، وفي ذلك تلميح الى بخل كافور .

أما موسى فقد ذكره الشاعر في عدة مواضع : ذكر انهيار الجبل أمام ناظريه ، وانشقاق البحر له ، ولعنته للسامري .

قال يرثى محمد بن اسحاق التنوخي .

ماكنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدي الرجال تسير

خرجوا به ولكل باك خلفه صعقات موسى يوم دك الطور[78]

صور الشاعر مكانة من يرثيه عند قومه ، فوصف جثمانه على أكتاف

---

(٧٥) التبيان . العكبري ١ : ٣٤٧
(٧٦) المصدر نفسه ١ : ١٧٢
(٧٧) التبيان . العكبري ١ : ١٧٢
(٧٨) المصدر نفسه ٢ : ١٣٠

الرجال كجبل شامخ ؛ لفرط مهابته ، ثم نقل مشاعر مودعيه الى مثواه الأخير : لقد ملك الحزن قلوبهم فخرجوا باكين ، وأخذت الغشية بعضهم لفرط حزنه .

ويمكن القول أن تشبيه النعش بالجبل - وهو من الصور التي تداولها بعض الشعراء كابن الرومي وابن المعتز[٧٩]- قد دعا الى خيال الشاعر حديث موسى والجبل الذي خر صعقا من خشية الله . وقد أعطت هذه الصورة للحدث الذي أصاب قوم المرثي أثراً كبيراً ؛ اذ توحى بان التنوخي كان في قومه كالجبل الراسخ البنيان لا تزعزعه الأحداث والمحن ، فلما جاء القضاء هوى الجبل فكان المصاب جللا .

وقد استمد من قصة السامري في قصيدة مدح بها المغيث بن علي العجلي فقال :

لمن مال تمزقه العطايا ويشرك في رغائبه الأنام
ولاندعوك صاحبه فترضى لأن بصحبة يجب الذمام
تحايده كأنك سامري تصافحه يد فيها جذام[٨٠]

استمد المتنبي من قصة السامري للتمثيل عن قلة اكتراث ممدوحه بما ملك اذ سخره للعطايا والهبات ولم يحرص على اكتناز ماله ؛ كأنما هو نافر منه ، أو كأن المال سيجلب له وباء يهلكه .

ولعل المتنبي لم يكن موفقا في استيحاء قصة السامري في مدحه لكرم صاحبه ؛ لارتباط السامري في القرآن بايحاءات تنفر منها النفوس كلعنة موسى له ، ووحشته ، ونفور الناس منه ، ثم خوفه من أن يمسه أحد ، مما أوجزه القرآن على لسان موسى : «ان لك في الحياة أن تقول لا مساس».[٨١]

اما انشقاق البحر لموسى فقد ذكره في قصيدة مدح بها محمد بن زريق

---

(٧٩) المصدر نفسه ٢ : ١٢٩

(٨٠) التبيان . العكبري ٤ : ٧٩

(٨١) سورة طه ٩٤

الطرطوسي فقال :

أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى[٨٢]

وقد تواتر لشعراء على التشبيه بالبحر في الكرم ، وحفلت دواوينهم بشتى الصور التي دارت حول هذا المحور . أما المتنبي ، فقد استمد التصوير القرآني لانشقاق البحر لموسى ليثبت صفة الكرم لممدوحه ، وقد قادته هذه المبالغة الى تجاوز هذه المعجزة ؛ إذ ان فيض عطاء الممدوح قد قادته هذه المبالغة الى تجاوز هذه المعجزة ؛ إذ ان فيض عطاء الممدوح قد عم الجميع دون تمييز ، أما البحر فقد اغرق بعض القوم ونجى موسى ومن معه من الهلك .

ومن القصص الذي ذكره قصة ذي القرنين ، الذي يمثل شخصية حظيت بارادة صلبة ، الى جانب ما زودت به من عطاء الهي ، قال تعالى : «انا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا»[٨٣] واستطاع بذلك ان يطوي الأرض حتى بلغ أرض الظلمات وأن يبني سدا منيعا ، حال بين المؤمنين وبين من افسدوا من قوم ياجوج وماجوج ، وقد استمد صورة السد من قصة ذي القرنين في قوله :

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها كأني بني الاسكندر السد من عزمي[٨٤]

وقد أشار في المصراع الأول الى كثرة تنقلاته واسفاره التي اكسبته خبرة واسعة بالأرض ومجاهلها ، حتى صارت له بساطا سار عليه بثقة العارف بمسالكها ، وقد أعانه على ذلك ارادة صلبة كالحديد ، كأنما قدّ منها سد ذي القرنين ، الذي وصفه القرآن بقوله «فما استطاعوا أن يظهروه وما أستطاعوا له نقبا»[٨٥]

ويبدو أن الشاعر قد استطاع استيعاب احداث قصة ذي القرنين في البيت باشارته الى طية للأرض في المصراع الأول ، وبنائه للسد في الثاني .

---

(٨٢) التبيان . العكبري ٢ : ١٩٩
(٨٣) سورة الكهف ٨٣
(٨٤) التبيان : العكبري ٤ : ٥٢
(٨٥) سورة الكهف ٩٧

وقال في موضع آخر :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما رأى الظلمات صرن شموسا[٨٦]

ويمكن القول ان وراء استيحاء المتنبي لقصة ذي القرنين هنا عنصرين :

الأول : أحداث قصة ذي القرنين ، الذي طوى الأرض حتى بلغ ارض الظلمات .

الثاني : الاستعمال المجازي للفعل نور ، نحو (نور الأمر : بينه ، لا تستضيء بنار فلان لا تستشره)[٨٧] وارتباط الرأي بالنار أو النور الذي يناقض الظلمة .

وقد اشار الشاعر الى صنعة الدروع التي عملها الله لداود في قوله :

قواض مواض نسج داود عندها إذا وقعت فيه كنسج الخدرنق[٨٨]

وقوله :

مفرشي صهوة الجواد ولكن قيصى مسرودة من حديد

لأمة فاضة أضاة دلاص احكمت نسجها يدا داود[٨٩]

في البيت الأول وصف الشاعر رماحه الحادة الماضية ، التي تقضي على امتن الدروع ؛ إذ تستحيل ازاء ضرباتها إلى نسيج عنكبوت ، يضرب به المثل وهي نسجه قال تعالى : «كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت»[٩٠].

أما في الثاني ، فقد وصف درعه بإحكام الصنعة والصفاء واللمعان ، وجعلها في مصاف الدروع التي صنعها داود ، في متانتها التي تكفل لصاحبها السلامة والنجاة من طعنات الأعداء .

ويمكن القول إن المتأمل لمفردات هذه الأبيات يلمح إلحاح الشاعر

---

(٨٦) التبيان : العكبري ٢ : ١٩٨

(٨٧) أساس البلاغة . الزمخشري ٢ : ٤٨٠

(٨٨) التبيان . العكبري ٢ : ٣٠٩

(٨٩) المصدر نفسه ١ : ٣١٩ - ٣٢٠

(٩٠) سورة العنكبوت ٤١

على لفظ نسج ، حيث أورده في تركيبين إضافيين في البيت الأول : (نسج داود - نسج الخدرنق) ، وأورده في البيت الثاني إلى جانب مرادفه (مسرودة)[٩١] ؛ مما ينم عن استيحاء الشاعر لحديث القرآن عن النبي داود وصنعة الدروع «وألنا له الحديد ان اعمل سابغات وقدر في السرد»[٩٢] «وعلمناه صنعة لبوس لكم»[٩٣] سواء بذكر التقدير في السرد أو قوله تعالى «لبوس» ، إلى جانب ماقيل عن ان داود أول من صنع الدروع ، وكان قبل ذلك صفائح .

وقد عرض لذكر النبي سليمان في قصيدته التي مدح بها عضد الدولة البويهي قال :

مغاني الشعب طيبا في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان[٩٤]

فقد حاول المتنبي في وصفه لشعب بوان أن يسبغ عليه من الأوصاف ما لم يؤلف في وصف مثله من الأماكن ، فسلك مسلك العرب في الاسناد الى الجن اذا قصدوا المبالغة في وصف بعض الظواهر ، ويبدو ان ذكر علم الجن في هذا البيت بالاضافة إلى حديث الشاعر في البيت السابق عن الغربة التي أحس بها بين قوم أعاجم لا يعرف لغتهم قد أورد على خياله ذكر النبي سليمان ، الذي خص بمعجزتين دون البشر جميعا ، وهما تسخير الجن له ، وعلمه بلغة الطير .

وقد يكون اعجابه بما حفل به الشعب من عجائب الطيور قد ساقه الى تقديم النبي سليمان في صورة العاجز عن فهم لغة الطيور ، مع علمه بلغة الطير .

ويمكن القول ان إستيحاء حديث سليمان وذكر الجن قد أضاف الى

---

(٩١) لسان العرب (سرد)
(٩٢) سورة سبأ ١٠ - ١١
(٩٣) سورة الانبياء ٨٠
(٩٤) التبيان . العكبري ٤ : ٢٥٢

وصف الشعب قدرا ليس باليسير من العظمة والأبهة التي ترضي ممدوحه الفارسي ، مع ما عرف عن الفرس من ميل الى مظاهر الترف والنعيم .

وقد جعل شعب بوان جنة في القصيدة نفسها حيث قال :-

أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان[٩٥]

وقد طاب هذا المكان للشاعر حتى غدا الرحيل عنه ضربا من المعصية التي سنها آدم ، وكانت علة خروجه من الجنة .

وقد أوحت هذه الصورة بلهفة الشاعر للقاء عضد الدولة البويهي ، فلم يحل المكان على جماله الذي قارب وصف الجنان دون مفارقة الشاعر له فاستحق بذلك هذا الاستفهام الانكاري الذي أورده على لسان فرسه في بيت سابق :

يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يسار الى الطعان[٩٦]

وقد أشار في موضع اخر الى اتساع ملك سليمان بقوله :

من يزره يزر سليمان في الملك جلالا ويوسفا في الجمال[٩٧]

فاستعار لممدوحه عبدالرحمن الانطاكي صورة سليمان في سعة ملكه ، ذلك الملك الذي منحه القرآن صورة فريدة لا ينبغي أن تتكرر لأحد من بعده ، وانتقل عن هذه الصورة الى صورة فريدة اخرى اتخذها من اسرائيلي آخر ، هي صورة يوسف في حسنه .

وقد شغلت المأثورات المسيحية جانبا واضحا في الصور التي استقاها الشاعر من القرآن ولعل الحروب المستمرة بين سيف الدولة والدولة البيزنطية قد أثارت في خيال الشاعر كثيراً من آرائها ، وقد تطرق في شعره الى : دعوة المسيح لبني اسرائيل ، وادعاء المسيحية لبنوة المسيح لله ، وحديث صلب المسيح ، ثم معجزات عيسى ؛ كشفاء المرضى ، واحياء الموتى .

---

(٩٥) التبيان . العكبري ٤ : ٢٥٦

(٩٦) المصدر نفسه ٤ : ٢٥٥

(٩٧) المصدر نفسه ٣ : ١٩٥

قال المتنبي :

ما مقامي بأرض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود[٩٨]

يمكن ان نقول ان استمداد المتنبي لصورة المسيح بين اليهود قد أعطت البيت إيحاءات متعددة ، فهو يقدم لنا صورة الاغتراب الذي أحس به الشاعر في أرض نخلة ، ويؤيد ذلك تقديم الشاعر لصورة مماثلة في البيت الذي تلاه ، قال :

أنا في أمة تداركها الـ ـله غريب كصالح في ثمود[٩٩]

ويتضمن البيت الاشارة الى ما لحقه من أذى مثل ما أوذي المسيح ، ويتفق ذلك مع ما نقل المؤرخون من أخبار سجنه وتعذيبه .

وقد وجد بعض الباحثين في تشبيه الشاعر نفسه بالمسيح في البيت تأكيدا لدعوى النبوة التي روج لها بعض المؤرخين ، والتي عدوها سبب سجنه ، ونحن لا نستبعد أن يشبه المتنبي نفسه بالمسيح ، مع ما نعرفه من غلوه في مدح غيره ، وان كنا نرى رأيهم في ادعاء النبوة ، على اننا لو استبعدنا التشبه بالمسيح في المسيح في النبوة فان استمداد هاتين الصورتين (المسيح - صالح) يحمل الكثير من الاحساس بالتفوق والتعالي على الغير .

وقال مشيرا الى ادعاء النبوة الذي أشار اليه القرآن بقوله «وقالت النصارى المسيح ابن الله»[١٠٠] فقال :

أرى المسلمين مع المشركين إما لعجز وإما رهب

وأنت مع الله في جانب قليل الرقاد كثير التعب

كأنك وحدك وحدته ودان البرية بابن وأب[١٠١]

وقد ضمن الأبيات مدح سيف الدولة لوقوفه في وجه العدوان

---

(٩٨) التبيان . العكبري ١ : ٣١٩

(٩٩) المصدر نفسه ١ : ٣٢٤

(١٠٠) سورة التوبة ٣٠

(١٠١) التبيان . العكبري ١ : ١٠٤

البيزنطي المسيحي ، ووصف تقاعس غيره من الممالك كالبويهيين والاخشيديين عجزا ورهبة عن هذا الجهاد الذي خاضه سيف الدولة لحماية المسلمين ونصرة الدين ، وكأن الشاعر لم يجد سببا يقعد هؤلاء عن جهاد البيزنطيين الا ان يكونوا شركاء لهم في اعتقادهم وايمانهم بالأب والابن .

ويقول في القصيدة نفسها :

ويستغفران الذي يعبدان وعندهما أنه قد صلب
ويدفع ما ناله عنهما فيا للرجال لهذا العجب[١٠٢]

فقد سخر من ملك الروم وقائده اللذين استنصرا المسيح ليدفع عنهما الهزيمة التي ألحقها بهم سيف الدولة مع ايمانهم بأن اليهود قد صلبته ، وعجب لهما كيف يطلبان العون ممن لم يملك دفع الهلاك عن نفسه ، وقد عبر بذلك عن رأي الاسلام في رأي المسيحيين حول نهاية المسيح ، الذي أوجزه القرآن بقوله : «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم»[١٠٣].

واستوحى في شعره المعجزات التي منحها الله لعيسى عليه السلام : من شفاء المرضى ، واحياء الموتى . فقال :

تيممني وكيلك مادحا لي وأنشدني من الشعر الغريبا
فآجرك الاله على عليل بعثت الى المسيح به طبيبا[١٠٤]

أراد الشاعر الذي قصد المتنبي أن يفاخر بشعره الغث الرديء شاعرا ملك ناصية النظم ، فحاله كمن أرسل من يداوي المسيح ، وهو الذي وهبه الله القدرة على شفاء المرضى واحياء الموتى .

ولعل المتنبي كان يرمز هنا الى الموهبة الشعرية التي حظي بها دون سواه ، فلا مكان لمثل هذا الشويعر بجانبه ، فاستحياء صورة المسيح هنا حددت مكانة الشاعر بين غيره من الشعراء ؛ اذ لا مجال للمقارنة بين اقتدار

---

(١٠٢) المصدر نفسه ١ : ١٠٣
(١٠٣) سورة النساء ١٥٦
(١٠٤) التبيان . العكبري ١ : ١٤٥

النبي المرسل وسائر الناس .

وقد ذكر قصة عزير أحياه الله لعيسى في موضعين من شعره ، قال في أحدهما :

كفل الثناء له برد حياته   لما انطوى فكأنه منشور
وكأنما عيسى بن مريم ذكره   وكأن عازر شخصه المقبور[١٠٥]

فقد استوحى الشاعر قصة عزير ، الذي تمثل فكرة البعث بعد الموت ، للتنويه بفضائل المرثى ومكارمه التي أبقت ذكره حيا على الألسنة بعد مماته ، فشبه ماصيغ حول المرثى من ثناء بعيسى الذي أحيا عازر بعد أن قبر .

وقد استوحى الشاعر هذه الصورة للتمثيل على المعنى الذي ورد في صورة البيت الأول لمزيد من التوضيح أو الأبانة .

وقال في موضع آخر :

أو كان صادف رأس عازر سيفه   في يوم معركة لأعيا عيسى[١٠٦]

ونلاحظ هنا ان المبالغة في وصف شجاعة الممدوح هي التي قادت الشاعر الى هذه الصورة ، التي قد توحي بجعل قدرة الخلق او البعث عاجزة عن رد الروح الى عازر ، إن كان قد قتل بسيف الممدوح .

وقد عاب ابن وكيع التنيسي هذه المبالغة ، ونبه على الخطأ الذي وقع فيه الشاعر بإيراده لهذه الصورة ، اذ لم يكن عزير مضروب العنق ، وانما كان ميتاً أحياه الله لعيسى[١٠٧] ، وقد ارتبط ذلك بمفهوم هؤلاء النقاد للصدق الفني ، ومدى حرية الشاعر في اطلاق العنان لخياله للتصرف في موروثه الثقافي وتوجيهه وفقا لتجربته الشعرية . وقال يذكر الحواريين من قصيدة انشأها بعد هزيمة مني بها سيف الدولة بالقرب من ثغر الحدث . قال :

---

(١٠٥) المصدر نفسه ٢ : ١٣١

(١٠٦) التبيان . العكبري ٢ : ١٩٨

(١٠٧) المنصف . ابن وكيع (خ - ٦٩ أ)

ولو رآه حواريوهم لبنو على محبته الشرع الذي شرعوا[108]

فقد تحدث عن عدل سيف الدولة في هذه الحرب التي خاضها ضد الدمستق ، حتى لوان حوارييهم الذين يؤمنون بهم رأوه لأيدوه وناصروه ، وبنوا على حبه شريعتهم .

فكأن الشاعر هنا ضمن البيت سخريته بالبيزنطيين لحربهم لمن عرف بنصره .. لله ودينه ، قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم الحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله »[109] فمن اقر بعدله الحواريون ، مع ما عرفوا به من انتصار لمعاني الحق والعدل ، جدير بأن يقر بعدله من آمن بشريعة هؤلاء الحواريين .

وقد استطاع الشاعر أن يفيد من الايحاء الذي يعطيه لفظ الحواريين الذي ارتبط بهذه المعاني في ابراز عدل سيف الدولة ، وانه احق بالنصر من سواه من الروم وقادتهم .

وتطرق الشاعر الى ما يتصل ببني الاسلام وسيرته وأخباره ، مما جاء له ذكر في القرآن : من ذلك معجزة الاسراء والمعراج ، التي التقط منها الشاعر خبر البراق وأشار اليه بقوله :

ما رآها مكذب الرسل الا صدق القول في صفات البراق[110]

فاستمد في وصفه لفرسه صفات البراق التي اضفت على الفرس صفات مثالية في السرعة والنشاط ، ولو لم تكن كذلك لما اتخذت دليلا على صدق المعجزات لدى المكذبين بالرسل ، هذا الى جانب ما توحي به هذه الصورة من ان الممدوح قد بلغ درجة من السمو حتى خص بفرس كالبراق ، شأنه في ذلك شأن الرسل والأنبياء .

ويمكن القول ان هذه الاشارات التي ارتبطت بالقصص الديني هي في

---

١٠٨) التبيان . العكبري ٢ : ٢٢٥

١٠٩) سورة الصف ١٤

١١٠) التبيان . العكبري ٢ : ٣٦٦

قصائد الصبا والشاميات اكثر ظهورا من قصائد في السيفيات وما بعدها ، وقد يقع في تكرار بعض هذه القصص في اكثر من قصيدة ، ولكنه ينوع في الغالب استخدامه لهذه القصة أو تلك . هذا الى جانب ذكره لعدة اشارات في قصيدة واحدة ويبدو ذلك بوضوح في شعره المتقدم .

ويختلف معرض هذه المادة الثقافية الدينية - ان جاز التعبير - من قصيدة لأخرى ويلاحظ ان هذه القصص تبدو في القصائد المتقدمة مقحمة على السياق في الغالب ، وقد يعمد الشاعر الى بناء صورة اعتمادا على هذه المأثورات ، ونضرب مثلا لذلك بأبياته في مدح محمد بن زريق الطرسوسي من قصيدة مطلعها :

هذي برزت لنا فهجت رسيسا   ثم انثنيت وما شفيت نسيسا[111]
لو كان ذو القرنين أعمل رأيه   لما أتى الظلمات صرن شموسا[112]
أو كان صادف رأس عازر سيفه   في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه   ما انشق حتى جاز فيه موسى

اذ أنه استخدم هذه الاشارات في تقديم صورة عن حكمة ممدوحه وكرمه وشجاعته ، أما في شعره المتأخر فتبدو هذه الاشارات ابنة للسياق الذي وردت فيه ، وتؤدي دورها - في الغالب - في اغنائه بكثير من الايحاءات ، وخير مثال لذلك قوله في مدح عضد الدولة :

ملاعب جنة لو سار فيها   سليمان لسار بترجمان[113]

وقد استخدم الشاعر هذا القصص الديني لاثراء صوره بضرب من التوضيح والتحسين والتقبيح وضرب المثل عليها ، وان كانت ترد في بعض الأحيان لغير ما سبب سوى اتمام البيت ، وايقاع القافية المطلوبة .

٢ - وقد تجلى تأثره بالقرآن في استمداده لبعض استعاراته ، وافادته من ايحاء بعض ألفاظه ، ومن أمثله تأثره باستعارات القرآن قوله :

---

(١١١) التبيان . العكبري ٢ : ١٩٣
(١١٢) المصدر نفسه ٢ : ١٩٨ - ١٩٩
(١١٣) المصدر نفسه ٤ : ٢٥٢

وضاقت الأرض حتى كأن هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا[114]

فقد استعار الفعل ضاق للأرض مستوحيا في ذلك قوله تعالى يصف المسلمين في حنين ، حين استبد بهم الخوف «وضاقت الأرض عليهم بما رحبت»[115].

وقد قدم في الشطر الثاني صورة للوهم الذي ولجه هؤلاء الفارين ، حتى ليصور لهم مطاردا في كل مكان . وبذلك أكد الاستعمال المجازي للفعل ضاق ، كما ورد في القرآن . ومن ذلك قوله في مدح كافور :

وبأيامه التي انسلخت عنه وما داره سوى الهيجاء[116]

حيث تعمد الاستخدام المجازي للفعل انسلخ في قوله تعالى : «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار»[117] «فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين»[118] ومثله في قول لبيد :-

حتى اذا سلخا جمادى ستة جزءا فطال صيامه وصيامها[119]

وقوله كذلك :

أقر جلدي بها علىّ فلا أقدر حتى المهات اجحدها[120]

حيث استعار للجلد الفعل أقر ، كما استعيرت الشهادة للجلود في القرآن في قوله تعالى : «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا»[121] أي أن جلده يعترف بنعم الممدوح ، كما تعترف الجلود يوم القيامة بالذنوب ، وتقربما اقترفوه

(١١٤) التبيان . العكبري ٣ : ١٦٨
(١١٥) سورة التوبة ٢٥ - ٢٦
(١١٦) التبيان . العكبري ١ : ٣٣
(١١٧) سورة يس ٣٧
(١١٨) سورة التوبة ٥
(١١٩) ديوان لبيد ٣٠٥
(١٢٠) التبيان . العكبري ١ : ٣١٢ ، الوساطة . الجرجاني ٣١٠
(١٢١) سورة فصلت ٢١

من آثام .

وقد يستلهم بعض الآيات مستفيدا من الايحاء الذي تمنحه بعض ألفاظها لصوره ، نحو قوله :-

تبارى نجوم القذف في كل ليلة ... نجوم له منهن ورد وأدهم[(١٢٢)]

ولعل أول ما يلفت النظر هنا التركيب الاضافي (نجوم القذف) الذي نلمح فيه أثر قوله تعالى : «انا زينا السماء بزينة الكواكب ، حفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا»[(١٢٣)] .

فقد شبه الخيل في سرعتها وقطعها للأرض بالنجوم ، ولكن اضافة القذف حمل الصورة سمات أخرى ، تضاف الى القوة المعهودة في خيل الحرب ؛ مثل الانقضاض على الاعداء ، وتطهير الأرض من جيوشهم التي تعيث فيها فسادا ، كما تفعل النجوم بالشياطين ، اذ تقصيهم بعيدا عن السماء بدليل قوله «دحورا»

وقد أسهم اللفظ الذي استمده من القرآن في إعطاء صورة الخيل في المعركة ، عنصر الحركة والايجابية في القتال .

وفي مقام الرثاء ، أراد المتنبي أن يسبغ على المرثى صفات خاصة ؛ فاستعار من القرآن وصف الجنة التي وعد بها الصالحون ، وما بها من حور عين في نحو قوله «وزوجناهم بحور عين»[(١٢٤)] وقوله «وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون»[(١٢٥)] وقدم في البيت لفظ (الحور) الذي ارتبط بحسن الجزاء في الجنة فقال :-

يبكي عليه وما استقر قراره ... في اللحد حتى صافحته الحور[(١٢٦)]

ومن ذلك قوله :

---

(١٢٢) التبيان . العكبري ٣ : ٣٥٣
(١٢٣) سورة الصافات ٨
(١٢٤) سورة الطور ٢٠
(١٢٥) سورة الواقعة ٢٢ - ٢٣
(١٢٦) التبيان . العكبري ٢ : ١٣٢

إلى سيد لو بشر الله أمة بغير نبي بشرتنا به الرسل(١٣٧)

لارتباط التبشير في القرآن بذكر الأنبياء في نحو قوله «انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا» «فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»(١٣٨).

ومثله ذكر الشاعر لحواريي المسيح قوله :

ولو رآهم حواريوهم لبنوا على محبته الشرع الذي شرعوا(١٣٩)

وقد يقتبس بعض الصور القرآنية نحو قوله :

يرى حده غامضات القلوب اذا كنت في هبوة لا أراني(١٣٠)

فقد وصف تكاثف الغبار في المعركة ، مستنيرا بالتصوير القرآني للظلمة الحالكة التي تحول دون رؤية المرء ليده الممتدة أمام ناظريه في قوله تعالى «اذا أخرج يده لم يكد يراها»(١٣١) . وقد استمد هذه الصورة ، ليؤكد ما وصف به سيفه ؛ من اصابة الهدف التي عبر عنها في استعارة (يرى) للسيف .

وقد يستمد بعض المعاني القرآنية فيقدمها في صورة جديدة . فعندما شبه القرآن أناساً لم ينتفعوا بما ميزهم به الخالق عن سائر المخلوقات ، بأنهم كالأنعام في قوله تعالى «ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا»(١٣٢) استمد التشبيه القرآني ، ومثل له معتمدا على الاستخدام اللغوي لأسماء الاستفهام للعاقل وغير العاقل في قوله :

حولي بكل مكان منهم خلق تخطى اذا جئت في استفهامها بمن(١٣٣)

ومن دلائل تأثره بالقرآن استمداده لبعض امثاله نحو قوله :

دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت مني كحبل الوريد(١٣٤)

---

(١٢٧) المصدر نفسه ٣ : ١٨٥
(١٢٨) سورة فاطر ٢٤ ، سورة البقرة ٢١٣
(١٢٩) التبيان . العكبري ٢ : ٢٢٥
(١٣٠) التبيان . العكبري ٤ : ١٩١
(١٣١) سورة النور ٤٠
(١٣٢) سورة الفرقان ٤٤
(١٣٣) التبيان . العكبري ٤ : ٢١٠
(١٣٤) المصدر نفسه ١ : ٣٤٦

حيث اقتبس المثل الذي ورد في قوله تعالى «ونحن اقرب اليه من حبل الوريد»[١٣٥] .

واستلهامه لمعاني بعض الآيات القرآنية ، يحمله على الاحتفاظ ببعض الفاظها أحيانا كما في نحو قوله :-

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب[١٣٦]

الذي يبدو من ثناياه أثر قوله تعالى «أتهلكنا بما فعل السفهاء منا»[١٣٧] .

التصوف :

عاصر المتنبي فترة مزدهرة من تاريخ التصوف الاسلامي أوائل القرن الرابع الهجري ، حيث انتشرت الصوفية في انحاء العالم الاسلامي ، وانتظموا طوائف وجماعات ، وأصبح لهم مريدون وأنصار[١٣٨] ، واستطاع كثير منهم التعبير عن تأملاتهم ومواجيدهم في أشعارهم التي تعد من دواعي ازدهار التصوف وانتشاره .

والى جانب هؤلاء الصوفية الذين قصروا أشعارهم على التصوف وموضوعاته ، ظهر أثر التصوف في شعر بعض الشعراء ممن يميلون اليه ، أو ممن أعجبتهم أساليبه ، وظهر أثرها في انتاجهم الشعري[١٣٩] .

ولعل الصوفية من أبرز الجماعات التي تحدث المؤرخون والنقاد عن اثرها في شعر المتنبي ، وخص سعد بن محمد الأزدي (ت٣٨٠هـ)بالذكر طائفة من متصوفة الشام ، اطلق عليهم اسم عين الجمع[١٤٠] ، وقد عزز حديث الشراح والنقاد عن امتثال المتنبي لأساليب المتصوفة هذا الرأي الى حد كبير . نرى ذلك عند ابن جني الذي أكد ذلك بقوله : «وكثيرا ما يسلك طريقة

---

(١٣٥) سورة ق ١٦

(١٣٦) التبيان . العكبري ١ : ٨١

(١٣٧) سورة الأعراف ١٥٥

(١٣٨) الحياة الروحية في الاسلام - محمد مصطفى حلمي ١٠٨

(١٣٩) تاريخ التصوف في الاسلام . قاسم غني . ترجمة صادق نشأت . ٥٣٣ وما بعدها .

(١٤٠) تاريخ النقد عند العرب . احسان عباس ٢٩٢ عن (شرح ابن جني خ : ٣ : ٢١٧)

المتصوفة»[١٤١] ونراه لدى الحاتمي ، والصاحب بن عباد من معاصريه ، ولدى الثعالبي الذي خصص فصلا في اليتيمة للحديث عن امتثال الشاعر لأساليب المتصوفة ، كما أشار الى ذلك ابن وكيع التنيسي والعميدي .

لقد كان حديث النقاد عن هذا الأثر الثقافي في شعر المتنبي ، في إطار العيوب التي رأوا فيها خروجا على عمود الشعر ، وتقاليده الموروثة ، وإذا تأملنا النماذج التي ساقوها للتدليل على وجهة النظر هذه ، نلاحظ انها تندرج في ظاهرتين :

اولا : امتثال الشاعر للصوفية في اصطناع الأسلوب الرمزي في التعبير عن مواجيدهم ، لضيق اللغة عن استيعاب أفكارهم ، أو ضنا بها على غير خاصتهم ، أو خشية ماقد يلحقهم من أذى رجال الدين والفقهاء الذين وجدوا في بعض ارائهم - خاصة ما تأثروا فيه بالفلسفة - خروجا على الدين ، فكان الرمز وسيلتهم في التعبير ؛ مما أكسب اشعارهم طابعا مميزا . واعتمدوا على عدد من المصطلحات الخاصة بهم في التعبير عن انفسهم[١٤٢] وقد اقتبس الشاعر بعض المصطلحات ، ولعل صحبته لهذه الطائفه قد اجرت ألفاظها على لسانه .

ثانيا : وإلى جانب مصطلحات التصوف وشاراته فقد ألحق غموض الفكرة في شعر الصوفية بأشعارهم بعض السمات الخاصة نحو الاكثار من الأدوات .

وعندما نتأمل شعر المتنبي ، في ضوء هذا الاتجاه الذي لمحناه في نقد القدامى ، وبعض شعره الذي لمحنا فيه سمات صوفية ، ونقارنه ببعض شعر المتصوفة نحو الحلاج ، والجنيد ، والشبلي وغيرهم ، نجد أن هذا المنحى الصوفي يبدو واضحا الى حد كبير .

---

(١٤١) النظام في شرح ديواني المتنبي وأبي تمام . ابن المستوفي (خ ٢ : ١٨٠ ب)
(١٤٢) انظر الحياة الروحية في الاسلام . محمد مصطفى حلمي ٥٨ ، التصوف الثورة الروحية في الاسلام . أبو العلا عفيفي ص ٢٥٠

نرى في بعض أبيات المتنبي صدى لنظرية الحلول أو الاتحاد التي ظهرت في القرن الثالث الهجري ، وعبر عنها الحلاج بقوله : «إن اللاهوت والناسوت أو الرب والعبد شيئان متمايزان في ذاتهما وحقيقتهما ، ولكن اللاهوت يمكن أن يتحد بالناسوت ، إذا بلغ هذا الأخير درجة خاصة من الفناء والصفاء الروحي»[١٤٣] وقد عبر المتنبي عن الحلول بقوله :-

يا أيها الملك المصفى جوهرا   من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتيه   فتكاد تعلم علم مالن يعلما
ويهم منك اذا نطقت فصاحة   من كل عضو فيك أن يتكلما[١٤٤]

وقد ذكر في البيت الثاني النور اللاهوتي وهو عندهم «النور الالهي الذي لايشاهد بالرأس بل يشاهد بعين القلب ... وهذا النور الذي يسطع بقلب العارف ، يوصله الى معرفة الحقيقة المختفية في عالم الغيب»[١٤٥] فجعله الشاعر ظاهرا لدى الممدوح حتى كاد يبلغ علم الغيب «فتكاد تعلم علم مالن يعلما» .

وقد صور في البيت الثالث نور الذات الالهية ، عندما يتجلى في بعض الناس وقد عبر عنه الحلاج بقوله :

لأنوار نور النور في الخلق أنوار   وللسر في سر المسرين أسرار[١٤٦]

وقد يدفعه المدح الى إحلال الممدوحين في مراتب خاصة ، وضعها الصوفية نحو قوله :

ذا السراج المنير هذا النقي الجيب هذا بقية الأبدال
فخذا ماء رجله وانضحا في المدن تأمن بوائق الزلزال
وامسحا ثوبه البقير على دائكما تشفيا من الأعلال[١٤٧]

---

(١٤٣) ابن الفارض والحب الالهي . محمد مصطفى حلمي ٣١٢
(١٤٤) التبيان . العكبري ٤ : ٣٠
(١٤٥) تاريخ التصوف في الاسلام . قاسم غني ، ترجمة صادق نشأت ٥٢٦
(١٤٦) ديوان الحلاج ٣٢
(١٤٧) التبيان . العكبري ٣ : ١٩٦

لقد أطلق الشاعر على الممدوح صفة بقية الأبدال ، وهم من أولياء الصوفية المصطفين ، وقيل : عددهم أربعون رجلا ، ومن ثم فقد جعله في مقام القدسية والتقرب الى الخالق ، وجعل آيته اتيانه بالكرامات ، وخوارق العادات التي يتقبلها العقل الصوفي الذي لايعترف بالنواميس الطبيعية . ومن الكرامات التي أضفاها عليه بركته التي تمنع الخراب والدمار الذي يحدثه الزلزال في المدن ، ومعالجته للمرضى بمس ثوبه الطاهر المبارك .

وعلى هذا النمط من الفكر الصوفي نراه يذكر الخضر في قوله :

اذا ماذكرنا جوده كان حاضرا   نأى أو دنا يسعى على قدم الخضر[148]

يمكن القول ان الشاعر بتقديمه لهذه الصورة ، كان يرمي الى تشبيه الممدوح بالخضر لما اشتملت عليه هذه الشخصية من معاني الامتياز ، كالعلم الالهي وهداية الأنبياء[149] .

فاذا أضفنا الى هذا وجود الخضر في كل مكان ، وحضوره الخارق للعادة لدى بعض الصوفية ، الذين وجدوا في قصة الخضر دليلا على أنه لاينبغي قياس أعمال الأولياء بالمقاييس المتعارف عليها ، ومن ثم فقد كانت هذه الشخصية ، رمزا للتفوق على سائر الناس ، والتميز بالكرامات ، وخوارق العادات ؛ فوجد فيها المتنبي خير ما يصف به ممدوحه بكثرة العطاء في كل آونة ، لايحول دون ذلك غياب أو حضور .

وإذا استعرضنا مصطلحات الصوفية ، التي ذكر النقاد أنها تسربت إلى أسلوب المتنبي قصدا أو عن غير قصد نرى منها : مصطلح الكشف :ـ

ولما فقدنا مثله دام كشفنا   عليه فدام الفقد وانكشف الكشف[150]

الكشف في اللغة رفع الحجاب[151] ، فقد مدح المتنبي القاضي المالكي

---

(١٤٨) التبيان . العكبري ٢ : ١٣٧

(١٤٩) قال تعالى : «فوجدا عبدا صالحا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما قال له موسى هل أتبعك» (الكهف ٦٥)

(١٥٠) التبيان . العكبري ٢ : ٢٨٧

(١٥١) التعريفات . الجرجاني ٨٠

بأنه لانظير له . فقد طال بحثه عن مثل له يقرنه به ، فلم يجد ، وطال الفقد ، وبطل الكشف - أي زال - لأنه يئس من العثور على ضالته .

أما الكشف في المصطلح فهو البحث عن «الحقيقة المدركة من عالم الغيب ؛ كالصفات الربانية ، والعرش ، والكرسي ، والملائكة والوحي ، والنبوة ، والروح»[152] ولما كانت شخصية الممدوح ذات صفات متميزة «حارت الأوهام فيها» - كما يقول الشاعر - فقد أضفى هذا اللفظ الصوفي ظلالا صوفية على صورة الممدوح ، تتناسب مع سمو المعاني التي رمز الصوفية الى بحثهم عنها بالكشف . وقد كان ذلك مدعاة لحيرة الشراح ازاء هذا البيت ، إذ يقول الواحدي : «لو حكيت تخبط الناس في هذا البيت وأقوالهم المرذولة والروايات الفاسدة طال الخطب»[153]

القرب والبعد :

قال :

وأَبْعَدَ بعدَنا بعدَ التداني   وقربَ قربنا قربَ البعاد[154]

لعل أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ ، هو غرابة الصورة التي قدم بها الشاعر المعنى الذي أراده ؛ وهو أن المسير قد قربه الى الممدوح بقدر ما كان بينهما من البعد .

ألم يك بيننا بلد بعيد   فصير طوله عرض النجاد[155]

فصار على غاية من القرب منه بعد أن كان بعيدا عنه .

وأغلب الظن أن سيطرة المصطلح الصوفي على ذهن الشاعر ، هي التي ساقته الى تكرار لفظي (القرب والبعد) ، وجمع اللفظ وضده في تركيب جملتين متماثلتين ، مما أضفى على البيت غموضا حمل ابن وكيع على القول بأنه

---

(١٥٢) الحياة الروحية في الاسلام . محمد مصطفى حلمي ١٣٥

(١٥٣) ديوان المتنبي . الواحدي ١٦٩

(١٥٤) المنصف لابن وكيع التنيسي (خ ٨٠ ب) ، التبيان . العكبري ١ : ٣٥٨

(١٥٥) التبيان . العكبري ١ : ٣٥٨

يشبه كلام أهل الباطن .

وقد استمد المتنبي من القرآن ، احدى الآيات التي اعتمد عليها الصوفية في مبحثهم عن القرب[١٥٦] في قوله تعالى : «ونحن اقرب اليه من حبل الوريد» فقال :

دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت مني كحبل الوريد[١٥٧]

ومنها مصطلح (الحجاب) قال :

من كان ضوء جبينه ونواله لم يحجبا لم يحتجب عن ناظر
فاذا احتجبت فأنت غير محجب واذا بطنت فأنت عين الظاهر[١٥٨]

قال هذين البيتين حين حجبه بدر بن عمار ، فذكر أن صورة بدر وعطاءه انطبعتا في قلبه ، حتى لايحول الحجاب دون رؤيته لهما . ولعل هذه الفكرة ذكرته بصورة الحجاب عند الصوفية ، حين يحول انشغال العبد بصور الكون دون تأثير نور الحق في قلبه فطابق بالسلب في قوله (احتجبت - غير محجب) ثم بين (الباطن والظاهر) في الشطر الثاني وهما من مصطلحات الصوفية كذلك .

ومنها مصطلح الوقت ، قالوا : الصوفي ابن وقته . فالوقت عندهم «لحظة من الزمن بين الماضي والمستقبل يتصل فيها بالعبد وارد من الخالق ، ويجمع فيه سره فلا يتذكر الماضي ولا المستقبل»[١٥٩]

والوقت من المفردات التي تكررت في شعر المتنبي ، غير أن ملاحظة الأبيات التي ورد بها تكشف عن التزامه بالاستعمال اللغوي للفظ نحو قوله :

قد استراحت الى وقت رقابهم من السيوف وباقي القوم ينتظر[١٦٠]

(١٥٦) تاريخ التصوف في الاسلام . قاسم غني - ترجمة صادق نشأت ٤٥٩
(١٥٧) التبيان . العكبري ١ : ٣٤٦
(١٥٨) المصدر نفسه ٢ : ١٣٨
(١٥٩) تاريخ التصوف في الاسلام . قاسم غني ٩٠٦
(١٦٠) التبيان . العكبري ج ٢ : ٩٨ ، وانظر ١ : ٩٣ ، ٢ : ١٤٥ - ٢٣١ ، ٣ : ٤٩ - ٥٨ - ٩٣ ، ١٨٩ - ٣٨٥ ، ٤ : ٢٣

واذا تأملنا قوله :

فتى يشتهي طول البلاد ووقته   تضيق به أوقاته والمقاصد[١٦١]

فاننا نلمح فيه ما يشي بالأثر الصوفي ؛ اذ قد يحار الذهن في صورة الوقت الذي تضيق به الأوقات ، وقد فسر بعض الشراح البيت ، بأن الممدوح يتمنى أن تكون البلاد أوسع مما هي فيه ، والزمان أطول وأوسع ، لأن الأوقات تضيق عما يريد من الأمور ، ومقاصده في البلاد تضيق عن حيله . ونحن نقول في ضوء المصطلح الصوفي : أن الشاعر أراد ان يقول : ان طموح الممدوح وآماله العريضة لا تعطيه فسحة من الوقت يصرفها للتأمل الصوفي ومايأتي به من وجد .

(الحال)

ويصدق القول في مصطلح الحال الذي شغل جانبا من المعجم اللغوي لشاعرنا في مثل قوله :

ولكن تفوق الناس رأيا وحكمة   كما فقتهم حالا ونفسا ومحتدا[١٦٢]

والحال عند الصوفية «معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب من طرب أو حزن أو شوق أو هيبة ... الخ»[١٦٣] ، ولعل مسحة التصوف تبدو في مثل قوله :

وحالات الزمان عليك شتى   وحالك واحد في كل حال[١٦٤]

فقد تعمد تكرار اللفظ جمعا ومفردا ومضافا اليه . ولعل اضافة الحال الى الزمان في البيت ، تعد التفاتة منه لارتباط الحال لدى الصوفية بالوقت في قولهم ، إن الحال يرد على الوقت ، ويزينه كالروح للجسد .

(اليقين)

---

(١٦١) التبيان . العكبري ١ : ٢٧٥

(١٦٢) التبيان . العكبري ١ : ٢٨٩ ، وانظر ١ : ٤٩ - ٢٦٣ - ٢٧٠ ، ٣ : ٢٠ - ٦٢ - ٩٤ - ١٣٥ - ٣٦٢

(١٦٣) الرسالة القشيرية ٤٢

(١٦٤) التبيان . العكبري ٣ : ٢٠

نفت التوهم عنه حدة ذهنه فقضى على غيب الأمور تيقنا[١٦٥]

لقد حبا الله ممدوحه بدر بن عمار بذكاء وقاد ، أوصله الى المعرفة اليقينية التي لاشك فيها ، وجعلته يدرك بعض ما كان طي الغيب من الأمور ، ونفت عن خاطره الأوهام والأباطيل .

فاليقين لغة العلم الذي ليس معه شك ، أما عند الصوفية : فقد اقترن اليقين بعلم الغيب ، مما يحملنا على القول بأن الشاعر استظل بالاصطلاح الصوفي لليقين فهو كما يقولون «حقيقة الأسرار بحكم الغيب ، أو أن نور اليقين الذي القاه الحق في القلب قد احرق جميع الحجب التي تحول بينه وبين الآخرة ، وجعلته يطلع على أمور الغيب كأنه يشاهدها عيانا»[١٦٦] .

ويبدو أثر الصوفية في شعره في الغموض الذي لف بعض أبياته ، وان خلت من مصطلحات التصوف كما في قوله :

سرب محاسنه حرمت ذواتها داني الصفات بعيد موصوفاتها[١٦٧]

والبيت من مطالع المتنبي التي عابها النقاد لغموضها . وقد قال عنه الحاتمي «كأنه من كلام الشبلي أو سمنون الصوفي»[١٦٨] وكلاهما من أعلام الصوفية في القرن الثالث . وأغلب الظن ان الذي دعا الحاتمي الى مثل هذا القول ، ما لاحظه من قرب البيت من الغزل الرمزي عند الصوفية . هذا الى استمداده فكرة الصوفية حول الحضور بالذكر فقد حيل بين الشاعر وبين هذا السرب ، فطفق يصف محاسنه لاقتداره على الوصف متى شاء ، وعلى بعد الموصوف .

ونحو ذلك قوله :

اذا ما الكأس أرعشت اليدين صحوت فلم تحل بيني وبيني[١٦٩]

فقد كان أصل قوله «لم تحل بيني وبين عقلي» فحذف المضاف اليه مما

---

(١٦٥) التبيان . العكبري ٤ : ١٩٩

(١٦٦) تاريخ التصوف في الاسلام . قاسم غني . ترجمة صادق نشأت ٥٨٢

(١٦٧) التبيان . العكبري ١ : ٢٢٥

(١٦٨) الرسالة الموضحة . الحاتمي ٢٣

(١٦٩) التبيان . العكبري ٤ : ١٩٣

أضفى على البيت سمة غموض حملت أبا الفتح بن جني الى القول بأنه جانس كلام المتصوفة .

ونرى لذلك مثلا في قول الشبلي :

تسرمد وقتي فيك وهو مسرمد وأفنيتني عني فصرت مجردا[170]

ومن أمثلة اكثار الصوفية من استعمال الأدوات بسبب سيولة الفكرة عندهم ، وعجزهم عن اعطائها قوامها المحدد الأبعاد ، ومحاولتهم جعل كل لفظة تشير الى أحد عناصر تفكيرهم ، فتتجمع عليهم العناصر ، وتفسد العبارة قول الحلاج :

كان الدليل له منه اليه به من شاهد الحق في تنزيل فوقان
كان الدليل له منه به وله حقا وجدناه بل علما بتبيان[171]

وقد كان لهذه الظاهرة نصيب في شعر المتنبي نحو قوله يصف فرسا :

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد[172]

وقوله في المدح :

ولكنك الدنيا اليَّ حبيبة فما عنك لي الا اليك ذهاب[173]
وبه يضن على البرية لا بها وعليه منها لا عليها يوسى[174]
نحن من ضايق الزمان له فيك وخانته قربك الأيام[175]

وفي الخمر :

نال الذي نلت منه مني لله ماتصنع الخمور[176]

وفي الغزل :

---

(١٧٠) نشأة التصوف الاسلامي . ابراهيم بسيوني ٢٦٣
(١٧١) ديوان الحلاج ٥٦
(١٧٢) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ١٤٥ ، التبيان . العكبري ١ : ٢٧٠
(١٧٣) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ١٤٥ ، التبيان . العكبري ١ : ٢٠١
(١٧٤) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ١٤٥ ، التبيان . العكبري ٢ : ١٩٨
(١٧٥) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي . الصاحب بن عباد ٤٥ ، التبيان . العكبري ٣ : ٣٤٣
(١٧٦) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ١٤٥ ، التبيان . العكبري ٢ : ١٣٨

هراقت دمي من بي من الوجد ما بها   من الوجد بي والشوق لي ولها حلف[177]

فقد اكثر الشاعر من الأدوات على الرغم من أنه حذف بعضها ؛ إذ كان أصل القول «بي من الوجد بها مابها من الوجد بي» هذا الى جانب لفظ الوجد الذي أداره في البيت ، وهو اللفظ الذي استعمله الصوفية كمصطلح يدل على «المعاني التي ترد على القلب دون تصنع»[178] كما في نحو قول ابي العباس بن عطاء :

فما الوجد الا أن تذوب من الوجد   وتصبح في جهد يزيدعلى الجهد[179]

وقد تسللت هذه الظاهرة إلى هذه الأبيات وغيرها ، كأثر واضح من آثار الأسلوب الصوفي في شعره . وقد عدها بعض النقاد دليلا على انه كان متصرفا في أفانين الكلام ، مقتدرا على وجوهه المختلفة ، بينما قال آخرون : «انه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئا منها ، حتى تخطى الى هذا النوع ... فأتى من الاستكراه بما لايطار غرابه»[180].

ويمكن ان نرجع هذه الآراء وغيرها الى محور واحد ، هو نظرة كل ناقد الى مدى تقبل الشعر لأنماط من الأسلوب ، ارتبطت بفكر خاص فكان استيحاؤها لدى البعض اقتدارا ولدى غيرهم انحرافا بالشعر عن تقاليده الموروثة ، وعيبا من عيوب الكلام .

لقد كان اتصال الشاعر بالصوفية في فترة مبكرة أثناء طوافه بين مدن الشام حوالي سنة ٣٢٥هـ نستدل على ذلك من القصائد التي نظمها في هذه المرحلة ، وظهرت فيها سمات التصوف وشاراته ، ولعل أولها قصيدته في مدح القاضي المالكي أبي الفرج احمد بن الحسين ومطلعها :

لجنية أم غادة رفع السجف   لوحشية لا مالوحشية شنف[181]

---

(١٧٧) التبيان . العكبري ٢ : ٢٨٢
(١٧٨) تاريخ التصوف في الاسلام . قاسم غني ، ترجمة صادق نشأت ٩٠٦
(١٧٩) نشأة التصوف الاسلامي ابراهيم بسيوني ٢٠٩
(١٨٠) الصناعتين . العسكرى ١٦٠

فقد استمد الشاعر فيها بعض مصطلحات التصوف نحو (الكشف - الوجد - الباطن والظاهر) .

ويؤكد اتصاله بالصوفية في هذه الفترة القصيدة التي مدح بها هارون ابن عبدالعزيز الأوراجي[١٨٢] ، الذي كان بشهادة المؤرخين يميل الى التصوف ، ومدح الشاعر لهذا الكاتب الذي عرف بميوله الصوفية ، دليل على اتصاله بهذه الجماعات ومدحه لرجالها .

وقد وصف طه حسين هذه القصيدة بأنها «القصيدة الوحيدةالتي يعمد فيها الشاعر الى المذهب الرمزي ، ليرضي ممدوحه الذي كان يذهب مذهب التصوف»[١٨٣] . وقد ذكر ان تعمد الشاعر اصطناع منهج الصوفية في هذه القصيدة ، قد حمل لفظه اعباء ثقالا - على حد تعبيره - واستشهد على ذلك بقوله :

لولم تكن من ذاالورى اللذ منك هو عقمت بمولد نسلها حواء[١٨٤]

وقد عد بعض الباحثين استعمال ذا الاشارية في هذا البيت ونحوه من الأبيات المتعددة التي تناثرت في شعر المتنبي ؛ ظاهرة لغوية تكشف عن أثر صوفي نشأ من فكرة الحضور والمشاهدة ، التي ادت دورها في فكر الصوفية[١٨٥] .

غير اننا لم نر هذه الظاهرة في شعر المتصوفة الذين لاحظنا لديهم السمات التي عرضناها آنفا ، وإن كان الجرجاني والثعالبي قد اورداها في باب عيوب شعر المتنبي . وقد نقل ابن جني رد الشاعر حين سئل عن اكثاره من استعمال ذا الاشارية فقال : «ان هذا الشعر لم يعمل كله في وقت واحد»[١٨٦] ومهما يكن الأمر فوجهة النظر التي عرضها هذا الباحث وغيره تبدو معقولة إلى حد ما .

(١٨٢) وفيات الأعيان . ابن خلكان ١ : ٤٢٨
(١٨٣) مع المتنبي . طه حسين ١١٧
(١٨٤) المصدر السابق ١١٧
(١٨٥) الظواهر اللغوية والنحوية في شعر المتنبي . محمد عزت عبد الموجود ٩٧
(١٨٦) شرح ديوان المتنبي لابن جني ١ : ١٠٨

وإلى جانب أثر التصوف في شعر المتنبي الذي عرضناه فيما تقدم يمكن القول : إن اتصال الشاعر بالصوفية ، أمد تهمة المروق عن الدين التي رمى بها المتنبي بروافد جديدة ، غذاها حقد رجال السنةوالفقهاء على الصوفية ، بسبب مادخل التصوف من آراء فلسفية كالحلول والاتحاد وغيرها .

الفقه :

يعد الفقه من آثار الثقافة الدينية التي ظهرت في شعر المتنبي في نواح مختلفة من ديوانه ؛ حيث اتخذ الشاعر من شعره معرضا لبعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالحدود والمواريث وغيرها من الأحكام ، وأدار في قصائده بعض المصطلحات التي تداولها الفقهاء والقضاة .

ومن اوائل شعره الذي ظهر فيه هذا الأثر الفقهي ، قصيدة نظمها في سجنه ومطلعها :

أيا خدد الله ورد الخدود وقد قدود الحسان القدود[١٨٧]

وقد حاول الشاعر في هذه القصيدة ، تبرئة نفسه مما نسب اليه ، فاستعان ببعض الأحكام المتعلقة بالحدود ، ومما عرض له السن التي يجب فيها ايقاع الحد على مرتكب الاثم فقال :

تعجل في وجوب الحدود وحدى قبل وجوب السجود[١٨٨]

فقد أشار الشاعر الى انه لم يصل سن البالغ الذي يجب عليه الحد ؛ إذ مايزال دون سن السجود وقد كان ذلك محاولة لنفي التهمة عنه بتصغير نفسه أمام الحاكم .

واستطرد الى التفريق بين ارادة الفعل والفعل نفسه ، إذ لايعاقب ناوي الحرام حتى يرتكب الاثم بالوقوع فيه ، وذلك في قوله :

وكن فارقا بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد[١٨٩]

---

(١٨٧) التبيان . العكبري ١ : ٣٤١
(١٨٨) المصدر نفسه ١ : ٣٤٦
(١٨٩) المصدر نفسه ١ : ٣٤٧

وتعرض للشروط التي يجب توافرها في الشهادة حتى يقبلها أولو الأمر فقال :

فمالك تقبل زور الكلام وقدر الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبأن بمحك اليهود[190]

فأشار بذلك الى بطلان الحكم عليه بالسجن ؛ إذ أن من شهد ضده لم تتوافر فيه شروط الشاهد العدل ، اذ هو عدو مبغض للشاعر ومن ثم فشهادته زور لايؤبه بها .

وقد تكون شخصية الممدوح واتصالها ببيئة الفقهاء او القضاة دافعاً ، يقود الشاعر الى اضفاء مسحة فقهية على صوره والفاظه . نلمح ذلك في قصيدة مدح بها القاضي الانطاكي قال فيها :

ألتى الكرام الأولى بادوا مكارمهم على الخصيبي عند الفرض والسنن
فهن في الحجر منه كلما عرضت له اليتامى بدابالمجد والسنن[191]

فقد ورث هذا القاضي المكارم التي خلفها الراحلون الكرام فهي تحت تصرفه يتكفل امرها ، شأنها في ذلك ، شأن من يتولى أمرهم من اليتامى . وقد قادته شخصية القاضي الذي يمدحه الى جعل المكارم في صورة الأيتام بايقاعها تحت الحجر ، وكانت هذه الصورة وراء ذكره للفرض والسنن في البيت الأول ، ليمهد لذكر اليتامى في البيت الثاني .

وهكذا جمع الشاعر في البيتين بعض الألفاظ التي اتصلت ببيئة الفقهاء نحو (الفرض - السنن - اليتامى - الحجر) .

ونرى مثل ذلك في مدحه للقاضي أبي الفرج احمد بن الحسين المالكي :

أقاضينا هذا الذي أنت أهله غلطت ولا الثلثان هذا ولاالنصف

(١٩٠) التبيان . العكبري ١ : ٣٤٧
(١٩١) المصدر نفسه ٤ : ٢١٤

وذنبي تقصيري وما جئت مادحا   بذنبي ولكن جئت أسأل ان تعفو[١٩٢]

حيث استمد الشاعر بعض الألفاظ التي ترد في أحكام المواريث ، مما أضفى على البيت هذا القالب الحسابي أو العددي .

ومثل هذه الألفاظ المتعلقة بقوانين المواريث والوقف قوله في مدح محمد بن زريق الطرسوسي :

لوجادت الدنيا فدتك بأهلها   أو جاهدت كتبت عليك حبيسا[١٩٣]

وقد تكون هذه الاشارات الفقهية ، وليدة السياق الذي وردت فيه فهي تشغل جانبا في صوره الشعرية . ومن ذلك قول المتنبي مشيرا الى حكم الاسلام في المرتدين فقال :

كأن سخاءك الاسلام تخشى   اذا ما حلت عاقبة ارتداد[١٩٤]

فقد جعل سخاء سيف الدولة بمنزلة اعتقاده بدين الاسلام ، فهو لا يحيد عن كرمه كأنه يخاف عاقبة الارتداد عن الدين من القتل ودخول النار .

ورغبة الشاعر في اضفاء صفة الدوام والثبات على كرم سيف الدولة هي التي قادته الى هذا التشبيه الذي تلاه بحكم الشريعة في الارتداد لكي يؤكد هذه الصفة - صفة الكرم - بنفي حدوث نقيضها .

وجعل العطاء والقتال فريضة مرة أخرى في قوله :

ويد كأن قتالها ونوالها   فرض يحق عليك وهو تبرع[١٩٥]

فقد مدح فاتكا بالتزامه النوال والقتال ، كأنه امام فرائض وجب عليه آداؤها ، على الرغم من كونها في الحقيقة نوافل ، وتلوح سمة الفقه على البيت في الفاظه المستقاة من الفقه كالفرض والتبرع .

ومن اقواله التي يبدو فيها الأثر الفقهي واضحا قوله :

---

(١٩٢) التبيان . العكبري ٢ : ٢٩٠
(١٩٣) المصدر نفسه ٢ : ٢٠٢
(١٩٤) المصدر نفسه ١ : ٣٥٩
(١٩٥) المصدر نفسه ٢ : ٢٧٣

وزارك بي دون الملوك تحرجي إذا عنّ بحر لم يجز لي التيمم[196] .

فلم يبح الشاعر لنفسه أن يتوجه بشعره الى غير ممدوحه اذ لا أحد يغني عنه وهل يجوز لمن أراد الطهارة أن يتيمم والماء موجود .

وقد استخدم الشاعر هذا الحكم الفقهي في التمثيل على الصورة التي ذكرها في المصراع الأول مما زادها ابانة ووضوحا .

كذلك قوله في الغزل :

فتى تغرم الأولى من اللحظ مهجتي بثانية والمتلف الشيء غارمه[197]

وقد تمنى الشاعر أن تعيد الحبيبة النظر اليه ، اذ انها أضاعت مهجته بنظرتها الأولى فوجب عليها ردها ، إذ أن من أتلف شيئا ، وجبت عليه غرامته كما يقول الفقهاء .

وارتداد النظر من المعاني التي تكررت لدى بعض الشعراء نضرب لذلك مثلا بقول جرير :

ولقد نظرت فرد نظرتي الهوى بجزيز رامة والمطي سوام

وقول قطري :

اشتاق بالنظرة الأولى قرينتها كأنني لم أقدم قبلها نظرا[198]

وقد صاغ المتنبي بيته صياغة عقليه مستعيرا الحكم الفقهي المتلف .

الشيء غارمه» . وقد علق طه حسين على البيت بقوله : انه يريد أن يبهر الفقهاء من أصحاب سيف الدولة كما بهر اللغويين والنحاة[199] .

وقد استمد بعض الأحكام الفقهية ، ويوردها في صورة غير ما وردت عليه في الأصل نحو قول المتنبي في وصف الحمى :

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام

---

(١٩٦) التبيان . العكبري ٤ : ٩١
(١٩٧) المصدر نفسه ٣ : ٣٣٠
(١٩٨) الفتح الوهبي . أبن جني ١٣٦
(١٩٩) مع المتنبي . طه حسين ١٩٢

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسلتني كأنا عاكفان على حرام[٢٠٠]

ويمكن القول أن ذكر هذه الأشارة الفقهية في البيت الرابع ، وليد السياق فقد بدأ الشاعر حديثه عن الحمى بجعلها زائرة في الظلام الى آخر ما ذكر في الأبيات التي تلت . ومن ثم فقد جعل العرف الذي أصاب جسده المحموم بمثابة الغسل أو الطهارة التي يستوجبها الجماع .

وقد عاب بعض النقاد قوله : حرام اعتراضا منهم على استخدام المأثور الثقافي على غير وجهه الصحيح ، فقال الحاتمي : «الحلال أولى بالغسل وأخص من الحرام فكيف خصصت الحرام بوصف يشركه فيه غيره ، وله به اختصاص فوق اختصاصه ؟ وقد نقل الحاتمي دفاع المتنبي «أتيت بأحدهما فدل على الآخر وإن لم اذكره وفي القرآن «سرابيل تقيكم الحر» وهي تقي البرد . وقال الشاعر :

فلا تعدى مواعد كاذبات تهب بها رياح الصيف دوني[٢٠١]

أما ابن الشجري فقد ذكر انه خص الحرام لأنه جعلها زائرة غريبة ، ولم يجعلها زوجة ولا مملوكة[٢٠٢]، وهذا التعليل صحيح اذ يناسب الصورة التي اوردها الشاعر للحمى في الأبيات السابقة ، ويوحي بما يعقب زيارتها من الآم واوجاع .

وقد تتضمن الاشارات الفقهية التي يوردها في شعره تلاعبا في احكام الشرع كقوله في تحريم الخمر :

كل شيء من الدماء حرام شربه ما خلا دم العنقود
فاسقنيها فدى لعينيك نفسي من غزال وطارفي وتليدي[٢٠٣]

(٢٠٠) التبيان . العكبري ٤ : ١٤٦
(٢٠١) الرسالة الموضحة . الحاتمي ١٢٨
(٢٠٢) التبيان . العكبري ٤ : ١٤٦
(٢٠٣) المصدر نفسه ١ : ٣١٨

لقد طلب الشاعر من حبيبته أن تسقيه خمرا كنى عنها بقوله «دم العنقود» ، وقد دفعه ذلك الى استثنائها من الدماء التي حرمها الشرع لقوله تعالى «انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير»[٢٠٤] «الا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا»[٢٠٥] وبذلك وقع الشاعر في تحليل الخمر التي حرمت لغير ما ذكر ؛ مما حدا بعض النقاد الى القول بانه عنى عصير العنب المطبوخ وهو ما أحل شربه .

ونحن لا نستبعد ان يكون بالبيت تلاعب بالحكم الشرعي كصورة من مهاترات الصبا ولعل قوله في البيت الثاني مما يؤكد ذلك .

ونظير ذلك قوله مرة أخرى :

وأخ لنا بعث الطلاق ألية   لأعللن بهذه الخرطوم

فجعلت ردى عرسه كفارة   عن شربها وشربت غير أثيم[٢٠٦]

إذ سوغ الشاعر لنفسه شرب الخمر ، وعد نفسه غير آثم ، لأنه كفر بشربها عن يمين صاحبه ورد عليه امرأته ، وهذا ضرب من التلاعب بحكم الشرع في التحريم والتحليل .

وقد يكون استمداده لبعض الاشارات الفقهية ، معبرا عن ادراكه لاختلافات الفقهاء في بعض الأحكام نضرب لذلك مثلا بقوله :

أرادت كلاب أن تقوم بدولة   لمن تركت رعي الشويهات والابل[٢٠٧]

أبى ربها أن يترك الوحش وحدها   وأن يؤمن الضب الخبيث من الاكل

يمكن القول ان اطلاق صفة الخبيث على الضب إيماء الى اختلاف الفقهاء في أكله واستناد كل طائفة على ماروي في الأثر من اباحته وتحريمه.[٢٠٨]

---

(٢٠٤) سورة البقرة ١٧٣
(٢٠٥) سورة الأنعام ١٤٥
(٢٠٦) التبيان . العكبري ٤ : ٤٧
(٢٠٧) التبيان . العكبري ٣ : ٢٩٥
(٢٠٨) الحيوان . الجاحظ ٦ : ٧٧ ، حياة الحيوان الكبرى . الدميري ٢ : ١٠٧

الفصل الرابع

الثَقافَة الفَلسَفيَة

لقد تضافرت عوامل متعددة هيأت للمتنبي ثمار الفلسفة التي نضجت في القرن الرابع الهجري منذ نشأته الأولى بمدينة الكوفة ، حيث زخرت المساجد بألوان الجدل بين مختلف الفرق الاسلامية ، التي استعانت في تقديم فكرها بأسانيد فلسفية ، مستقاة من الفلسفة اليونانية التي كانت مؤلفاتها المنقولة الى العربية - ومانشأ حولها من دراسات على يد أعلام الفلسفة الاسلامية كالكندي والفارابي - في متناول الدارسين .

ويمكن القول ان الشاعر قد اتصل في الكوفة ببعض الأوساط المعنية بالفلسفة ؛ فقد حكى الاصفهاني أنه وقع في صباه الى أحد المتفلسفة[1] ، ونحن لانملك أن نغالي في تصورنا لما أضافته هذه الصلة إلى فكر الشاعر في هذه المرحلة المبكرة ، ولكننا لانستبعد أن تكون قد تركت بصمات واضحة في فكره ، هيأته للأقبال على هذه الثقافة بعد أن نضج واكتمل عقله .

وقد التقى الشاعر بأحد أعلام الفلسفة الاسلامية البارزين : أبي نصر الفارابي ، الذي عاش في كنف سيف الدولة الحمداني ، في فترة استقرار الشاعر بحلب[2] .ولعل ظهور مثل هذه الشخصية في بلاط حلب قد أضفى على مجالسها شيئًا من ألوان الجدل الفلسفي . وعلى الرغم من انه لم يصلنا شيء من هذه المجالس فاننا قد نرى نموذجا مشابها لها في كتاب المقابسات وكتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، حيث شغلت مسائل الفلسفة جانبا واضحا

(١) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . الأصفهاني ٧
(٢) وفيات الأعيان . ابن خلكان ٤ : ٢٤١

فيما نقل عن مجالس أبي سليمان محمد بن بهرام السجستاني ، الذي تتلمذ على أبي زكريا ابراهيم بن عدي ، الذي كان تلميذاً للفارابي بحلب[٣] .

ويجدر بنا ان نلتفت الى ان ابتعاد الفارابي عن حياة القصر ومجالسه ، وتفرغه للتأليف في الرياض - التي قصدها ليخلو الى تأملاته[٤] - قد يحمل على الظن بأن مجالس الأمير الحمداني لم تغن كثيرا بحضور هذا الفيلسوف . وإن كان عدم وجوده بالمجالس لا يمنع رواد الفلسفة وقراءها من الاستفادة من نتاج مؤلفاته ، التي أتم وضعها قبل قدومه الى حلب[٥] .

وعلى الرغم من فارق السن الذي فصل بين الشاعر والفيلسوف ، واختلاف الهدف الذي قاد كلا منهما الى حلب ، جمعت بين الشخصيتين بعض الجوانب التي قد تسمح بتصور قيام صلة بينهما ، إذ أن الفارابي كان ممن أولوا علوم اللغة والنحو اهتماما واضحا[٦] ، واتجه لدراسة الشعر بتأثير أرسطو وكتابه فن الشعر ، شأنه في ذلك شأن غيره من الفلاسفة الذين نظروا الى الشعر كقسم من أقسام المنطق الأرسطي ، وذلك في رسالته في قوانين صناعة الشعر «التي درس فيها ما عرفه من الشعر اليوناني من العارفين بأشعارهم ، وما وجده في الأقاويل المنسوبة الى أرسطو في صناعة الشعر وعن ثامسطيوس وغيره من القدماء المفسرين لكتبهم»[٧] ويُعد تلخيصا لفن الشعر ، وان اكتفى الفارابي بمسه مسا خفيفاً جداً[٨] كذلك عرض للشعر في رسالة صغيرة «جوامع الشعر»[٩] وفي كتابه عن احصاء العلوم[١٠] .

ولعل الفارابي قد نظر الى المتنبي بوصفه أحد الأعلام الذين اتخذوا من

---

(٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ابن ابي أصيبعة ٢ : ١٣٦
(٤) وفيات الأعيان . ابن خلكان ٤ : ٢٣٩
(٥) المصدر نفسه ٤ : ٢٣٩
(٦) المصدر نفسه ٤ : ٢٣٩
(٧) رسالة في قوانين صناعة الشعر ضمن فن الشعر لأرسطو تحقيق عبد الرحمن بدوي ١٤٩
(٨) فن الشعر لأرسطو . عبد الرحمن بدوي ٥٣
(٩) جوامع الشعر للفارابي ضمن فن الشعر لأرسطو ، تحقيق محمد سليم سالم ١٧٣
(١٠) احصاء العلوم . الفارابي ١٧٤

اشعارهم نماذج يقارنها بما بلغه من الشعر اليوناني - كما يبدو من بعض ما أورده ابن رشد من نقول عن الفارابي[١١] .

ولكن هذه الصلة الخاصة - التي افترض حدوثها - لم تطل ؛ اذ توفي الفارابي سنة ٣٣٩[١٢] ، أي بعد قدوم المتنبي الى حلب بعامين ، ولعل قصر المدة التي جمعت بينهما حال دون تداول المؤرخين لأخبار هذه العلاقة ، كغيرها من الصلات التي نشأت بين المتنبي وبين من اجتمع لدى سيف الدولة من شعراء وعلماء .

وقد شغل الحديث عن صلة المتنبي بالفلسفة جانبا من المؤلفات التي درست فن المتنبي في القرن الرابع وما تلاه : كما نرى في جهود أبي القاسم الأصفهاني الذي أورد بعض الأشعار التي رأى فيها أثراً فلسفياً ، وأبي علي الحاتمي الذي وضع رسالة في البحث عما وافق به الشاعر أقوال فيلسوف اليونان ارسطو طاليس ، والثعالبي الذي جمع بعض آثار الفلسفة في فصل مآخذ الشاعر وعيوبه ، وكذلك لم تخل شروح الديوان من مثل هذه الاشارات التي أوردها هؤلاء النقاد وغيرهم .

وقد اتجه بعض النقاد الى اهمال أو تجاهل الأثر الذي أحدثته الثقافة الفلسفية في شعره . نرى على رأس هذه الطائفة ابن الاثير الذي نفى أثر الفلسفة على طائفة من الشعراء والكتاب ، عد منهم المتنبي ؛ أذ ان هؤلاء - فيما يرى - لم يطلعوا على شيء من علوم اليونان[١٣]

وقد سار بعض الباحثين كأحمد أمين وشكيب ارسلان وطه عبد الفتاح في ركاب ابن الأثير ، ودلل أحمد أمين على وجهة نظره بأن الشاعر اقتصر في بنائه الثقافي على الثقافة العربية ، فهو بعيد كل البعد عن الفلسفة ورجالها[١٤]

---

(١١) تلخيص فن الشعر . ابن رشد ١٦٣

(١٢) وفيات الأعيان . ابن خلكان ٤ : ٢٣٩

(١٣) المثل السائر . ابن الأثير ١٨٦

(١٤) هل كان المتنبي فيلسوفا . أحمد أمين . مجلة الهلال . مجلد ١٩٣٥ ، ص ١٣٤

وقد كانت هذه الآراء بعيدة عن الموضوعية : اذ أنها تجاهلت التيار العارم من الثقافة الفلسفية الذي غمر البيئات العربية ، وترك آثارا واضحة في الفكر العربي . وهل كان هؤلاء الكتاب والشعراء بمعزل عن هذا التيار ؟ كذلك فإن هذا الدليل الذي اعتمد عليه أحمد أمين في استدلاله يسقط من الاعتبار ، ولو افترضنا ان الشاعر لم يعش بالفعل ثقافة عصره مع ما في ذلك من تجاوز في الحكم على رجل عرف بولعه بالقراءة كالمتنبي فان وجود بعض آثار هذه الثقافة في شعره - وان قلت - يعد دليلا على انه نال شيئا من الفلسفة ، سواء قرأ بعض مؤلفاتها أو لم يقرأ .

وتعد الرسالة التي الفها الحاتمي من أكبر الآثار التي وصلتنا عن ثقافة الشاعر الفلسفية من النقاد المعاصرين للشاعر ، اذ افرد لها الحاتمي مؤلفا خاصا ذكر فيه مئة بيت من شعر المتنبي ، ومئة من حكم ارسطو ، التي ذكر ان الشاعر قد اقتبسها في شعره .

وتكشف هذه الرسالة عن مدى انتشار أقوال حكماء اليونان في أوساط غير الفلاسفة من اللغويين والأدباء ، ويؤيد وجهة النظر هذه ماورد في الامتاع والمؤانسة وغيره من اقوال بعض حكماء اليونان[١٥] غير ارسطو مثلا : ذيوجانس ، وفيثاغورس ، وسقراط ، وامبروس ، وانكساغورس ، واسطفانس ، وطيماثاوس ، ومقاريوس ، وزيموس ، واسقلبيوس ، وثيودوروس مما يزيل عن ذهن الباحث بعض ما يراوده من شك في تأليف الحاتمي لهذه الرسالة .

وقد نتساءل لم اختار الحاتمي حكم ارسطو في رسالته ؟ قد يكون هذا الاختيار مرتبطا بالانتشار الواسع الذي صادفته فلسفة أرسطو ومؤلفاته لدى فلاسفة الاسلام ، هذا الازدهار الذي يبدو واضحا من ملاحظة ثبت مؤلفات

---

(١٥) الامتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ١ : ٢٢ - ٥٢ - ٦٣ ، ٢ : ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٩٠ - ٩١ - ١٢٦ ، ٣ : ٦٣ .

أشهر فلاسفة الاسلام - في هذه الحقبة - الكندي والفارابي .

وقد يكون الأمر محاولة من الحاتمي للافادة من الايحاء الذي تعطيه بعض آراء أرسطو في النفس والكون ، التي رأى فلاسفة الاسلام أنها لاتتفق مع عقائدهم ، فاتخذ الحاتمي من الرسالة وسيلة لتوجيه الأنظار الى معتقد الشاعر ، وتغذية الاتجاه العام الذي كان يحاول النيل منه ووسمه بضعف العقيدة .

وقد يعزز هذا الفرض الأخير ما نراه في حديث أبي القاسم الاصفهاني ، الذي ربط بين ميل الشاعر الى الفلسفة ووسمه بالضلال ، عند ذكره لابي الفضل - المتفلسف الذي لقيه المتنبي بالكوفة - وتذييله لبعض أبيات المتنبي التي لمح فيها روحاً فلسفية ، بقوله ان «الانسان اذا خلع ربقة الاسلام من عنقه ، وأسلمه الله جل جلاله الى حوله وقوته ، وجد في الضلالات مجالا واسعا ، وفي البدع والجهالات مناديح وفسحا»[16].

واذا قرنا الرسالة الحاتمية - مع ما نعرفه من روح العداء والتحامل الواضح التي اتسم بها نقد الحاتمي للمتنبي - بحديث الثعالبي عن الفلسفة كأحد عيوب شعره ، فاننا نخلص من ذلك إلى تصور رأي العصر في صلة الشعر بالفلسفة . كذلك فإنّ حكم الثعالبي على الفلسفة بوصفها أحد مساويء الشاعر قد يقودنا الى هدف الحاتمي من وضع رسالته ، على الرغم من ان اشادته بالشاعر وتعظيمه لشأن هذه الأقوال الحكمية التي جاء بها بقوله «أتى في شعره بأغراض فلسفية ومعان منطقية . فان كان ذلك منه عن فحص ونظر وبحث فقد اغرق في درس العلوم ، وان يك ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والالفاظ الغريبة ، وهو في الحالتين على غاية من الفضل ، وسبيل نهاية من النبل»[17] . ومن ثم فقد فتح المجال أمام

---

(١٦) الواضح في مشكلات شعر المتنبي الاصفهاني ٨

(١٧) الرسالة الحاتمية . الحاتمي ١٤٤

الدارس لتناول ما جاء فيها بكثير من البحث والنظر ، خشية محاولة الحاتمي لابراز ماعدّ عيباً - في نظر معاصريه - بالتزيد في هذه الأقوال .

وقد سار عبدالرحمن شعيب في اتجاه يرمي الى اثبات صحة نسبة هذه الحكم لأرسطو ، بأن قرأ كل ما نقل من مؤلفات أرسطو الى العربية وهي : علم الاخلاق الى نيقوماخوس ، الكون والفساد ، في ميسيلوس ، في اكسينوفان ، في غرغياس ، كتاب الشعر ، كتاب الخطابة ، ما بعد الطبيعة ، في النفس ، الآراء الطبيعية والنبات .

كما قرأ بعض ما اتصل به من مؤلفات ، وهي «الجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون الالهي وارسطو طاليس للفارابي ، تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الاغريقية للدكتور محمد غالب ، في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام للدكتور محمود قاسم[١٨] .

ولم يستطع شعيب ان يستدل على مواضع الأخذ في هذه المؤلفات ، ولم يستطع في الوقت نفسه أن يجزم بعدم صدور هذه الحكم عن ارسطو ؛ إذ ان هذه المؤلفات شكلت جزءا من مؤلفات ارسطو ، وبقي قسم لم يترجم ، وضاع قسم ثالث عبر القرون الطويلة . هذا إلى جانب الافتراض المعقول الذي أضافه الباحث وهو ان هذه الحكم قد تكون مما صدر عن الفيلسوف في مجالسه ولم يدون في مؤلفاته .

وقد حاول احسان عباس اثبات صحة نسبة هذه الحكم بردها الى مظانها ، وقد وفق في مسعاه بالنسبة لبعض هذه الحكم ، حيث وجد لها اصلا فيما نقله المؤرخون عن أرسطو ، وكشف النقاب عن بعض ما نحله الحاتمي هذا الفيلسوف من حكم وجدها لغيره من فلاسفة اليونان وحكمائهم . ومن أمثلة ذلك قول أرسطو «الفرق بين الحلم والعجز ان الحلم لايكون الا عن قدرة والعجز لايكون الا عن ضعف ، فليس للعاجز أن يتسمى باسم الحليم وهو

(١٨) المتنبي بين ناقديه . عبد الرحمن شعيب ٢٤٧

عاجز»[19] فقد ذكر احسان ان ما ذكر الحاتمي يماثل ما نقل عن افلاطون : «الحلم لاينسب الا الى من قدر على السطوة ، والزهد لاينسب الا الى من ترك بعد القدرة»[20] ، كذلك قول الحاتمي «قال الحكيم ، وقد نظر الى غلام حسن الوجه فاستلطفه فلم يجد عنده علما : نعم الدار لو كان فيها ساكن»[21] فقد وجد له قولا شبيها منسوبا إلى ذيوجانس« نعم البيت وبئس الساكن»[22]

وقد يكون رأي احسان - في ظاهرة الخلط بين أقوال الحكماء لدى الحاتمي ، وتعليلها بانصراف الاهتمام عن أصحاب هذه الحكم وصحة نسبتها اليهم ، الى ما تضمنته من أقوال وآراء - مقبولا فيما يتصل ببعض الحكم العامة التي قد تنسب الى عدد من الحكماء . ولكن هذا الخلط امتد لدى الحاتمي ليشمل آراء أفلاطون وأرسطو في النفس وعلاقتها بالبدن ، على الرغم من الاهتمام الواسع الذي لقيه هذا المبحث لدى فلاسفة المسلمين : كالفارابي الذي حاول في فلسفته في النفس أن يجمع بين آرائه الدينية وآراء الحكيمين»[23] ، وقد نوقشت مثل هذه الآراء في مجلس ابي سليمان[24] - الذي اشرنا اليه - وقد كان الحاتمي أحد المترددين عليه[25] . ولعل هذا اللبس الذي وقع فيه الحاتمي يقدم دليلا على انه لم يصدر في رسالته عن ثقافة فلسفية عميقة تؤهله لهذا النقد الذي تصدى له ، وربما اعتمد على محفوظه فيما ذكر من حكم .

ومن أمثلة ذلك هذه الحكم التي نقلها لأرسطو «النفس الشريفة ترى الموت بقاء لدركها أماكن البقاء ، وهذه حالة يعجز الخلق عن ركوبها»[26]

---

(١٩) الرسالة الحاتمية ١٥٥

(٢٠) تاريخ النقد الأدبي عند العرب . احسان عباس ٢٤٦ ، عن المبشر بن فاتك ١٦٥

(٢١) الحاتمية ١٥٦

(٢٢) تاريخ النقد . احسان عباس ٢٤٧ ، عن المبشر بن فاتك ٧٦

(٢٣) في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام . محمود قاسم ٦٥

(٢٤) الامتاع والمؤانسة ١ : ١٩٨

(٢٥) المصدر نفسه ١ : ١٣٥

(٢٦) الرسالة الحاتمية ١٥٤

«موت النفس حياتها وعدمها وجودها لأنها تحلق بعالمها»[٣٧] «اذا تجوهرت النفوس الفلسفية لحقت بالعالم العلوي فلا تسكن الى الهمم الترابية ولا يعترضها زلل»[٣٨]. «اذا كان سقم النفس بالحياة كان الموت شفاءها»[٣٩].

فقد تضمنت هذه الحكم الاشارة الى خلود النفس وبقائها بعد مفارقتها الجسم مما يتنافى مع آراء أرسطو الذي لايرى استقلالا للنفس عن الجسم ؛ لأنها صورة للجسم لاتنفك عنه[٣٠] ، ومثل هذه الآراء لاتحمل رأيا في بقاء النفس بعد الموت أو خلودها[٣١] . وتبدو هذه الحكم اكثر ملاءمة لآراء افلاطون الذي يرى النفس نقطة اتصال بين عالم المثل الذي هبطت منه وعالم الجسد الذي تحل به[٣٢] ، ولما كانت النفس بطبيعتها كجوهر روحي تنتمي الى عالم مختلف كل الاختلاف عن عالم الحس لم يكن بد من عودتها الى حالتها الأولى عندما تتخلص من الجسم ، فقد اعتنى افلاطون بتقديم الأدلة على خلود النفس في مواضع مختلفة من كتبه[٣٣]. وما سقم النفس بالحياة وشفاؤها بالموت في الحكمة الاخيرة الا اشارة الى التشويه الذي يلحق بالنفس بسبب اتصالها بالبدن ، ومتى تحررت من هذا الجسد واستطاعت العودة الى عالم المثل برئت من المسخ والتشويه والآلام التي عانتها في الدنيا[٣٤].

ولم يكن فيما عرض الحاتمي من أشعار ما يتصل بهذه الحكم التي ذكرناها[٣٥] وسلك بعض الباحثين سبيل الموازنة بين أبيات المتنبي وحكم أرسطو ، للوصول الى ما استمده من الفلسفة وما كان بعيدا عنها . نرى هذا

(٣٧) المصدر نفسه ١٥٦
(٣٨) الرسالة الحاتمية ١٤٨
(٣٩) المصدر نفسه ١٥٠
(٣٠) في النفس والعقل ١٤٥
(٣١) المصدر نفسه ١٥٨
(٣٢) المصدر نفسه ٣٤
(٣٣) المصدر نفسه ٥١
(٣٤) المصدر نفسه ٣٥
(٣٥) التبيان . العكبري ٤ : ١٦٣ ، ١ : ٣٧١ ، ٢ : ٢٩٤ ، ٢ : ٣٩٠

المنهج لدى زكي مبارك الذي قارن بين الشعر والحكم مصدرا بعض الاحكام العامة ، نحو قوله بان بيت المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل[٣٦]

أقل وضوحا من قول ارسطو «قد يفسد العضو لصلاح أعضاء كالكي والفصد اللذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها»[٣٧]. واحكام مشابهة يصف بها شعر المتنبي بأنه : «أقل قيمة من الحكمة ، أقل عمقاً ، أقل تعليلا ، أروع بلا جدال» .

دون أن يبذل جهدا في دراسة الأبيات والحكم أو تعليل هذه الأحكام التي أوردها .

وقد توصل محمد مندور من تتبعه لأشعار المتنبي وحكم أرسطو الى أن الحاتمي قد افتعل كثيرا مما رآه اتفاقا بين الأبيات والحكم ، وذهب الى ان الشاعر - وان وافق في بعض اقواله حكم أرسطو - فإنّ هذا الاتفاق في الغالب وليد المصادفة ، ويؤيد ذلك قرب معاني هذه الابيات وصياغتها العربية التي يراهابعيدة عن الاقتباس أو الأخذ من أرسطو[٣٨]. وقد استشهد مهدي علام على وجهة نظره المماثلة لما ذكر ببعض الحكم التي وردت مسجوعة مايشي بأثر الصناعة العربية عليها[٣٩].

على ان ورود هذه الحكم - في هذه الصورة التي تتسم بطابع الأساليب النثرية العربية - لا يخرجها من دائرة حكم ارسطو إن وافق مضمونها ما وصلنا من آراء أرسطو الفلسفية ؛ فان ذلك أثر الترجمة العربية ، وقد تكون عباراتها من انشاء الحاتمي وأمثاله من الأدباء الذين تداولوها . ومن ذلك قول أرسطو : «كل شيء يستطاع نقله الى انطباع»[٤٠] الذي تحول لدى

---

(٣٦) المصدر نفسه ٣ : ٨٦

(٣٧) النثر الفني . زكي مبارك ٢ : ١١٦

(٣٨) النقد المنهجي عند العرب . محمد مندور ٢١٠

(٣٩) فلسفة المتنبي . محمد مهدي علام . صحيفة دار العلوم ، العدد الأول ، يونية ١٩٣٦ ص ١١

(٤٠) تاريخ النقد . احسان عباس ٢٤٦ ، عن المبشر بن فاتك ٢٠٠

الحاتمي الى : «روم نقل الطباع من ذوي الاطماع شديد الامتناع»[٤١].

وقد قدمت الرسالة الحاتمية دليلا على أن الشاعر عاش في مناخ الفكر الفلسفي ، وعلى أن هناك شبه اجماع على استفادة المتنبي من هذا المناخ الى حد كبير ، مما دفع الحاتمي الى استقصاء أقواله المستمدة من الفلسفة بهذه الصورة التي أوردها في رسالته التي أصبحت مرجعا لكثير من الشارحين والنقاد في مؤلفاتهم .

ولعل تركيز الحاتمي على هذا الجانب من ثقافة الشاعر جعله يغفل عن حقيقة على جانب من الأهمية ، وهي ان حكم الشاعر ونظراته الفلسفية انما هي نتاج عقله بتأثير ثقافته وتكوينه الفكري ، ولم تكن هذه الثقافة مقتصرة على الفلسفة بل تألف إطارها من معارف أخرى ؛ ولذا فان باستطاعة الباحث أن يجد لهذه الحكم التي سردها الحاتمي مصادر أخرى بخلاف فلسفة ارسطو كالقرآن وحديث الرسول وامثال العرب .

وقد وضع الحاتمي بهذه الرسالة نموذجا واسعا للبحث عن تأثر الشعراء بمعاني الفلسفة ، وقد سار بعض معاصريه في هذا السبيل في صورة ملاحظات ترد بين الفينة والاخرى يوردون فيها ما رأوه مماثلا لبعض اقوال الفلاسفة من شعر المتنبي . نرى ذلك عند ابن جني الذي عد قول المتنبي :

يريد من حب العلى عيشه ولا يريد العيش من حبه[٤٢]

من قول بعض الفلاسفة «الناس يريدون الحياة ليأكلوا ، وانا آكل لأحيا»[٤٣] كذلك ذهب المهلبي الى أن بيت المتنبي :

سُبِقنا الى الدنيا فلو عاش أهلها مُنِعنا بها من جيئة وذهوب[٤٤]

انما هو مأخوذ من قول بعض الحكماء لبعض الملوك لما قال : ما أطيب

---

(٤١) الرسالة الحاتمية ١٤٥

(٤٢) التبيان . العكبري ١ : ٢١٤

(٤٣) النظام في شرح ديوان المتنبي وأبي تمام : ابن المستوفي (خ ١ : ٤٥٥ ب)

(٤٤) التبيان . العكبري ١ : ٥٠

الملك لو دام ، فقال : لو دام لم يصل اليك»[٤٥].

ولجأ فريق اخر الى أسلوب الموازنة بين أبيات المتنبي وما ذكر الحاتمي من حكم ارسطو ؛ للوصول إلى ما استمده من الفلسفة وما كان بعيدا عنها . وقد رأينا هذا المنهج عند بعض القدماء كابن فورجة الذي وقف عند بعض أقوال الحاتمي مبينا اوجه الضعف في بعضها ، مصدرا بعض الملاحظات التي تميزت بشيء من الدقة ، كأن يبحث عما ساق الحاتمي الى الربط بين بعض أشعار المتنبي واقوال أرسطو مثل قوله :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا ... لمن بات في نعمائه يتقلب[٤٦]

قال «يجوز ان يكون توهم (الهاء) في نعمائه عائدة الى من بات . وان كانت عائدة اليها كان المعنى مأخوذاً كما ذكر من قول ارسطو طاليس ، وانما الهاء عائدة على الممدوح ، ومعنى البيت ان انعامه فائض على كل أحد فأظلم الناس من يحسد من نال خيره ، اذ كان خيره مبذولا لكل واحد ، فلم يبق للحسد وجه.اذ كان يقدر أن ينال مثله كل احد وانما هذا مثل قوله :

لايحرم البعد أهل البعد نائله ... وغير عاجزة عنه الأطيفال[٤٧]

فقد حاول ابن فورجة ان ينفي صلة البيت بقول أرسطو بهذه الصورة التي انساق فيها وراء تأويل بعيد غير موافق لسياق القصيدة ، ودليلنا على هذا قول الشاعر فيما سبقه من أبيات :

يريد بك الحساد ماالله دافع ... وسمر العوالي والحديد المذرب
اذا طلبوا جدواك أعطوا وحكموا ... وان طلبوا الفضل الذي فيك خيبوا
ولو جازأن يحووا علاك وهبتها ... ولكن من الأشياء ماليس يوهب[٤٨]

---

(٤٥) المآخذ - المهلبي (خ - ١١١ أ)
(٤٦) التبيان . العكبري ٣ : ٢٤٦ ١ : ١٨٥
(٤٧) الفتح على أبي الفتح . ابن فورجة ٦٩
(٤٨) التبيان . العكبري ١ : ١٨٤

يكون الشاعر قد تأثر فيه بقول أرسطو «أقبح الظلم حسد عبدك الذي تنعم عليه لك»[٤٩]

وقال ابن فورجة مبينا الفرق بين حكمة ارسطو «من علم أن الكون والفساد يتعاقبان على الأشياء لم يحزن لورود الفجائع ؛ لعلمه أنه من كونها ، وهان ذلك عليه لعجز الكل عن دفع ذلك»[٥٠] وقول الشاعر :

اذا استقبلت نفسُ الكريم مصابَها بخبث ثنت فاستدبرته بطيب
وللواجد المكروب من زفراته سكون عزاء أم سكون لغوب[٥١]

فقال : «قول أرسطو تسلية وهداية الى طريق العقل ، وقول ابي الطيب يريد به ان الكريم مراجع لعقله صبورٌ على عزائمه مفتقر للعظائم»[٥٢] وقد انتهى ابن فورجة الى رد هذا البيت الى الموروث الشعري ؛ فلم يكن الشاعر بحاجة في مثل هذا المعنى الذي طرقه كثير من الشعراء الى قول ارسطو .

وعلى الرغم من وقوف ابن فورجة عند كثير من الأبيات التي ذكرها الحاتمي ، ودراسته لمواطن الضعف في بعضها مظهرا خطأ الحاتمي في ردها الى أقوال أرسطو ، فقد حاول أن يضيف الى عمل الحاتمي بعض ما بدا فيه اكثر تعسفا من كثير من أقوال الحاتمي ، كمحاولته ايجاد صلة تربط بين قول المتنبي :

لقد ظلت أواخرها الأعالي مع الأولى بجسمك في قتال[٥٣]

وقول الفلاسفة : «أول الفكرة آخر العمل ، وآخر العمل أول الفكرة»[٥٤] .

ويبدو للقاريء بوضوح قصد الشاعر من البيت ، وهو تصوير حسد

---

(٤٩) الرسالة الحاتمية ١٥٢
(٥٠) المصدر نفسه
(٥١) التبيان العكبري ١ : ٥٥
(٥٢) الفتح على ابي الفتح . ابن فورجة ٧٧ ـ ٧٨
(٥٣) التبيان العكبري ٣ : ٢٤٦
(٥٤) الفتح على ابي الفتح . ابن فورجة ٢٦٠

الثياب التي بدت للناظرين لما تلا جسم الممدوح من ثياب لقربها منه ، ولم يكن ابن فورجة بحاجة الى بيان مرمى الشاعر بقوله أن ثيابه الأعالي هي اواخر ما يلبس اذا كانت أوائلها هي التي تلي جسده .

ولم نر في مثل هذه الملاحظات نصا على اسم الفيلسوف صاحب القول ؛ مما يؤكد ما ذكرناه آنفا من ان الاهتمام كان موجها إلى مادة هذه الحكم دون الالتفات إلى قائليها .

والتفت بعض النقاد الى مصدر مختلف للبحث عن مادة حكم المتنبي في حكم الفرس التي وظفت في شعر الشعراء قبل الفلسفة اليونانية لقدم عهدها عن الفلسفة لدى الفكر العربي ؛ لذلك فقد رأى أبو هلال العسكري ان المتنبي ألم في قوله :

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهي المحل الثاني[٥٥]

بقول ابرويز : «لا يشحذ امرؤ منكم سيفه حتى يشحذ عقله» .[٥٦]

ويمكن للباحث أن يتوصل الى معرفة مكونات ثقافة الشاعر الفلسفية باستقراء الشواهد التي عرضها النقاد لما رأوا فيه أثرا فلسفيا من شعره ، وقد تألفت هذه الثقافة من :

أولا : بعض آراء الفلاسفة والمتكلمين فيما يتعلق ببعض القضايا التي شغلت جانبا واضحا من الفكر الديني والفلسفي : كقضية الحياة والموت ، والعلاقة بين النفس والبدن ، وأصل الوجود ، وغير ذلك من الآراء التي تتصل ببعض القضايا الفلسفية الخاصة .

ثانيا : بعض أقوال فلاسفة اليونان : كأرسطو وافلاطون وغيرهم من حكماء اليونان الذين بحث تأثره بآرائهم فيما يتصل بالفلسفة الاخلاقية ، التي وجد فيها المتنبي مادة غنية استمد منها حكمه وأمثاله التي مثلت جانبا

---

(٥٥) التبيان ٤ : ١٧٤

(٥٦) ديوان المعاني . ابو هلال العسكري ٢ : ٩١

واضحا في شعره في مختلف مراحله . وتعد الرسالة الحاتمية أهم مصدر لدراسة هذا الجانب من ثقافته الفلسفية ، الى جانب غيره من النقاد الذين مسوا هذا الجانب مسا خفيفا محتذين نهج الحاتمي .

ويجدر بنا أن نشير الى ان اشارة الشاعر الى بعض القضايا الفلسفية لم تشغل حيزا واضحا في ديوانه ، وهي اشارات عابرة ترد من فينة لأخرى استجابة لبواعث من نفس الشاعر ، تحمله على التطرق لبعض القضايا من وجهة نظر فيها أثر لبعض ما عرفه الشاعر من آراء فلسفية كانت مدار بحث وجدل كبيرين . ترد بعض هذه اللمحات في قصائد رثاء حين يكون الحزن باعثا قويا على التفكير في المصير ، أو في حديث اكثر حرارة حين يأخذ الشاعر الحماس وعنف الشجاعة ؛ للاستهانة بمصير الانسان والتفكير في الموت من وجهة نظر فيها قدر من الاندفاع الذي يظلله الايمان ببعض الغيبيات .

تخالف الناس حتى لااتفاق لهم الأعلى شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب[57]

وقد تطرق الشاعر هنا الى قضية العلاقة بين الجسم والنفس وما يحدث بعد الموت ، مشيرا الى ماثار حول هذا الأمر من جدل بين القائلين بفناء الأرواح ، ومن ذهبوا الى خلودها .

ولعل ما نعرفه من معارف الشاعر الدينية وما اطلع عليه من آراء فلسفية يسمح لنا بتصور مدى فهم الشاعر لهذا الخلاف .

فعلى صعيد الفلسفة اليونانية قد تكون الابيات اشارة الى اختلاف الفيلسوفين افلاطون وارسطو : فالأول يرى عودة الروح بعد فناء الجسم الى عالم المثل لتخلد فيه[58]، أما ارسطو فلم ير للروح وجودا خاصا مستقلا عن الجسم ، وهي لديه عرض لا يقوم بنفسه ويفنى بفناء ما يقوم به[59].

(٥٧) التبيان . العكبري ١ : ٩٦
(٥٨) في النفس والعقل . محمود قاسم ٣٦
(٥٩) المصدر نفسه ٧١

وقد يكون الشاعر يومىء بمثل هذه الابيات الى الخلاف بين المقرين بالبعث - من أصحاب الديانات - وبين من انكروه : كالدهرية التي لاتؤمن بحياة أخرى ، وتنكر البعث والثواب والعقاب(٦٠).

ولم يصدر الشاعر في مثل هذه الابيات عن روح اسلامية تقر بالغيبيات وانما نم عن روح مفكرة متشوقة لمعرفة الحقيقة ، وترك الباب مفتوحا أمام الباحثين لتأويل قوله بمذاهب شتى حين ختم البيتين بقوله :

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أمامه الفكر بين العجز والتعب

وقال مرة أخرى :

الف هذا الهواء أوقع في الانـ ـفس أن الحمام مر المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لايكون بعد الفراق(٦١)

والبيتان من القصيدة أتى فيها الشاعر على ذكر من يداجي الممدوح ولا يجاهره بالحرب جبنا وخوفا حيث قال :

قل نفع الحديد فيك فما يلـ ـقاك الامن سيفه من نفاق(٦٢)

ثم قدم تعليلا منطقيا لفرار هؤلاء من مواجهة الممدوح ، وهو إلف ارواحهم لهذا الهواء الذي ألقى فى روعهم مرارة الموت وصعوبته ، ولولا ذلك لما كان للموت هذه المرارة ؛ اذ أن الموت نهاية الشعور ، فكيف يأسى المرء على ما لن يحس به عند وقوعه ؟ وما ذلك الا عجز من الانسان عن ادراك الحقيقة .

ويمكن القول ان عد هذين البيتين من الفلسفة يعود الى تفسير بعضهم للبيت الثاني بأنه انكار للبعث والمعاد وقول بفناء الروح بموت الجسم فلا تحس بما يكون من الفراق بينهما ، وذلك ميل الى مذهب الملحدين فيما يرى بعض المفسرين(٦٣) .

---

(٦٠) دائرة المعارف الاسلامية (دهرية) ٩ : ٣٣٧
(٦١) التبيان . العكبري ٢ : ٣٦٩
(٦٢) المصدر نفسه ٢ : ٣٦٩
(٦٣) المصدر نفسه ٢ : ٣٧٠

وقد يكون البيت ايماء لنظرية المثل التي ترى النفس سماوية المنشأ ، وهي بالموت انما تعود الى العالم الذي هبطت منه ، فلا حزن ولا أسى على مفارقة الجسد الفاني . وقد اخطأ الحاتمي حين قرن البيت بقول أرسطو : «النفوس البهيمية تألف مساكنة الأجساد الترابية ؛ فلذلك تصعب عليها مفارقة أجسامها ، والنفوس الصافية بضد ذلك[٦٤]» إذ أن هذا القول أقرب الى نظرية المثل التي ترى الروح الخاطئة غير قادرة على العودة الى عالمها العقلي ؛ لما لحقها من أوساخ وأدران وما ارتكبته من آثام ، فهي ماتزال في علو وهبوط في أجساد أخرى حتى تكفر عن خطاياها فتدخل في عالم النفوس الخالد[٦٥] .

وقد تعرض الشاعر لمسألة فلسفية تتعلق بأصل الانسان في قوله :

نحن بنو الموتى فما بالنا　　نعاف ما لابد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا　　على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه　　وهذه الاجسام من تربه[٦٦]

قد يتكهن البعض ان الشاعر أشار الى الدهرية ، التي ثبت اطلاعه على شيء من آرائها بنص من شعره . وقد تأثر برأيهم في القول بقدم العالم ورد الظواهر الى فعل القوانين الطبيعية .

وقد يفترض ان الشاعر قد أومأ الى مذهب الهوائية ، وهي احدى المذاهب الفلسفية التي نشأت لدى اليونان للبحث عن الأصل أو المبدأ الذي خرجت منه جميع الظواهر المادية ، وقد تأثر الشاعر برأيه في نشأة الانسان برأي انكسيمانس في ان الهواء هو المبدع الأول[٦٧]، وقد يكون لهذه الابيات تأويلات أخرى غير ما ذكره .

وهكذا يجد المرء نفسه أمام تأويلات متعددة لفهم أصل هذه النظرة

---

(٦٤) الرسالة الحاتمية ١٥٩
(٦٥) في النفس والعقل . محمود قاسم ٣٦
(٦٦) التبيان . العكبري ١ : ٢١٢
(٦٧) الملل والنحل . الشهرستاني ٢ : ١٢٥

الفلسفية الى الانسان كمخلوق يسير نحو مصيره المحتوم الذي لا مفر له منه .

وقد انبثقت هذه الآراء في شعره من مصادر مختلفة ، وهو ما دعا الأصفهاني الى القول بأن «ما دل عليه شعره فمتلون»[٦٨] . ولسنا بحاجة الى القول بأن هذه الآراء لا ترتبط بمعتقد الشاعر ، إذ ان تضاربها وتنوعها لا ينم عن اتجاه واحد ثابت ، وما هي الا محاولة من الشاعر لعرض شيء من كل شيء في شعره ، بقدر واضح من الحرية في التعبير عن آراء انكرها المسلمون انكارا يليق بهم كموحدين .

ودل بيت من شعره على المامه ببعض آراء السوفسطائية في قوله :

هوّن على بصر ماشق منظرُه   فانما يقظات العين كالحلم[٦٩]

وفي البيت دعوة الى الصبر على ما يصادفه المرء في حياته من المكاره بأنها لا تدوم وسرعان ما تنقضي كانقضاء الأحلام .

واقتران مرور الايام بانقضاء الأحلام من المعاني التي قد تُرى في شعر غيره ، كقول أبي تمام :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام[٧٠]

وقد عد أبو القاسم الاصفهاني البيت اشارة الى مذهب السوفسطائية[٧١]، وهو يعني بذلك نظرية المعرفة لدى السوفسطائية التي تنكر حقائق الاشياء لأنها تشك في الادراك الحسي الذي يوصل الى العلم ، وهذا ما أراده الشاعر بتهوينه لشأن ما يشاهده المرء لسرعة تحوله أو انقضائه .

ويبدو قول الاصفهاني معقولا الى حد كبير ، وقد ذكر البيت غيره من النقاد كالثعالبي دون بيان لصلة قول الشاعر بمذهب فلسفي بعينه[٧٢] ، أما

---

(٦٨) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . أبو القاسم الأصفهاني ٧
(٦٩) التبيان . العكبري ٤ : ١٦٢
(٧٠) ديوان أبي تمام ٣ : ١٥٢
(٧١) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . الأصفهاني ٧
(٧٢) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ١٤٦

الحاتمي فقد أورده مقرونا بقول ارسطو «كرور الأيام أحلام وغذاؤها أسقام»[73] وهذا القول - وان بدا مقاربا لقول الشاعر - ضرب من تزيد الحاتمي في ايراد الحكم ؛ لأن ما ذكره من المعاني المتداولة لدى غير المتنبي من الشعراء .

وقد نرى في بعض أبياته اشارة الى مسألة كلامية كقوله :

أعطى الزمان فما قبلت عطاءه وأراد لي فأردت أن أتخيرا[74]

يمكن القول ان بالبيت ايماء الى مشكلة الجبر والاختيار التي كانت مدار خلاف بين المتكلمين ، وبدا في قول الشاعر ميل الى اثبات القدرة على اختيار الفعل ، حين صرح بأنه لم يرض بعطاء الزمان وأراد أن يتخير لنفسه بارادته .

ولم يستطع الشاعر هنا أن يروض هذه الفكرة الكلامية لصياغته الشعرية ومن ثم فقد بدا بالبيت شيء من الغموض . ولم يرد فيما سبقه أو تلاه من أبيات ما يبين به مقصود الشاعر بصورة واضحة ؛ إذ ان البيت منقطع عما حوله .

٢ - أقوال الفلاسفة :

ويجدر بنا أن نلتفت في عرضنا لهذا الجانب الى الدوافع التي قادت الشاعر إلى اختيار هذه الأقوال دون غيرها ، ومدى ارتباط هذا الاختيار بموضوع القصيدة وسياقها ، وكيف استطاع عرضها في شعره .

ويلاحظ ان جانبا من أبيات الحكمة تماثل الى حد كبير ما أثر عن ارسطو مقترنا بها في الفكرة والتعبير ، نحو قوله :

وأتعب خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهي النفس وجده[75]

وقال أرسطو :

---

(٧٣) الرسالة الحاتمية ١٥٣

(٧٤) التبيان . العكبري ٢ : ١٦٣

(٧٥) المصدر نفسه ٢ : ٢٢

«أتعب الناس من بعدت همته، واتسعت معرفته،وضاقت مقدرته»[٧٦]

وقوله :

فلامجد في الدنيا لمن قل ماله ولامال في الدنيا لمن قل مجده[٧٧]

وقال أرسطو :

«أعظم الناس محنة من قل ماله وعظم مجده»[٧٨]

وقد تفسر هذه الظاهرة بأنها أثر لعمل الذاكرة في النظم : إذ تداعت اليها هذه الحكم من محفوظ الشاعر ، فجاءت مطابقة لما ذكر الفيلسوف دون وعي من الشاعر ، وقد تقرن هذه الأبيات بنظيرها من شعره الذي لاحظنا مماثلته لأبيات غيره ممن حفظ شعرهم ، وان كان بالشعر عوامل تكمن وراء مثل هذا التماثل لا تتوافر في النثر ، كوحدة الوزن والقافية .

وقد يكون الامر مجرد توارد خواطر بين الشاعر والفيلسوف ؛ فقد كان هذان البيتان مما أنشده الشاعر في مصر في فترة نضجت فيها تجربته وزادت آلامه ، فصدر في حكمته عن معاناة حقيقية .

وللظاهرة تفسير آخر نستقيه من تفهمنا لشخصية الحاتمي والدوافع الكامنة وراء تأليف مؤلَّفه ، وهو انه قد تعمد صياغة مارآه من حكم أرسطو بصورة مماثلة لأبيات الشاعر ؛ لتأكيد تأثره بهذه الحكم ، وقد لا تتعدى الظاهرة - إن اطلقنا لأنفسنا العنان في الحكم على الحاتمي - أن تكون نثرا لأبيات الشاعر في عبارات تشبه ما نقله الحاتمي من حكمة أرسطو .

ولعل مايؤكد لنا أن مرد التشابه محض اتفاق بين الشاعر والفيلسوف في بعض اقوالها تماثلها في بعض الآراء التي قد ترد على كثير من الناس غيرهما ، نضرب مثلا لذلك يقول المتنبي :

---

(٧٦) الرسالة الحاتمية ١٥١

(٧٧) التبيان ٢ : ٢٣

(٧٨) الرسالة الحاتمية ١٥١

أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم[٧٩]

فقد افترض احسان عباس ان الشاعر قد تأثر في هذا المثل بقول افلاطون «الفقير اذا تشبه بالغني في الهيئة كان مثل الوارم الذي يوهم الناس انه سمين»[٨٠]. وبذلك استمد المتنبي الصورة التي اوردها أفلاطون للتدليل على فكرته في التمييز بين من كانت الخلة أصيلة فيه وبين من تشبه به ، وقدمها في معرض عتابه لسيف الدولة داعيا اياه لادراك التباين بين من كان شاعرا أصيلا مثله ومن ادعى ذلك من المتشاعرين ، ممن ناصبوه العداء في مجلس الأمير . وقد يعمد الشاعر في أسلوب اقناعي في ايراده لبعض امثاله التي ساقها الحاتمي فيما وافق به كلام لرسطو ، مما يعزز رأي الحاتمي الى حد ما . من ذلك قوله :

وشبه الشيء منجذب اليه   وأشبهنا بدنيانا الطغام[٨١]

فقد تحدث الشاعر عن نظرة صائبة في تألف الاشياء والاشخاص أو اختلافهم : فكل جماعة أو فئة تبحث عن نظائرها وتنجذب إلى مثيلها . والبيت من قصيدة استهلها الشاعر بقوله :

فؤاد ما تسليه المدام   وعمر مثل ما تهب اللئام[٨٢]

فقد أسف الشاعر على قصر المدة في الحياة ، فلا يخوّل للمرء نيل مآربه وتحقيق آماله ومطامحه فيها ؛ فالأعمار محدودة متناهية في القصر ، وهي في ضآلتها وحقارتها أشبه بعطاء اللئام . ومضى الشاعر فيما تلا من أبيات في السبيل الذي مهد له بهذا المطلع إذ مضى يذم أهل الدهر بالجبن والصغار ، وانهم لا عقول لهم يحفظون بها ذمم الناس ومع ذلك فقد ملكوا وولوا أمورهم ، وهنا صب الشاعر جام غضبه على الدنيا التي واتت أمثال هؤلاء

(٧٩) التبيان . العكبري ٣ : ٣٦٦
(٨٠) تاريخ النقد الأدبي عند العرب . احسان عباس ٢٤٩ عن مختار الحكم للمبشر بن فاتك ١٧٥
(٨١) التبيان ٤ : ٧١
(٨٢) المصدر نفسه ٤ : ٦٩

الأرذال الجهلة ؛ وما ذلك الا لأنها تماثلهم في اللؤم والدناءة ، وكل ينجذب الى مايماثله ومن يماثله .

وقد أورد الشاعر هذا المثل في صورة قياس منطقي استمد احدى مقدمتيه مما أثر عن أرسطو ، مما أضفى على البيت سمة منطقية .

واذا كانت الأشباه تتقارب فان الأضداد اذا اجتمعت ظهر تنافرها وهذا ماذكره الشاعر :

وتُذيمهم وبهم عرفنا فضله ... وبضدها تتبين الأشياء[٨٣]

فقد ظهر فضل الممدوح عندما قيس بلؤم غيره ، ممن ذكر الشاعر في قوله :

من يظلم اللؤماء في تكليفهم ... أن يصبحوا وهم له اكفاء

وقد سار الشاعر في ضوغ هذا المثل على النسق الذي رأيناه في البيت السابق من هذه الصياغة التي بنيت على مايشبه القياس ، وتبدو الصلة ممكنة بين البيتين وقول ارسطو : «الأشكال لاحقة بأشكالها كما ان الأضداد مباينة لأضدادها»[٨٤]

مما يبيح لنا ان نقر بتأثر الشاعر في مثل هذا البيت بمحفوظه من الحكم .

وقد أدار الشاعر بعض أبياته على محور واحد مستمد من حكم أرسطو ، ومثالنا على ذلك ما يلي :

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل[٨٥]

لكي يصور الشاعر شدة تمكن حب من تغزل بها من قلبه جعله بمنزلة الطباع التي لا يستطيع المرء تغييرها ، وللشعراء في مثل ذلك أقوال . كما للعباس بن الاحنف :

لا تحسبيني عنكم مقصرا

اني على حبكم مطبوع

---

(٨٣) التبيان ١ : ٢٢

(٨٤) الرسالة الحاتمية ١٥٧

(٨٥) التبيان ٣ : ٢٢

ويبدو الأثر الفلسفي في تركيب عبارة البيت الثاني ، وفي صياغة الشاعر للفكرة : حيث وردت في صورة قياس منطقي محذوف النتيجة ، واستخدامها للتدليل على ماذهب اليه في الشطر الأول من استحالة نسيانه لمن أحب .

وقال مرة أخرى :

ابى خلق الدنيا حبيبا تديمه فما طلبي منها حبيبا ترده
وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شيء في طباعك ضده[٨٦]

أشار الشاعر في البيت الأول الى تقلب أحوال الدنيا التي لا تديم حبيبا فان ساعفت بقرب حبيب فذلك أمر ليس من طباعها ، ومن ثم فقد قضى أن تعود الى عهدها في التفريق بين الأحبة . وقد أورد الشاعر تعليلا لما ذهب اليه في البيت الأول مستمدا قول أرسطو :

«تغير الأفعال التي هي غير مطبوعة أشد انقلابا من الريح الهبوب» .[٨٧]

ولعل الشاعر لم يستطع أن يفلت من تأثير الفكرة الفلسفية فبدا البيت قلقا بعض الشيء . أما البيتان التاليان فقد أدارهما الشاعر مفرقا بين الطبع والتطبع ، وكلاهما مستمد من قول أرسطو «مباينة التكلف للمطبوع كمباينة الحق للباطل»[٨٨].

وللنفس أخلاق تدل على الفتى أكان سخاء ماأتى أم تساخيا[٨٩]
لأن حلمك حلم لاتكلفه ليس التكحل في العينين كالكحل[٩٠]

فقد استدل الشاعر في البيتين بالتمثيل لاثبات ما ذهب اليه في الشطر الأول بان ساق لأثبات الفكرة التي قد يشك في صحتها صورة مماثلة يتضح بها

(٨٦) التبيان ٢ : ١٩
(٨٧) الحاتمية ١٥١
(٨٨) المصدر نفسه ١٤٧
(٨٩) التبيان ٤ : ٢٨٤
(٩٠) المصدر نفسه ٣ : ٨٧

مراده .

وقد اقتدر الشاعر هنا على ترويض فكرة الحكمة وتحويلها الى صورة شعرية ، وان حفظ ايراده لتشبيه التمثيل سمة التفكير العقلي للفكرة .

على ان جانبا كبيرا مما أورده الحاتمي من حكم استطاع المتنبي أن يسبغ عليه من تجربته الشعرية ، مما جعله عامرا بالعواطف والاحساسات ، فغدت هذه الحكم قسما من القصيدة أغناه الشاعر بعمق النظرات الفلسفية المستمدة من حكم الفلاسفة .

وتتعدد النماذج التي نجح الحاتمي في عرض ما وافقها من أقوال أرسطو ، من ذلك قوله :

وترى الفتوةُ والمروةُ والابو ةُ في كل مليحة ضراتها
هن الثلاث المانعاتي لذتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها[٩١]

وقد ختم الشاعر بالبيتين فقرة في الغزل استهل بها القصيدة وسبقها بقوله :

اني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلاتها

والبيت فيما يرى الحاتمي من قول ارسطو «النفوس المتجوهرة تترك الشهوات البهيمية طبعا لا خوفا»[٩٢] وقد أضفى عليها الشاعر صورة جعلتها أقرب الى الطابع الشعري ، وان بدا شيء من القلق في سبك البيت الأول . ولعل ذلك كان سبباً في اختلاف رواية البيتين حيث رويا على الوجهين برفع المروة وما عطف عليها ، ونصب كل باسناد الفعل الى المروة أو نصبها المروة بتأخير الفاعل ، ويبدو الأخير اكثر ملاءمة لمراد الشاعر وللتعليل الذي قدمه في البيت التالي .

ومن ذلك قوله :

---

(٩١) التبيان . العكبري ١ : ٢٢٧
(٩٢) الحاتمية ١٥٥

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا[٩٣]

ذكر الشاعر ان هؤلاء المتشاعرين رأوه داء عضالا لا دواء له ؛ اذ أنهم لا يملكون منافسته والتفوق عليه ، ولكي يصل الشاعر إلى غايته من ثلب الجاهل وكشف نقصه فقد أبرز المعنى في إطار تمثيل . ونقل المعنى من صورته الأصلية الى هذه الصورة ، ولم يكن الشاعر ليبلغ هدفه بهذا التأثير في النفس لو انه سلك المعنى الظاهر من العبارة : وهو ان من كان الفساد بطبعه رأى في المعاني خلاف ما قصد منها ، وهو ما يفترض انه استقاه من قول الحكيم «على قدر بصيرة العقل يرى الانسان الأشياء : فالسالم العقل يرى الاشياء على حقائقها ، والنفس اللئيمة ترى الاشياء بطبعها»[٩٤] ومثل ذلك قوله :

فقر الجهول بلاعقل الى ادب فقر الحمار بلارأس الى رسن[٩٥]

ورد البيت نهاية لأبيات أوردها الشاعر في الهجاء وانتهى منها الى الانحاء على نفسه باللوم ؛ لأن أمثاله من الجهال لا يستحقون اللوم على ترك الفضيلة وكريم الخلق ؛ فمن افتقر الى العقل ليس بحاجة الى الأدب وما أشبهه بحمار بلا رأس ، أيحتاج الى رسن ؟

وقد عد الحاتمي البيت موافقا لقول ارسطو «الحس قبل المحس والعقل قبل المعقول»[٩٦] ويبدو البيت قريب الصلة مما ذكر الحاتمي ، واستطاع المتنبي أن يتخذ التمثيل وسيلة لاداء المعنى وقوله :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجيء اليها اللئام[٩٧]

والبيت - كما يرى الحاتمي - موافق لقول ارسطو : «الفرق بين

---

(٩٣) التبيان ٣ : ٢٢٨
(٩٤) الحاتمية ١٥٥
(٩٥) التبيان ٤ : ٢١١
(٩٦) الحاتمية ١٥٦
(٩٧) التبيان ٤ : ٩٣

الحلم والعجـز ان الحلم لا يكون الا عن قدرة والعجـز لا يكون الا عن ضعف ، فليس للعـاجز أن يتسـمى باسـم الحليم وهو عاجـز»[٩٨]. والحلم كما هو معروف من القيم العربية الأصيلة التي تغنى بها الشعراء ، وكان بمقدور الحـاتمي أن يرى لمثل هذا البيت نظائر في محفوظه الغزير من الشعر العربي ، دون حاجة الى ايجاد مماثل لها في حكم الفيلسوف .

وان سلمنا بقول الحـاتمي فإن الشـاعر قد اسـتطاع أن يوجـز الفكرة ويركزها في اطار بيت مستقل عما حوله ، وإن سار على نسقها في ايراد مجموعة من أبيات الحكمة والمثل متتالية ويبدو قول المتنبي :

أصادق نفس المرء من قبل جسمه وأعرفها في فعله والتكلم[٩٩]

وثيق الصلة بما نقـل عن ارسـطو «الائتلاف بالجـواهر قبل الائتلاف بالأجسام»[١٠٠] وقد استطاع الشاعر ايجاز الحكـمة في المصراع الأول ، ثم اكمله بما يوضح مراده من النفس وهو ما اشتملت عليه من علم وخلق ، حين استدل على النفوس بما يصدر عنها من أقوال وأفعال .»

ومنها قوله :

إنا لفي زمن ترك القبيح به من اكثر الناس احسان واجمال[١٠١]

الذي رآه الحاتمي موافقا لقول أرسطو «من لم يقدر على فعل الفضائل فليكن فضائله ترك الرذائل»[١٠٢]

وقد أورد الشاعر هذه الحكمة ليبرز فضـل فاتك في كرمه وشـجاعته ، في هذا الزمن الذي خلا من الكرام والفضلاء ، وأصبح من فضـائل أهله التي تؤثر لهم تركهم للقبيح من القول والفعل فقال :

---

(٩٨) الحاتمية ١٥٢

(٩٩) التبيان ٤ : ١٣٥

(١٠٠) الحاتمية ١٥١

(١٠١) التبيان ٣ : ٢٨٧

(١٠٢) الحاتمية ١٥٣

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والاقدام قتال
وانما يبلغ الانسان طاقته   ما كل ماشية بالرجل شملال
انا لفي زمان ترك القبيح به   من اكثر الناس احسان واجمال

وقد طرق المتنبي هذا المعنى في قصيدة سابقة ، بقوله :

ومني استفاد الناس كل غريبة   فجازوا بترك الذم ان لم يكن حمد[103]

ولكن الحاتمي لم يشر الى شيء من هذا ، لأنه لم يعن بتتبع المعنى في شعر الشاعر لادراك ما تكرر من معانيه ، وقد استطاع الشاعر أن يمزج هذه الحكمة بآلامه ، ويخرجها وقد انصهرت في تجربته الشعرية وانعكس عليها تشاؤمه وتوجسه من الزمان وأهله .

وقال المتنبي من قصيدة يذكر فيها نهوض سيف الدولة لانقاذ ثغر الحدث من حصار الروم :

قصدوا هدم سورها فبنوه   وأتوا كي يقصروه فطالا
واستجروا مكايد الحرب حتى   تركوها لها عليهم وبالا
رب أمر أتاك لاتحمد الفعال   فيه ، وتحمد الأفعالا[104]

وقد أشار الحاتمي الى ان الشاعر استمد الحكمة في البيت الثالث من قول أرسطو «اذا كانت الأشياء فاعلة بالطبع لم تحمد على فعلها ؛ لأن الشمس لاتحمد على حرارتها وضوئها»[105]

واذا تأملنا السياق الذي قاد الشاعر الى هذا المثل فاننا نرى الشاعر بعيداً عن أرسطو في الباعث والاتجاه ؛ إذ أن الشاعر كان يمدح فعل الروم في تركهم لمكايد الحرب التي استخدموها في حصار المدينة بعد فرارهم مهزومين أمام سيف الدولة ، مما ادى الى انتفاع العرب بما خلفه هؤلاء وراءهم من عتاد فقاتلوهم به ؛ لذلك كان فعلهم محمودا على الرغم من كونهم غير محمودين .

---

(١٠٣) التبيان ٢ : ١٠
(١٠٤) التبيان ٣ : ١٣٨
(١٠٥) الحاتمية ١٤٩

اما أرسطو فقد ذهب الى ان ما كان بطبعه فاعلا لايحمد وان حمد فعله ، وأوضح الفكرة بالمثل الذي ضربه بالشمس التي لاتحمد كفاعلة ، وان حمد بثها للضوء والحرارة . وما حكمة الشاعر الا خلاصة تجربة خاضها واستطاع أن يركزها في اطار هذا البيت الذي ختم به هذه الفقرة من القصيدة .

من هذا المثل وغيره يتبين لنا ان الحاتمي افتقر في كثير من هذه الحكم التي أوردها الى تفهم الاطار العام للقصيدة التي وردت فيها هذه الحكم والامثال ، ومثل ذلك قوله :

اذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحول[١٠٦]

والبيت من قصيدة انشدها الشاعر عند رحيل سيف الدولة من انطاكية وقد نزل المطر ، قال فيها :

وما اخشى نبوك عن طريق وسيف الدولة الماضي الصقيل
وكل شواة غطريف تمنى لسيرك ان مفرقها السبيل
ومثل العمق مملوء دماء جرت بك في مجاريه الخيول
ومن أمر الحصون فما عصته أطاعته الحزونة والسهول

فالمثل الذي أورده الشاعر بمثابة رد على من تصور ان المطر سيعوق مسيرة سيف الدولة ، بأن من خاض غمار المعارك وأهوالها لا يتعذر عليه اجتياز الوصول ، التي لاتقاس بما اعتاد ان يتغلب عليه .

وقد ارتبط هذا القول بما سبقه من أبيات ، وصف فيها الشاعر اقتدار سيف الدولة على خوض مصاعب الطريق ؛ اذ انه اعتاد السير في مناطق قد غمرتها دماء قتلاه حتى امتلأ ماعمق منها بهذه الدماء .

وقد ذكر الحاتمي ان البيت يوافق قول أرسطو «من استمرت عليه الحوادث لم يألم بحلولها»[١٠٧] ويبدو جليا اختلاف القولين ، ومحاولة الحاتمي ايجاد

---

(١٠٦) التبيان ٣ : ٥

(١٠٧) الحاتمية ١٤٥

تآلف بين المختلفات ، ولو تأمل القصيدة لرأى ان صورة المثل انما هي نتاج للسياق الذي وردت فيه ، ولا علاقة لها بما ذكر ارسطو .

وثمة تساؤل يفرض نفسه في هذا المجال .. لماذا اتجه المتنبي الى الفلسفة يستمد منها حكمه ؟ هل كان ذلك اثرا طبيعيا لما ادركه عقل الشاعر من هذا الجانب من الثقافة الفلسفية ، فأظهره في شعره كغيره من آثار المعارف التي نالها ؟ أم ان الشاعر كان متأثرا في هذا الاتجاه بشروح فلاسفة المسلمين لكتاب فن الشعر لأرسطو ، ونعني بذلك اتجاه ابن سينا الى ربط الفلسفة بالشعر ربطا وثيقا حين أباح للشاعر أن يغترف من معاني الفلسفة ما شاء ، متوخيا في ذلك ما اشتهر منها ، مضيفا عليها ضروب التخييل الشعري(١٠٨). وقد كان شرح ابن سينا متمما لشرح الفارابي ؛ مما دفع شكري عياد الى ان يفترض ان ابن سينا استمد هذا الرأي من الفارابي الذي عاصر المتنبي(١٠٩)، وأيد هذا الفرض ان فكرة اجتماع التصديق والتخييل في الشعر التي اعتمد عليها ابن سينا - حين جعل الفلسفة وهي ضرب من التصديقات الخطابية مادة للأقاويل الشعرية - هذه الفكرة نقلها ابن سينا عن الفارابي ، الذي تحدث عن ايراد كثير من الشعراء للأقوال المقنعة التي هي مادة الخطابة ، الى جانب الأقوال المخيلة ، فيظن الناس انها شعر وهي في الحقيقة قول خطابي عدل به عن منهاج الخطابة(١١٠)

ويمكن القول ان شعر المتنبي كان صورة من هذا الرأي الذي عرضه ابن سينا ، وكأن ابن سينا في قوله هذا سجل تجربة المتنبي الشعرية ، كما يقول شكري عياد(١١١).

لقد أستمد الشاعر أقوال الفلاسفة في شعره ؛ اذ وجد فيها مادة

(١٠٨) فن الشعر لأرسطو . عبد الرحمن بدوي ٢١٣
(١٠٩) كتاب ارسطو طاليس في الشعر . تحقيق شكري عياد ٢٨٤
(١١٠) جوامع الشعر للفارابي . ضمن فن الشعر لأرسطو . تحقيق محمد سليم سالم ١٧٣
(١١١) كتاب ارسطو طاليس في الشعر . تحقيق شكري عياد ٢٨٤٠

خصبة لكثير من معاني الحكمة ، وهذا أمر كان معاصروه يعرفونه كما نقلنا فيما سبق من تخصيص الحاتمي لمؤلف خاص لهذه الظاهرة في شعره . وهو في ايراده لهذه الحكم كان يحاول أن يضفي عليها صياغة شعرية وان جانبه التوفيق في بعض الأحيان .

وقد كان حازم القرطاجني يرى المتنبي مثلا أعلى ، حث الشعراء على الاقتداء به ، من حيث مراوحته في معانيه بين مقنعاتها ومخيلاتها ، وايراد المعاني الاقتناعية تابعة للمعاني التخمينية التي هي قوام الشعر(١١٢)، وقد أشرنا الى هذه الظاهرة في طرحنا لبعض حكم الشاعر .

ولعل حازما كان منطلقا - في تأمله لهذا الجانب - من تصوره لاستجابة المتنبي لما عرضه الفلاسفة من الجمع بين التخييل والاقناع في الشعر مع ضرورة الالتفات الى ان بعض النقاد ـ السابقين على الفلاسفة الذين شرحوا فن الشعر ـ قد أشاروا الى مكان الحكمة في القصيدة ، مثال ذلك ما نقل عن الجاحظ من تحذير بناء القصيدة على الحكمة ، في قوله : «لو ان شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربري كان مفرقا في اشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه ولكن القصيدة إذا كانت كلها امثالا لم تسر ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء الى شيء لم يكن لذلك عنده موقع»(١١٣) .

ويتولد من هذا الفرض الذي عرضناه آنفا تساؤل آخر .. وهو هل تأثر المتنبي بالفكرة النقدية التي أثارها الفلاسفة بتأثير فن الشعر لأرسطو ، في عد الشعر بابا من أبواب المنطق ؟ .

نلاحظ ان الفارابي في حديثه عن العلوم عد الشعر بوصفه المبحث الثامن من مباحث المنطق(١١٤) . كما ميز القول الشعري عن غيره بقوله : «هو

---

(١١٢) منهاج البلغاء . حازم ٣٦٣

(١١٣) البيان والتبيين . الجاحظ ٢٠٦

(١١٤) أحصاء العلوم . الفارابي ١٧٤

الذي ليس بالبرهانية ولا الجدلية ولا الخطابية ولا المغناطيسية ، وهو مع ذلك يرجع الى نوع من انواع السولوجموس (القياس) أو ما يتبع القياس ، وأعني بقولي ما يتبعه الاستقراء والمثال والفراسة وما اشبهها ، مما قوته قوة قياس»[١١٥] .

ويلاحظ الدارس لشعر المتنبي أنه أورد في شعره بعض ضروب القياس الارسطي ، كما أكثر من بعض الأنواع البلاغية للصور الشعرية التي تقترب اقترابا واضحا من المنطق ، نحو تشبيه التمثيل وضرب المثل . قد تكون هذه الاستعانة بالمنطق انطلاقا من ارتباط الشعر أصلا بالمنطق لدى العرب ، من حيث انه كلام موجه الى الغير ، يحاول الشاعر من خلال مايورد فيه من اقوال مخيلة ايقاع معانيه في النفس . وقد كان المدح أبرز أغراض المتنبي الشعرية بما يتطلبه هذا الفن من اقناع للغير؛ فلجأ الشاعر الى الوسائل التي تعينه على ذلك مقتربا من منطقه الى حد ما . وقد يكون هذا الاتجاه الى المنطق دليلاً على تأثر الشاعر بأقوال الفلاسفة في عد الشعر قسما من اقسامه ، كما ذكرنا انفا .

ومن امثلة استعانة الشاعر بتشبيه التمثيل قوله :

فان تفق الأنام وأنت منهم ... فان المسك بعض دم الغزال[١١٦]

وان تكن تغلب الغلباء عنصرها ... فان في الخمر معنى ليس في العنب[١١٧]

وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام[١١٨]

فقد ادعي الشاعر في الأشطر الأولى من الأبيات أن بعض اجزاء الجنس قد تبلغ من الفضائل درجة تجعلها مميزة عن جنسها ، وكأنها لاتنتمي

(١١٥) رسالة في قوانين صناعة الشعراء . الفارابي ضمن كتاب فن الشعر لأرسطو . عبد الرحمن بدوي ١٥١

(١١٦) التبيان . العكبري ٣ : ٢٠

(١١٧) المصدر نفسه ١ : ٩١

(١١٨) المصدر نفسه ٤ : ٧٠

اليه اصلا . وقد احتاج الشاعر الى اثبات صدق مثل هذه القضية التي تبدو مستحيلة أو متشككا فيها بالتمثيل الذي أورده لاثباتها كقوله ان الخمر تتميز بكثير من الصفات التي لا نجدها في العنب الذي صنعت منه .

وقد اكثر المتنبي من الاستدلال بالتمثيل ، حتى ليورد في القصيدة الواحدة عددا واضحا منه ، كما في قصيدته في مدح سيف الدولة ومطلعها :

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل ... دعا فلبّاه قبل الركب والابل[119]

ومنها قوله :

والهجر اقتل لي مما أراقبه ... أنا الغريق فما خوفي من البلل

خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

لعل عتبك محمود عواقبه ... فربما صحت الأجسام بالعلل

لأن حلمك حلم لا تكلفه ... ليس التكحل في العينين كالكحل

وما ثناك كلام الناس عن كرم ... ومن يسد طريق العارض الهطل

ومثل هذه الأقوال أقرب الى التصديق والاقناع وأدخل منها في باب التخييل ، وهي اقرب الى المثالات الخطابية منها الى المحاكاة الشعرية[120] .

ومن أمثلة استعانته بالقياس الثلاثي قوله :

وحيد من الخلان في كل بلدة ... اذا عظم المطلوب قل المساعد[121]

فدى لك من يقصر عن مداكا ... فلا ملك اذن الا فداكا

ولو قلنا فدى لك من يساوي ... دعونا بالبقاء لمن قلاكا[122]

وزارك بي دون الملوك تحرجي ... اذا عن بحر لم يجز لي التيمم[123]

وغيرها من الشواهد الكثيرة التي بدت فيها هذه السمة ، فالبيت الأول على سبيل المثال قياس مضمر أي : (ثلاثي محذوف المقدمة الصغرى)

---

(١١٩) التبيان . العكبري ٣ : ٧٤

(١٢٠) تلخيص فن الشعر لأرسطو ، ابن رشد ، ضمن فن الشعر لأرسطو ، عبد الرحمن بدوي ٢٢٤ .

(١٢١) التبيان . العكبري ١ : ٢٧٠

(١٢٢) المصدر نفسه ٢ : ٣٨٥

(١٢٣) المصدر نفسه ٤ : ٩١

فالمقدمة الأولى هي قوله : اذا عظم المطلوب قل المساعد ، والنتيجة ان الشاعر قليل المساعد ، لأنه عظم المطلوب .

ومن الأمثلة على تأثره بالمنطق قوله :

وأنت أبو الهيجا ابن حمدان يا ابنه تشابه مولود كريم ووالد
وحمدان حمدون وحمدون حارث وحارث لقمان ولقمان راشد[١٢٤]

وقد وصف الصاحب بن عباد البيت بانه من الحكمة التي ذخرها ارسطو طاليس لهذا السلف الصالح[١٢٥] ، ويمكن القول ان ما حمل الصاحب بن عباد الى هذا الرأي هو هذا التسلسل المكرر لأسماء آباء واجداد الممدوح ، وتفصيل البيت الثاني لما أجمله الشاعر في البيت الأول من صحة تشبه الابن بأبيه ، حتى كأنه هو بقوله ان الممدوح هو أبوه لأن فيه كريم خلقه وأبوك ابوه ... الخ . كأننا أمام ضرب من الاستقراء المنطقي بافتراض صحة كون الابن اباه اذا اشبهه ، ثم استنتاج صحة الفرض فيما تلا من اسماء .

وقد اعترض ابن فورجة على قول الصاحب ؛ اذ انه لم ير في البيتين ما يدل على فلسفة في ضوء فهم للفلسفة بأنها رأي صائب أو ايراد معان غامضة لا يفهمها الا الفلاسفة[١٢٦] .

أما الأمثال فقد كثرت في شعره بشكل واضح مما حدا بالصاحب بن عباد الى تخصيص مؤلف لها[١٢٧] ، كذلك خصص العكبري لها عدة صفحات من شرحه للديوان[١٢٨] .

ومما عده النقاد من آثار الفلسفة في شعر المتنبي ايراده لبعض الألفاظ التي تداولها المتكلمون والفلاسفة . وقد يفيد الشاعر في بعض الأحيان من الايحاء الذي يمنحه اللفظ الفلسفي لتقديم الصورة عنده وقد لايعدو الأمر عن

(١٢٤) المصدر نفسه ١ : ٢٧٧
(١٢٥) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي . الصاحب بن عباد ٥٣
(١٢٦) الفتح علي أبي الفتح . ابن فورجة ١٠٤
(١٢٧) الامثال السائرة من شعر المتنبي . الصاحب بن عباد .
(١٢٨) التبيان . العكبري ١ : ٢٢ ، ٢٣

ان يكون مجرد التقاط لبعض المصطلحات التي تسربت للشعر من الفلاسفة والمتكلمين منذ القرن الثاني ، وايرادها من باب التظرف ، أو رغبة في عرض ما حصل عليه من الفاظ العلوم الفلسفية لاظهار المامه بها بطريقة بعيدة عن العمق .

قال المتنبي :

رأين التي للسحر في لحظاتها سيوف ظباها من دمى أبدا حمر
تناهى سكون الحسن في حركاتها فليس لراء وجهها لم يمت عذر[129]

ان ذكر حركة اللحاظ موصولة بسكون الحسن في البيت ناشيء عن استعارة الشاعر لمصطلحي الحركة والسكون المتطابقين اللذين وردا لدى كثير من الشعراء . ويمكن القول ان استعارة هذين المصطلحين قد أضرت بصياغة البيت ، وحالت دون توفيق الشاعر في ترويض الفكرة للتعبير الشعري ، لذلك ظهر شيء من القلق في سبك الشطر الثاني ، بالاضافة الى غموض الشطر الأول ، والتساؤل الذي يلح على الذهن في سر اضافة السكون الى الحسن .

ولم نر استعارة الحركة والسكون بهذه الصورة في غير هذا البيت ، وأنما اوردها تملحا وتظرفا ، ولم يبذل جهدا في ترويضها للشعر .

وقال :

كشفت جمهرة العباد فلم أجد الا رئيساً جنبه مرؤوسا
بشر تصور غاية في آية تنفي الظنون وتفسد التقييسا[130]

فقد افترض شوقي ضيف ان الشاعر أورد مصطلح القياس في قوله «تفسد التقييسا» تأثرا بألفاظ المنطق الارسطي[131]، ولكن تأمل البيت يبين ان الشاعر كان بعيدا كل البعد عن مصطلح المنطق وانه لم يخرج عن الاستعمال

---

(129) التبيان . العكبري ٢ : ١٢٤

(130) المصدر نفسه ٢ : ١٩٨

(131) الفن ومذاهبه في الشعر العربي . شوقي ضيف ٣٢٧

اللغوي للفظ[١٣٢]، إذ عنى ان الممدوح أفسد تقدير غيره على مثاله أي مقايستهم عليه فلا نظير له بين البشر يقاس عليه ، وقد أكد قوله في البيت التالي هذا الفهم الى حد كبير : قال

وبه يضن على البرية لا بها   وعليه منها لا عليها يوسى

وللشاعر في مثل هذا المعنى قوله :

بمن أضرب الأمثال أم من أقيسه   اليك وأهل الدهر دونك والدهر[١٣٣]

حيث أورد الفعل «اقيسه» في صورة مقاربة للقول السابق ، وقصد منه أضمه اليك لأوازنك به وجميع الناس دونك في المنزلة .

ومن ذلك مصطلح الجزء والكل ، في قوله :

فتىً ألف جزءٍ رأيُهُ في زمانه   أقلُّ جزَيءٍ بَعْضُهُ الرأيُ أجْمَعُ[١٣٤]

ومراد الشاعر هنا هو القول بأن من مدح هو أعظم الناس علما بأحوال الدهر ، فلجأ الى مصطلح الجزء والجزيء لأداء المعنى قائلا : لوعد رأيه في الزمان ألف جزء لعادل أقل جزء منه كل ما عند الناس من رأى .

والبيت من شعر الصبا ، وقد عمد الشاعر فيه الى تركيب العبارة بأيراد أربعة ابتداءات وايقاع الحذف والتقديم والتأخير ، مما البس البيت ثوبا من الغموض يحمل القاريء على انفاق جهد في تأمله ؛ ليتضح له بعدها معنى غاية في القرب من الذهن لو صيغت عبارته بصورة مختلفة .

لقد حاول الشاعر أن يغرب في البيت باستعارة المصطلح الفلسفي ، وأورده بهذه الصورة التي يلفها الغموض ، واغلب الظن انه انفق جهدا في صياغته لهذا البيت ؛ رغبة منه في لفت الأنظار الى براعته وقدرته على محاكاة عبارات الفلاسفة والمتكلمين .

وقد يورد بعض مصطلحات المتكلمين مستفيدا من الايحاء الذي يعطيه

---

(١٣٢) لسان العرب (قيس)

(١٣٣) التبيان . العكبري ٢ : ١٢٧

(١٣٤) المصدر نفسه ٢ : ٢٤٢

اللفظ لصورة البيت ، في مثل قوله :

وضاقت الأرْضُ حتى كان هاربهم اذا رأى غير شيء ظنه رجلا[١٣٥]

يمكن ان يلاحظ المرء بالبيت لمحة كلامية ممثلة في ايراد «لاشيء»[١٣٦] بمعنى المعدوم كما يرى ذلك بعض المتكلمين[١٣٧] ، أي ان هذا الهارب لشدة فزعه ورعبه يرى مالا يرى ، ويصور الوهم له من العدم رجلا يطلبه .

وقد فسر ابن جني ومن سار على هديه كالواحدي والعكبري «غير شيء» بحذف الصفة أي غير شيء يؤبه به أو يخاف منه ، واستشهد ابن جني بما جاء عن العرب يقولون «انك ولا شيئا سواء والتسوية لا تقع الا بين شيئين فصاعدا فكأنه قال انك وشيئا لا يعبأ به سواء»[١٣٨] فالخوف يجعل الفار يرى الاشياء خلاف ماهي عليه : كأن يرى شجرة أو يسمع حفيف أوراق الاشجار باهتزاز الريح فيصور له وهمه أن ما يراه وما يسمعه أنما هو من يخشاه من أعدائه .

وعلى الرغم من أن كلا التفسيرين معقول فإنني اميل الى الأول منهما ؛ إذ انه اكثر ايحاء لمدى الخوف الذي تملك الهارب ؛ إذ ان اختلاط المرئيات على الانسان قد يقع لغير الخائف أيضا ، وهو اكثر انسجاما مع روح المبالغة التي عرف بها الشاعر وبدت في البيت الذي تلاه في قوله :

فبعده والى ذا اليوم لوركضت بالخيل في لهوات الطفل ماسعلا[١٣٩]

ومنه قوله :

فقد بلغت غاية الآمال فلم تدع منها سوى المحال

في لا مكان عند لا منال[١٤٠]

---

(١٣٥) التبيان ٣ : ١٦٨

(١٣٦) المتنبي . محمود شاكر . مجلة المقتطف ٣٧

(١٣٧) الملل والنحل . الشهرستاني ١ : ٧٦

(١٣٨) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . الاصفهاني ٦٦

(١٣٩) التبيان ٣٠ : ١٦٨

(١٤٠) المصدر نفسه ٣ : ٣٢٣

مدح الشاعر عضد الدولة بأنه بلغ الغاية القصوى في سيادته ومجده ، ولم يدع الا ما يستحيل الوصول اليه ، وهو مالم يكن موجودا أصلا .

وقد افترض البعض ان البيت تضمن الغمز على أهل التوحيد في قولهم ان ما لم يحوه مكان ولم يصر اليه مثال فهو محال ؛ إذ أن مثل هذا القول يتنافى مع مبدئهم في التوحيد ؛ إذ ان الله لا يحويه مكان ولا يدرك بمثال[١٤١] .

ويبدو هذا القول تأويلا بعيدا عن الشاعر ، فلم يعن شيئا مما ذكر . ومن البديهي ان المرء لا يصل في سعيه الى ما لا يوجد أصلا . وانما قصد الشاعر ان الممدوح نال غاية ما يصل اليه حتى لم يبق أمامه مطلب يقصده ، فهو لايعجز عن الوصول الى شيء .

ولعل الشاعر قد تأثر في وصف المحال «بلا مكان ولا منال» بجدل المعتزلة في الموجود والمعدوم ، وأسلوبهم في استعمال بعض الألفاظ .

وجانب آخر مما عرضه النقاد من شعره الذي رأوا فيه سمة فلسفية تميز بالغموض والتعقيد . فقاريء هذه الأبيات لا يصل الى غايته في فهم مراد الشاعر الا بعد عناء ومشقة كبيرين ، وينفق من أجل ذلك وقتا طويلا وكأنه أمام كتاب من كتب الفلاسفة التي تحتاج الى مزيد من الوقت والجهد لتفهم أسلوبها لغموضه .

وقد كان هذا الاختيار امتدادا لارتباط غموض الشعر بالفلسفة لدى جمهور النقاد كالآمدي ، كما يبدو من استقراء ماعرضه هؤلاء من ابيات رأوا فيها اثراً فلسفيا ، وما صدر عنهم من آراء في هذا الباب[١٤٢] .

ويستطيع المتأمل لهذه الأبيات ان يكشف عن أسباب الغموض فيها لمعرفة مدى ارتباطها بثقافته الفلسفية .

لقد لجأ الشاعر في بعض الأحيان الى صياغة يلفها الغموض والتعقيد

---

(١٤١) المآخذ . المهلبي (خ ٧٩ أ)

(١٤٢) تراجع حركات التجديد في العصر العباسي ، عبد القادر القط ، ضمن الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين ص ٤٣١

ليغطي ابتذال المعنى الذي طرقه ، نحو قوله :

الى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي[١٤٣]

وقد ورد هذا البيت في صيغة الاستفهام الانكاري تعبيرا عن معنى قريب المتناول ، وهو قوله «إلى متى اتخلف عن طلب ما أريد من الملك والى كم أتمادى في تقصيري عن طلب مرادي» .

ويمكن القول ان مرد هذا الابتذال ان البيت من احدى مدائحه التي انشدها في فترة كان الشاعر ينتقل فيها بين مدن الشام محترفا مديح أمرائها وكبرائها ، في قصائد عمد الشاعر فيها غالبا الى معاني المديح التي استهلكها الشعراء (إذ لم يكن يصدر في مثلها عن تجربة حقيقية تغني شعره بمعانيها ؛ فعمد الشاعر إلى هذه الصياغة ليوهم من سمع شعره ان وراءه معنى فيه شيء من العمق الذي يتلاءم مع تعقيد الصياغة .

وقد عد شوقي ضيف ظاهرة التعقيد في هذا البيت وأمثاله اقتراضا للقوالب الفلسفية ، ويعني بذلك الأثر الذي خلفته ثقافة الشاعر الفلسفية في تعقيد أسلوبه .

ومن الشواهد التي أوردها شوقي ضيف لذلك قول المتنبي :

الجيش جيشك غير انك جيشه في قلبه ويمينه وشماله[١٤٤]

قائلا : «ليس في البيت غرابة ولا تعقيد ولذلك يبدو يسيرا سهل الفهم ، ولكننا اذا أمعنا النظر فيه وجدنا فيه شيئا يشبه أن يكون تعقيدا ، إذ يجعل المتنبي ممدوحه جيشا ، ويجعل الجيش جيشه ، وفي الوقت نفسه يجعله جيش الجيش ، فهو جيش دائر على نفسه»[١٤٥] .

لم استطع ان اتبين مدى تمثيل هذا البيت للتعقيد الفلسفي ، واميل الى ان تكرار لفظ الجيش بهذه الصورة هنا قد خلق عند الباحث هذا الاحساس

---

(١٤٣) التبيان . العكبري ١ : ٣٥٥

(١٤٤) التبيان . العكبري ٣ : ٦٤

(١٤٥) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ٣٣١

بأن هناك ما يشبه التعقيد في البيت . ووراء هذه الصورة التي اوردها الشاعر رغبة في الاشادة بشجاعة سيف الدولة بجعله يقوم مقام جيش كامل لحسن بلائه في المعارك ، مضفيا على هذه الصورة عنصر الحركة الدائبة باشارته الى أقسام الجيش (قلبه - يمينه - شماله) .

وتعطي هذه الصورة ايحاء بذود القائد عن جنوده في المعركة ، وهي التي أوضحها الشاعر فيما تلا بقوله :

ترد الطعان المر عن فرسانه وتنازل الأبطال عن أبطاله
كل يريد رجاله لحياته يامن يريد حياته لرجاله

وقيام فرد في الحروب مقام جماعة لشجاعته ومهارته في فنون الحرب من الصور التي تداولها الشعراء ، كما في قول ابي تمام :

لولم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب[١٤٦]

وقد كررها الشاعر في موضع آخر قائلا

فلما رأوه وحده قبل جيشه دروا أن كل العالمين فضول[١٤٧]

والأرجح لديّ ان بيت المتنبي مثل عجز الشاعر عن التعبير عن فكرته تعبيرا واضحا ، مما اكسب البيت شيئا من الغموض .

وقد يكون مرد هذا الغموض الى الفكرة الفلسفية التي أدار الشاعر بيته حولها ولم يستطع ان يروضها لصياغته الشعرية ، فحافظ البيت على السمة العقلية التي تتلاءم مع عمق الفكرة فيه ، أو انه آثر ان يحتفظ بالصياغة العقلية وأن يكسو البيت ثوبا من الغموض والابهام؛ حتى ينفق القارئ في تأملها زمنا فكأنه يطلع على أسلوب فلسفي ليقدم بذلك دليلا على انه اطلع على معارف فلسفية . نحو قوله في القصيدة نفسها :

وما ماضي الشباب بمسترد ولا يوم يمر بمستعاد

---

(١٤٦) ديوان أبي تمام ١ : ٥٩

(١٤٧) التبيان . العكبري ٣ : ١٠٤

متى لحظت بياض الشيب عيني   فقد وجدته منها في السواد
متى ماازددت من بعد التناهي   فقد وقع انتقاصي في ازديادي[148]

وقد ربط الحاتمي بين البيت الثالث وقول لأرسطو مفاده «الزيادة في الحد نقص المحدود»[149] . وقد تناول هذه الحكمة شعراء غير المتنبي كمحمود الوراق ، في قوله :

اذا ماازددت من عمر صعودا   ينقصه التزيد والصعود[150]

مما قد يدفعنا الى الظن بأن الشاعر ربما استظل في ايراده لمثل هذه الفكرة الفلسفية بأقوال غيره من الشعراء الذين تناولوا المعنى نفسه ، فسلك مسلكهم في التمسك بصياغتها العقلية .

ويمكن القول إن اثر هذه الفكرة الفلسفية قد بقي ملحا على الشاعر حتى أورده مرة أخرى بقوله :

ولجدت حتى كدت تبخل حائلا   للمنتهى، ومن السرور بكاء[151]

فقد ذكر المتنبي ان جود الممدوح قد بلغ حده الاقصى ، ولم يعد امامه غاية تقصد أبعد مما بلغه فلم يبق أمامه الا العودة من الانتهاء في الجود الى نقيضه البخل .

ولعل عبارة «كدت تبخل حائلا للمنتهى» قد اكسبت البيت سمة عقلية فيها شيء من الغموض دفع النقاد الى عده من الفلسفة[152]، دون ان يشيروا الى الفكرة الفلسفية التي دار البيت حولها .

وقد خفف من جفاف البيت وغموضه ان الشاعر قد اردفه بقوله «من السرور بكاء» تأكيدا للمعنى العقلي الذي ذهب اليه ، وايضاحا للانتقال بين المتناقضين ؛ مما دفع الشارح إلى أن يصفه بأنه من أحسن الكلام .

---

(١٤٨) المصدر نفسه ١ : ٣٥٦
(١٤٩) الرسالة الحاتمية ١٥٦
(١٥٠) التبيان . العكبري ١ : ٣٥٦
(١٥١) المصدر نفسه ١ : ٢٩
(١٥٢) يتيمة الدهر . الثعالبي ١ : ١٤٥

ويمكن أن نلمس شيئا من الاختلاف في التعبير عن الفكرة في البيتين ، ففي المرة الاولى لم يستطع الشاعر ان يتخلص من الصياغة العقلية التي يظللها الغموض ، واستطاع ان يخفف من هذا الغموض في المرة الثانية بالايضاح الذي تلاه .

وقد نقرن الى ما ذكرنا بعض الأبيات التي عمد المتنبي الى ايراد بعض مصطلحات الفلسفة فيها دون أن يروضها للصياغة الشعرية[١٥٣] ؛ مما أدى الى شيء من غموض هذه الأبيات كما سبق أن ذكرنا .

ومن الابيات التي عرضها النقاد ما اشتمل على صورة عقلية تحتاج الى شيء من اعمال الفكر لايرادها ، نحو قوله :

خلفت صفاتك في العيون كلامه كالخط يملأ مسمعي من أبصرا[١٥٤]

يمكن القول ان شهرة ابن العميد بوصفه أحد كبار الكتاب ، واشتغاله بهذا الفن الذي بوأه مكانة كبيرة قد دفعت الشاعر الى الحديث عن هذا الجانب في عدة ابيات ، منها هذان البيتان

وإذا سكتّ فان ابلغ خاطب قلمٌ لك اتخذ الأصابعَ مِنْبَرَا
ورسائل قطع العداةُ سحاءها فرأوا قنا وأسنة وسنورا[١٥٥]

فكأن هذا الحديث مدعاة لايراد هذه الصورة العقلية التي عدت من الفلسفة ، قال الشاعر :«لقد اقر الأعداء بفضلك وعملك حين عدوك رئيسا . وناب ماحباك الله به من مال الفضل والعلم عن تسميتك بالرئيس الأكبر ، ثم قرن هذه الصورة العقلية بصورة أخرى حين شبهه بالقلم الذي ينقل رأي كاتبه كأن من قرأ كتابته سامع له .

---

(١٥٣) التبيان . العكبري ٢ : ٢٩٠
(١٥٤) المصدر نفسه ٢ : ١٦٨
(١٥٥) المصدر نفسه ٢ : ١٦٧

الفصل الخامس

الثقافة التاريخية

التفت كثير من الشعراء إلى تاريخ الأمم والشعوب ، يستمدون منه ما يعينهم على اداء صورهم الشعرية . وعرف بعضهم بولعه الواضح بهذا الجانب من ثقافته كأبي تمام[1] أما شاعرنا فان صوت التاريخ يبدو خافتا في ديوانه اذا أفردنا الاشارات التاريخية ذات الطابع الديني ووضعناها في قسم خاص بها ، حيث قلت شواهده بشكل واضح . وقد يكون مرد هذه الظاهرة قلة حصيلته التاريخية فبدا أثرها ضئيلا في الشعر ، لا سيما أننا لم نر في أخباره إشارة إلى قراءة موجهة في هذا العلم . وقد تكون قلة الشواهد التاريخية نتيجة انصراف الشاعر الى حياة من مدح وأمجاده الحاضرة ، فاستغنى بذلك عن التطلع الى ماضيه . ولعلنا نجد في هذين البيتين اللذين رد بهما المتنبي على الشاعر النامي - الذي مدح سيف الدولة بذكر آبائه في الجاهلية - تأييدا لما ذكرنا :

والمدح لابن أبي الهيجاء تنجده ... بالجاهلية عين الغي والخطل
ليت المدائح تستوفي مناقبه ... فما كليب واهل الأعصر الأول[2]

وقد كان الشاعر على قدر من الالمام بأخبار الامم البائدة كعاد وطسم وجديس ، وبطرف من التاريخ القديم لبعض الأمم كالفرس واليونان ، ولمحات عن بعض الأحداث التاريخية العربية في العصر الأموي والعباسي ، وشيء من تاريخ الأنساب . وقد اشار الى عاد ارم في قوله :

---

(١) أبو تمام ثقافته من خلال شعره . ابتسام مرهون الصفار ٥٠

(٢) التبيان . العكبري ٣ : ٨٠

الراجع الخيل محفاة مقودة   من كل مثل وبار أهلها ارم
كتل بطريق المغرور ساكنها   بأن دارك قنسرون والأجم[٣]

وقد أجمل الشاعر في هذه الصورة ما فصله في سائر القصيدة من ذكر ابادة الامير لسكان المدن والقرى البيزنطية التي حاصرها ، في نحو قوله :

فما تركن بهاخلدا له بصر   تحت التراب ولا بازا له قدم
ولا هزبرا له من درعه لبد   ولا مهاة لها من شبهها حشم[٤]

أما مدنهم فقد دمرت بما أضرم فيها من حرائق . فلم يبق بالمدن بعد رحيل جيوشه عنها سوى رمم بين اطلال محترقة ، وهو ما أشار اليه بقوله :

عبرت تقدمهم فيه وفي بلد   سكانه رمم مسكونها حمم[٥]

وقد كان البيت صورة للدمار الذي لحق هذه المدن التي اغترت بقوتها واعلنت عصيانها للأمير ، حيث مثلها الشاعر بوبار وارم في خراب المدن وفناء الخلق .

وقد اعاد الشاعر ذكر عاد مع جرهم في قوله :

أجار على الأيام حتى ظننته   تطالبه بالرد عاد وجرهم[٦]

وقد كانت القصيدة التي ورد فيها البيت مجسمة لفلسفة القوة التي آمن بها الشاعر ، واليها يرجع حبه للأمير الحمداني الذي استطاع أن يذود عن حمى الدولة ضد مطامع البيزنطيين .

فقد استطاع الأمير بقوته حكم العرب جميعا فلم يخل منبر ولا درهم من ذكر اسمه ، وامتد نفوذه الى الشمس والقمر ومظاهر الطبيعة من رياح وأمطار والى عالم الحيوان .

ولما كان الممدوح بهذه القوة فهو قادر على حماية الانسان من يد

---

(٣) المصدر نفسه ٤ : ١٧
(٤) التبيان . العكبري ٤ : ٢٠
(٥) المصدر نفسه ٤ : ٢١
(٦) المصدر نفسه ٣ : ٣٥٥

القدر؛ بكفها عن ايقاع المكاره به أو تضميد ما أحدثته من جراح .
وقد ذكر الشاعر عادا وجرهم مبالغة في وصف قوة الممدوح ، بذكر طمع هذه الأمم البائدة في أن يبعثها من العدم .

ونراه يستمد قصة عاد في تقديم صورة للبغي والطغيان في قوله :

ويوم جلبتها شعث النواصي ... معقدة السبائب للطراد
وحام بها الهلاك على أناس ... لهم باللاذقية بغي عاد[7]

وقد استمد من ذكر عاد كذلك فكرة الازالة من الوجود ، التي نراها في القصيدة نفسها في قوله :

غمدت صوارما لو لم يتوبوا ... محوتهم بها محو المداد[8]

وقد يكون ذكر هذه الامم مجرد اشارة الى القدم دون ارتباط نفسي بسائر القصيدة ، نحو قوله :

أديب اذا ماجس أوتار مزهر ... بلاكل سمع عن سواها بعائق
يحدث عما بين عاد وبينه ... وصدغاه في خدي غلام مراهق[9]

فخلق الشاعر صلة بين هذا الغلام وهذه الأمة البائدة بغنائه بألحانها ، فلم يرتبط اللفظ بغير صفة القدم التي أراد الشاعر أن يثبتها لألحان أنشدها المغنى ، فسهل أن تحل كلمة أخرى محل عاد دون تغير في الصورة .

وذكر طسم وجديس في قوله :

وملوكا كأمس في القرب منا ... وكطسم وأختها في البعاد[10]

---

(٧) التبيان . العكبري ١ : ٣٦١
(٨) المصدر نفسه ١ : ٣٦٣
(٩) المصدر نفسه ٢ : ٣١٩
(١٠) التبيان . العكبري ٢ : ٣٤

حيث اشار الى ما جره الخلف بين طسم وجديس من هلاك للقبيلتين ؛ فقد كانت طسم وجديس تعيشان في اليمامة ، وقد تولى أمرهما ملك من طسم أذلهم واستباح اعراضهم مما دفع جديسا للانتقام من هذا الظالم وقومه ، وقد تمكنوا من التغلب عليهم ، ولكن جديسا لم تنعم بانتصارها على طسم ؛ فقد فر من الأخيرة رجل يقال له رباح بن مرة ، واستغاث بحسان بن تبع فسارت حمير اليهم وتمكنت منهم[١١] .

ويذكرنا هذا الحدث بمثل ضرب فيه هو قولهم (أبصر من زرقاء اليمامة)[١٢] وقد استمده الشاعر في قوله :

وأبصر من زرقاء جو لأنني اذانظرت عيناي شاءهما علمي[١٣]

وزرقاء جو هي اليمامة بنت مرة ، التي حذر حسان بن تبع من حدة بصرها التي تكشف تحرك العدو من مسافة شاسعة ؛ مما ألجأ هؤلاء الى التستر بالشجر للوصول الى جديس ، وقد حدث ما توقعه اذ رأت اليمامة الجيش وحذرت قومها ، لكنهم لم يصدقوها ، فلم يصبح الغد الا وقد اجتاحهم حسان بجيشه وقبض على اليمامة .

وقد ذكر قصة اياد مع فارس في قوله :

أشمت الخلف بالشراة عداها وشفى رب فارس من اياد[١٤]

فأشار الى انتقام كسرى انو شروان من اياد لاعتدائهم على بلاد فارس في القرن السادس . ولم تستجب اياد لما ذكره بعض أفرادها من عزم الفرس غزوها ، فاستطاع جيش كسرى أن يوقع بهم هزيمة كبيرة في الحرجية تشتت شملهم بعدها حيث لجأ بعضهم الى الشام وسار آخرون الى أنقرة ، حيث استوطنت جماعة من قبيلتهم[١٥]

(١١) تاريخ الطبري ١ : ٦٢٩
(١٢) مجمع الامثال . الميداني ١ : ٩٩
(١٣) التبيان . العكبري ٤ : ٥١
(١٤) المصدر نفسه ٢ : ٣٤
(١٥) دائرة المعارف الاسلامية ٣ : ١٦٧

وقد ذهب بعض النقاد الى انه استمد اشارته للدرع المثلى للمقاتل في قوله :

لو جذب الزراد من أذيالي مخيرا لي صنعتي سربال
ماسمته سرد سوى سروال[١٦]

مما يروى في الخبر عن درع علي بن ابي طالب بأنها صدر بلا ظهر ؛ لأنه لم يول قط ، وقيل انه حاول اخفاء استيحائه لهذا الخبر بنقله التحصين من عضو لآخر[١٧]

ويمكن ان نفترض ان الشاعر استمد حديثه عن ستر العورة بالدرع مما يذكره المؤرخون عن وقوع عمرو بن العاص في صفين وشروع الامام علي في قتله ، ومبادرته بكشف عورته فحمل عليا على الكف عن قتله ترفعا . وقد اشار بعض الشعراء الى هذا الموقف ، وروي عن معاوية بن أبي سفيان نفسه شعر فيه[١٨] .

وقد أشار الشاعر الى بعض الأحداث التي صاحبت حركة الخوارج في قوله :

أشمت الخلف بالشراة عداها وشفى رب فارس من اياد[١٩]

ويذكرنا قول الشاعر بصمود الخوارج امام المهلب بن أبي صفرة ثمانية عشر شهرا لم يستطع خلالها النيل من صفوفهم الا بعد أن لجأ الى الحيلة والدهاء لايقاع الخلف بينهم . وقد ذكر المؤرخون في هذا الصدد عدة أقوال منها الخديعة التي لجأ اليها المهلب للقضاء على صانع النصال المسمومة ، التي كان لها دور في ترجيح كفة الخوارج في المعارك ، ومنها ارسال المهلب للنصراني الذي سجد أمام قطري فأوقع الخلاف بين الخوارج حول مقتله .

---

(١٦) التبيان . العكبري ٣ : ٣١٢
(١٧) المآخذ . المهلبي (خ ٧٨ أ)
(١٨) وقعة صفين . نصر بن مزاحم ٤٦٤
(١٩) التبيان . العكبري ٢ : ٣٤

ومهما يكن من أسباب الخلاف فقد كان المهلب يرمي من وراء هذه الدسائس الى اضعاف صف خصومه ، ويؤيد ذلك ما روى من ان الحجاج أمره بقتالهم في حال خلافهم قبل أن يجتمعوا ، فأجاب المهلبي بأنه ما زال ينتظر الفرصة السانحة حين يهلك بعضهم بعضا ، فيناهضهم وقد ضعفت شوكتهم فيتغلب عليهم . وقد تحقق له ما أراد من هزيمة الخوارج حين اهتدى الى الوسيلة المثلى لاضعافهم[٢٠].

وضرب الشاعر مثلا آخر لما يحدثه الخلاف من تمزيق الصفوف ، في قوله :

وتولى بني البريدي بالبصرة حتى تمزقوا في البلاد[٢١]

فأشار الشاعر الى بني البريدي : وهم اخوة ثلاثه كان لهم دور كبير في اضمحلال الخلافة العباسية أيام المقتدر ، وقد بدأ ظهورهم في الدولة حين ولاهم علي بن عيسى مناصب تافهة لا خطر فيها ، ولكنهم استطاعوا بدهائهم الاستيلاء على البصرة .

وقد كان للأخوة شأن كبير عند اتفاقهم ولكن الخلاف فرق صفوفهم وأذهب سطوتهم ، فقد قتل ابو عبدالله أخاه أبا يوسف طمعا في أمواله ، وألجأ الخلاف بين الثالث أبي الحسين وابن اخيه عبدالله . ألجأ الأول الى الاستعانة بأمير البحرين القرمطي للتغلب على خصمه ، وانتهى الامر بمقتل الأول بالبصرة .

ولم يكن خلفهم أبو القاسم أحسن حالا منهم ، اذ لم يستطع أن يصمد أمام جيش المعز ، وانتهى به الأمر الى الفرار الى البحرين[٢٢].

كذلك أشار الشاعر الى بعض الأعلام في تاريخ الطب عند اليونان مثل جالينوس وبقراط ، في قوله :

---

(٢٠) تاريخ الكامل . ابن الأثير ٤ : ١٨٢ . الفرق بين الفرق . البغدادي ٦٢

(٢١) التبيان . العكبري ٢ : ٣٤

(٢٢) دائرة المعارف الاسلامية ٣ : ٦١٣ - ٦١٤

لماوجدت دواء دائي عندها   هانت علي صفات جالينوسا[33]

يموت راعي الضأن في جهله   موتة جالينوس في طبه[34]

اذا داء هفا بقراط عنه   فلم يعرف لصاحبه ضريب[35]

وقد تداول هذين الاسمين وغيرهما كثير من الشعراء منذ فترة مبكرة ترجع الى القرن الثاني للهجرة .

وعلى الرغم من قلة الاشارات التاريخية في شعره نلاحظ انه حشد عددا منها في أبيات متتالية في احدى قصائده في كافور ، عرض فيها الشاعر للمؤامرة التي حاكها البعض للأيقاع بين كافور وابن الاخشيد . قال فيهما :

انما -ماتفقتما- الجسم والرو   ح فلا احتجتما الى العواد

واذا كان في الأنابيب خلف   وقع الطيش في صدور الصعاد[36]

ثم قدم امثلة من التاريخ القديم والحديث لدور الشقاق والخلف في تمزيق الصفوف وضياع الهيبة والسطوة بقوله :

أشمت الخلف بالشراة عداها   وشفى رب فارس من اياد

وتولى بني البريدي بالبصرة حـ   ـتى تمزقـــوا في البلاد

وملوكا كأمس في القرب منا   وكطسم وأختها في البعاد

ويمكن أن نفترض أن الشاعر أورد هذه الأبيات لما يعرفه من ولع كافور بالتاريخ ، الذي بدا من اهتمامه بقراءة السير والأخبار في مجلســه[37] وتشجيعه للتأليف في هذا العلم[38].

وقد كان أختيار هذه الأمثلة خاضعا لاتجاه عواطف الشــاعر ازاء كافور الاخشيدي ، ويستطيع القاريء أن يتبين ذلك بملاحظة الدوافع التي

---

(٢٣) التبيان . العكبري ٢ : ١٩٦

(٢٤) المصدر نفسه ١ : ٢١٣

(٢٥) المصدر نفسه ١ : ٧٤

(٢٦) المصدر نفسه ٢ : ٣٣ - ٣٤

(٢٧) النجوم الزاهرة . ابن تغري بردى ٤ : ٦

(٢٨) المغرب في حلى المغرب . ابن سعيد الأندلسي ٢٠٠

كمنت وراء ما ذكره مثلا للخلاف بين المتفقين ، فقد كانت حرب اياد وفارس وطسم وجديس دفعا لظلم ألحقه أحد الفريقين بالآخر ، ووجود كافور حاكما على مصر ظلم لابن الاخشيد صاحب الحق الشرعي بدلا من كافور ، الذي كان في نظر الشاعر لا يستحق شيئا غير الأزدراء والتحقير .

أما قصة بني البريدي فمثل واضح على وصول بعض الناس بالحيلة والدهاء الى مناصب ليسوا أهلا لها .

وقد بدأ في شعره التفات الى جانب حيوى في تاريخ العرب نال عناية فائقة منهم هو تأريخ الأنساب . ونمت الملاحظات التي أوردها في هذا الصدد - سواء بذكر سلسة النسب لدى القبائل المختلفة ، أو بالاشارة الى بعض الاعلام في شجرة النسب العربي - عن اطلاع الشاعر على قدر من علم النسب .

وكان من الطبيعي ان يلم الشاعر بشيء عن الانساب ؛ فقد عرف العرب باعتزازهم بأصولهم ، وكان الشاعر معتزا بعروبته الى حد كبير يستطيع الباحث ان يلمح صداه اذا قارن قصيدة من شعره في سيف الدولة بأخرى في كافور الاخشيدي على سبيل المثال . وقد كان احترافه للمديح دافعا للأطلاع على النسب ، حيث وجد الشعراء مادة يرضي ذكرها ممدوحيهم .

كذلك عاش الشاعر في أجواء أحيت في نفسه الروح القبلية ، سواء في البادية - حيث تقضي طبيعة الحياة بما فيها من تنافس استقلال القبائل واجتماع كل قبيلة ببطونها وافخاذها يدا واحدة في اتجاه القبائل الأخرى - أو في الكوفة التي كانت صورة مجسمة للروح القبلية في تخطيطها وطبيعة الحياة فيها .

نبدأ عرضنا لهذه الأبيات ببيت أشار فيه الشاعر الى أبناء نوح عليه السلام في قوله يمدح كافورا:

ومن قول سام لورآك لنسله   فدى ابن أخي نسلي ونفسي وماليا[٢٩]

(٢٩) التبيان . العكبري ٤ : ٢٩٣

وعلى الرغم من ان البيت من قصيدة مدح فقد تضمن هجاء لكافور ، اذ ان ذكر انتمائه الى حام بن نوح ابي السودان تعريض بسواده ، وقد دأب الشاعر على ذكر سواد كافور في كثير من أبياته .

وقد كان ذكره للأنساب في مدح كافور ضربا من السخرية تعمده الشاعر بتذكيره أن لا نسب له ، ومن ذلك قوله :

ويغنيك عما ينسب الناس انه اليك تناهى المكرمات وتنسب

وأي قبيل يستحقك قدره معد بن عدنان فداك ويعرب[٣٠]

وقد جمع في البيت العرب جميعا بذكر معد بن عدنان الذي يرجع اليه عقب عدنان كله[٣١] ويعرب الذي مثل قبائل قحطان[٣٢].

وفي موضع آخر جعل جود كافور شاملا للعرب جميعا ، قال :

عندالهمام أبي المسك الذي غرقت في جوده مضر الحمراء واليمن[٣٣]

وقد أشار الى تسمية مضر بن نزار بالحمراء لما يقال من وراثتها للذهب عند اقتسام ملك نزار ، أو الى ما عرف من اتخاذهم للرايات والعمائم الحمر شعارا في الحرب[٣٤].

وقال مشيرا الى مجد مضر :

قدكنت أحسب أن المجد من مضر حتى تبحتر فهواليوم من أدد[٣٥]

والبيت في رجل من بني بحتر - أحد بطون طيء - وينتهي نسبها الى أدد بن قحطان[٣٦]. وقد رأى الشاعر جود ممدوحه دليلا على ان قبيلته ورثت مجد مضر بن نزار ، التي حظيت بشرف النبوة على يد النبي القرشي محمد .

---

(٣٠) المصدر نفسه ١ : ١٨٦
(٣١) معجم قبائل العرب ٣ : ١١٢١
(٣٢) معجم قبائل العرب ٣ : ١٢٦٦
(٣٣) التبيان ٤ : ٢٣٨
(٣٤) لسان العرب (مضر)
(٣٥) التبيان . العكبري ١ : ٣٥٢
(٣٦) معجم قبائل العرب ١ : ٦٦

وقد استوحى احداث العداوة بين القيسية واليمنية في ذكر شبيب العقيلي :

برغم شبيب فارق السيف كفه … وكانا على العلات يصطحبان

كأن رقاب الناس قالت لسيفه: … رفيقك قيسي ، وأنت يمان

فان يك انسانا مضى لسبيله … فان المنايا غاية الحيوان[٣٧]

ومما يذكره المؤرخون أن كافورا حاول اغتيال شبيب فلم يفلح ، ولكن القدر كان للأخير بالمرصاد فقتل في دمشق . وقد كان الشاعر معجبا ببطولة شبيب حريصا على اظهار شجاعته ، فجعله يقتل بحد سيفه الذي لم يفارقه طوال حياته في تعليل بلاغى أفاد فيه الشاعر من نسبة السيوف الى الهند ، وانتماء شبيب الى قيس بن عيلان .

وقد مجد الشاعر قيسا في قصيدة مدح بها علي بن أحمد المري الخراساني ، الذي يرجع نسبه الى مرة بن عوف بطن من غطفان من قيس بن عيلان[٣٨] .

كتبت في صحائف المجد بسم … ثم قيس، وبعده قيس السلام

انما مرة بن عوف بن سعد … جمرات لا تشتهيها النعام[٣٩]

فقد وصف بني مرة بأنهم قوم ذوو منعة وشدة بجعلهم جمرات[٤٠]، أما قوله لا تشتهيها النعام فضرب من الاحتراس .

وقد أشار في قصيدتين مدح بهما محمد بن عبيد الله العلوي وطاهر بن الحسين العلوي الى ان العلويين هم أشرف قريش لانتمائهم الى الرسول ﷺ ، فقال في الأول :

تاج لؤي بن غالب وبه … سماهم فرعها ومحتدها

---

(٣٧) التبيان . العكبري ٤ : ٢٤٣

(٣٨) معجم قبائل العرب ٣ : ١٠٧٢

(٣٩) التبيان . العكبري ٤ : ٩٧

(٤٠) لسان العرب (جمر)

خير قريش ابا وأمجدها اكثرها نائلا وأجودها[41]

وقال في الآخر :

فحييت خير ابن لخير أب بها لأشرف بيت في لؤي بن غالب[42]

وقد ذكر في البيتين لؤي بن غالب أبا قريش[43].

وقد كان الشاعر يرى في سيف الدولة حاميا للعروبة والاسلام ، ومصدر الفخر للعرب الذين طالما فخروا بانتمائهم الى عدنان ، فقال :

رفعت بك العرب العماد وصيرت قمم الملوك مواقد النيران[44].

أنساب فخرهم اليك وانما أنساب اصلهم الى عدنان

وقال مرة أخرى مشيرا الى عدنان والى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان :[45]

ولست مليكا هازما لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم

تشرف عدنان به لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لاالعواصم[46]

ونراه يشير الى المكانة التي تبوأها الأمير فجعله ملكا للعرب ، في قوله ، من قصيدة رثى بها مولى تركيا لسيف الدولة يدعى يماك .

وان الذي أمست نزار عبيده غني عن استعباده لغريب[47]

وقد عني الشاعر بني نزار بن معد بن عدنان وخصهم بالذكر لما يعلمه من تمليك الحارث بن عمرو لنزار على قبائل العرب[48].

وقد صور الشاعر رعاية العربي لحرمة النسب في قصيدة ذكر فيها

---

(٤١) التبيان . العكبري ١ : ٣٠٦
(٤٢) المصدر نفسه ١ : ١٥٩
(٤٣) معجم قبائل العرب ٣ : ١٠١٩
(٤٤) التبيان . العكبري ٤ : ١٨٥
(٤٥) معجم قبائل العرب ٣ : ١١٧٨
(٤٦) التبيان . العكبري ٣ : ٣٩١
(٤٧) المصدر نفسه ١ : ٥٣
(٤٨) معجم قبائل العرب ٣ : ١١٧٨

ايقاع سيف الدولة ببني كلاب ، قال فيها :

فقاتل عن حريمهم وفروا ندى كفيك والنسب القراب
وحفظك فيهم سلفي معد وانهم العشائر والصحاب[٤٩]

فقد انتمى بنو كلاب الى مضر ، ومضر وربيعة - رهط سيف الدولة - هما ابنا نزار بن معد[٥٠]؛ لذلك رعى الأمير حرماتهم على الرغم من ضراوة المعارك التي خاضها ضدهم .

وقد كان نسب بني حمدان مادة للجناس الذي أورده الشاعر في قوله :

من تغلب الغالبين الناس منصبه ومن عدي اعادي الجبن والبخل[٥١]

اذ ان بني حمدان بطن من بني عدي بن أسامة بن غانم بن تغلب[٥٢] .

وقال يذكر نسب تميم[٥٣] من مدحه لمحمد بن سيار التميمي :

وما عشت ماماتوا ولا أبواهم تميم بن مر وابن طابخة أد[٥٤]

---

(٤٩) التبيان . العكبري ١ : ٧٦
(٥٠) معجم قبائل العرب ٣ : ١١٧٨
(٥١) التبيان . العكبري ٣ : ٨٠
(٥٢) معجم قبائل العرب ١ : ٢٩٨
(٥٣) المصدر نفسه ١ : ١٢٦
(٥٤) التبيان ١ : ٣٨٢

الفصل السادس

المعارف العامة

الحيـوان :

وقد حفل ديوان المتنبي بكثير من الاشارات التي تنم عن خبرة واسعة بعالم الحيوان وأحـواله وعاداته . وقد اسـهمت مصـادر متعـددة في اثراء هذا الجانب من ثقـافته ، فنهـا ممارسـته لحياة البداوة واختلاطـه بالأعراب الذين عرفوا الحيوان معرفة جيدة ؛ لأنهم - كما يقـول الجـاحظ - «كثيرا ما يبتلون بالناب والمخلب ، واللدغ واللسع والعض والأكل ؛ فخرجت بهـم الحـال الى تعرف حال الجاني والجارح والقـاتل ...»[1]. فاسـتمد الشـاعر هذه الخـبرة من منبعها الاصلي .

وقد عرف عالم الحيوان من اطـلاعه على التراث الادبي من أشـعار وأمثال ، خاصة شعر الاعراب الذي اشتمل على كثير من الملاحظات الدقيقـة عن الحيوان ؛ فعـد بذلك مصـدرا اعتمد عليه الجـاحظ في تأليف كتابه عن الحيوان ؛ ثقة منه بصدق هذا الشعر في تصوير حياة الحيوان بمقارنته بما سمعه في باب معرفة الحيوان في مؤلفات الفلاسفة والأطباء[2].

وكانت ثقافته اللغوية مصدرا مهما في تنمية هذه المعـرفة ، حيث اطلع على مؤلفات اللغـويين الذين تحـدثوا عن الحيوان كأبي عبيدة معمر بن المثنى[3]،

---

(١) الحيوان . الجاحظ ١:٢٠

(٢) المصدر نفسه ١ : ١٩

(٣) نزهة الالباء . ابن الانباري ٨٨

وأبي زيد الانصاري[٤]، والأصمعي[٥]، وأبي حاتم السجستاني[٦]، وغيرهم ، في مؤلفاتهم عن الابل ، والخيل ، والوحوش ، والطير ، والنمل ، والحشرات . وربما اطلع على كتاب الجاحظ الحيوان .

وقد اخترنا من شعره بعض الأبيات التي دلت على خبرة خاصة بأحوال الحيوان وعاداته .

في احدى مقدماته الغزلية ذكر البين الذي طالما اشتكى منه المحبون فقال :

لَقَدْ لَعِبَ البَيْنُ المُشِتُّ بهاوَبي   وزَوَّدَني في السَّيْرِ مازَوَّدَ الضَّبَّا[٧]

فقد حرِمَ الوداعِ الذي يجيي في النفوس الأمل في اللقاء ، فكأنه حرم الماء الذي يحرص الراحلون على التزود منه ، وصار كالضب الذي استغنى عن الماء[٨]، حتى قيل في المثل أروى من ضب[٩].

وقد ذكر البعض انه لو استمد في البيت صورة الضب في حيرته وضلاله[١٠] لرأى ان البين زوده ضلالا عن وطنه فلا سبيل الى رجوعه واجتماعه بمن أحب ، ويبدو القول الأول اكثر ملاءمة لروح الغزل ، اذ جعل لقاءها ماء ليس لكائن غنى عنه .

وأشار الى صبر الضباب على العطش مرة أخرى ، بقوله :

وأَصْبَرَ عن أَمْوَاهِهِ من ضِبابِهِ   وآلَفَ منها مُقْلَةً للودَائِقِ[١١]

والبيت من قصيدة تحدث الشاعر فيها عن ايقاع الأمير ببعض

---

(٤) المصدر نفسه ١٠١
(٥) المصدر نفسه ٩٠
(٦) المصدر نفسه ١٤٥
(٧) التبيان . العكبري ١ : ٦٠
(٨) الحيوان . الجاحظ ٦ : ١٢٨
(٩) مجمع الأمثال . الميداني ١ : ٢٧٧
(١٠) الحيوان ٦ : ٤٢ ، الميداني ١ : ٢٠٠
(١١) التبيان . العكبري ٢ : ٣٢٨

القبائل المتمردة ، قال فيها :

تَوَهَّمَها الأعرابُ سَوْرَةَ مُتْرَفٍ تُذَكِّرُهُ البيداء ظِلَّ السُرادِقِ
فَذَكَّرْتهم بالماءِ ساعةَ غَبَّرَتْ سماوَةُ كَلْبٍ في أُنُوفِ الحرائِقِ
وَكانُوا يَرُوْعُون الملوكَ بأن بَدَوْا وأن نَبَتَت في الماءِ نَبْتَ الغَلاَفِقِ[١٢]

فقد عرض الشاعر ما توهمه الأعراب من تجنب سيف الدولة غزو ديارهم : لعجزه عن تحمل حياة القفار بما فيها من مشاق وأخطار ، فشبهوا ملوك الحضر بطحالب الماء التي لا تستغني عنه ، ورد على توهمهم بصورة تناقض ما ذكروا حين جعل ممدوحه أصبر على الماء من الضباب واكثر تحملا لحر الهجير ، مثبتا بذلك قصور ادراكهم لشخصية الأمير ، وما تميز به من شجاعة وجلد على القتال .

وفي القصيدة نفسها نراه يصف نجاحه في الوصول الى مرابعهم ؛ حيث جمع الى جانب جلده في مواجهة مصاعب القفار ذكاء وخبرة باختراق مسالكها ، فقال :

فهاجُوك أهْدَى في الفلا مِن نُجُومِه وأبْدَى بُيُوتاً من أَداحِي النقانِقِ[١٣]

وقد اعتمد في هذه الصورة على خبرته بعادات النعام في وضع أداحيه ، حيث ذكروا أنه لا يتخذ لبيضه عشا على الرغم من كثرته وكبر حجمه[١٤] اللذين يجعلانه باديا للعيان سهل المنال .

ويمكن القول إن تشبيه بيوتهم بأداحي النعام قد تضمن الاشارة إلى أنهم لم يستطيعوا حماية ديارهم في مواجهة جيشه القوي ، فولوا عنها فارين كعادة النعام في الابتعاد عن أداحيه اذا أحس بالخطر[١٥].

وقد انتهى الشاعر الى تصوير اخضاعه لجموعهم الثائرة بصورة

(١٢) التبيان . العكبري ٢ : ٣٢٧
(١٣) التبيان . العكبري ٢ : ٣٢٧
(١٤) الحيوان . الجاحظ ٤ : ٣٢٧
(١٥) حياة الحيوان الكبرى . الدميري ٢ : ٤٨٧

أخرى مستمدة من طباع الحيوان ألفها هؤلاء الأعراب في بيئتهم البدوية :

وكان هَدِيْراً من فُحُولٍ تَرَكْتَها مُهَلَّبَةَ الأذنابِ خُرْسَ الشقاشِقِ[16]

فقد مثل بما يحدثه تهليب الأذناب في الفحول - من تسكين هديرها واستكانتها - في تقديم صورة لذلهم وخضوعهم بعد طغيان وتعنت ، ولعله اختار البعير لأنه أعنف الفحول عند هيجانه ؛ فيسوء خلقه ويظهر زبده وشقاشقه[17].

وفي موضع آخر من شعره نراه يشبه نفسه بالنعام في قلة وروده للماء[18]، حتى قيل في المثل «أروى من نعامة»[19] فقال :

وإنّي لَتُغْنِيْني مِنَ الماءِ نُغْبَةٌ وأَصبِرُ عنهُ مِثلَ ماتَصبِرُ الرُّبْدُ[20]

وقد ورد هذا البيت بعد بيتين وصف فيهما حزنا دفينا على فقد أحبابه ، أجرى دمعا غزيرا من مقلتيه يساوي دمع جميع الباكين ، فكأنه أراد بهذا البيت دفع ماقد يظن به من الضعف بإشارته الى صبره وجلده .

ونراه في البيت الذي يليه يدور في الفلك نفسه ، فيصف نفسه بقلة المأكل سيرا على عادة العرب في المدح بقلة المآكل ، مشبها نفسه بالذئب الذي يقرنونه بالأسد في الصبر على الجوع[21]، فقال :

وَأَمْضِي كما يَمْضِي السِّنَانُ لِطِيَّتِي وأَطْوِي كما تَطْوِي المُجَلَّحَةُ العُقْدُ[22]

وقال يذكر الذئب والأسد

تُبَدِّلُ أَيَّامي وعيشي ومَنْزِلي نَجَائِبُ لايُفْكِرْنَ في النَّحْسِ والسَّعْدِ

وأَوْجُهُ فِتيانٍ حياءً تَلَثَّمُوا عليهنَّ لاخوفاً من الحَرِّ والبَرْدِ

---

(١٦) التبيان ٢ : ٣٢٨

(١٧) حياة الحيوان الكبرى ١ : ١٧

(١٨) المصدر نفسه ٢ : ٤٨٨

(١٩) مجمع الأمثال ١ : ٢٧٧

(٢٠) التبيان . العكبري ١ : ٣٧٦

(٢١) حياة الحيوان الكبرى . الدميري ١ : ٤٠٦

(٢٢) التبيان ١ : ٣٧٦

وليسَ حياءُ الوَجْهِ في الذِّئْبِ شِيْمَة ولكنه من شِيْمَةِ الأَسَدِ الوَرْدِ[٢٣]

أراد الشاعر التأكيد على أن تلثم غلمانه ليس تهيبا من الحر والبرد بل حياءً . والحياء من سمات الكرام ، فضرب مثلا استمده من معرفته بطبائع الأسد والذئب : فكلاهما من أشد السباع ضراوة إلا أن الأسد يوصف بالحياء ، وهو ما تجرد منه الذئب حتى قيل في المثل «أوقح من ذئب»[٢٤].

وقرن الذئب والغراب في موضع آخر ، فقال :

سَلَكْتُ صروفَ الدَّهْرِ حتى لقيتُهُ على ظهرِ عزمٍ مؤيداتٍ قوائِمُهْ
مهالِكَ لمْ تَصحَبْ بها الذئبَ نَفْسُه ولاحملَت فيها الغرابَ قَوَادِمُهْ[٢٥]

فقد وصف مكابدته ومعاناته للنوائب حتى تمكن من الوصول الى سيف الدولة ، الذي وجد الشاعر في صحبته راحة بعد طول عناء ، فذكر انه قطع الوصول اليه طريقا طويلا محفوفا بالمخاطر ، يعجز عن قطعه الغراب والذئب اللذين عرفا بارتياد الأماكن النائية[٢٦].

ولعل حديثه فيما سبق من أبيات عن صحبة الطير لجيش الممدوح قد أورد على ذاكرته حديث الذئب والغراب ؛ لاعتيادهما الاحتفال بأشلاء القتلى عقب المعارك ، وقد جمع بينهما لما عرف عن الغراب من تتبع للذئب لأكل مافضل منه ، ومنه ضرب المثل بالذئب والغراب في الرجلين اذا اتفقا دون خلاف[٢٧]

كذلك قال يصف فرسه بالحذر مستمدا وصفهم لحذر الغراب من قولهم في المثل «أحذر من الغراب»[٢٨] :

---

(٢٣) المصدر نفسه ٢ : ٦٢

(٢٤) حياة الحيوان الكبرى ١ : ٤٠٦ ، مجمع الأمثال ٢ : ٢٨٢

(٢٥) التبيان . العكبري ٣ : ٣٣٩

(٢٦) حياة الحيوان الكبرى ٢ : ٢٤٤ ، ١ : ٤٠٩

(٢٧) المصدر نفسه ٢ : ٢٤٢

(٢٨) المصدر نفسه ٢ : ٢٤٢ ، مجمع الأمثال ١ : ١٩٩

وزَادَ في الحِذْرِ على العَقَاعِقِ[٢٩]   يُمَيِّزُ الهَزْلَ من الحَقَائِقِ[٣٠]

ومن أمثالهم التي استمدها الشاعر قولهم «أعزّ من الغراب الأعصم»[٣١] في أبيات ذكر فيها خطابا أرسله الى جدته بعد طول انتظار .

أتاها كِتابي بعدَ يأسٍ وتَرْحَةٍ   فماتت سرورا بي، فمت بها هَمَّا

تَعَجَّبُ من خَطِّي ولفظي كأنها   ترى بحُرُوفِ السَّطرِ أغْرِبَةً عُصْما[٣٢]

قصد الشاعر باستعارته لهذا المثل الاشارة إلى يأس جدته من أخباره ، فلما جاءها الخطاب رأته كالغراب الأعصم في الندرة ، وقد أكد قوله في البيت الذي تقدمه .

وتوحي هذه الاستعارة بفخر الشاعر بروعة بيانه التي يندر أن يرى نظير لها .

وما زال الشاعر يذكر الغراب ، ففي موضع آخر أراد وصف قوم بالحقارة والضعة سائرا على منواله في الميل الى المبالغة ، فذكر ان جمعهم تناهى في قلته حتى ليغيب مرآه عن الغراب على حدة بصره[٣٣]، وتَخفى أصواتهم عن الخلد الذي وُهب دقة في السمع تجعله يدرك الوطء الخفي[٣٤] من مسافة بعيدة ، فقال :

فهم في جُمُوْعٍ لايراها ابنُ دَأْيَةٍ   وهم في ضَجِيْجٍ لايُحِسُّ بها الخُلْدُ[٣٥]

وقد نمت بعض أبياته عن إلمامه بمواطن سكنى الطيور المختلفة ، كما في نحو قوله :

---

(٢٩) لسان العرب (عقق) العقعق نوع من الغربان .

(٣٠) التبيان ٢ : ٣٥٦

(٣١) حياة الحيوان الكبرى ٢ : ٢٣٣ ، مجمع الأمثال ١ : ٤٢٨

(٣٢) التبيان ٤ : ١٠٤

(٣٣) حياة الحيوان الكبرى ٢ : ٢٤٢ ، مجمع الأمثال ١ : ١٠٠

(٣٤) الحيوان . الجاحظ ٦ : ٤١١ له رأي مخالف لما ذكر المتنبي قال :
الخلد دويبة صماء عمياء . حياة الحيوان الكبرى ١ : ٣٣٦

(٣٥) التبيان ٢ : ١٠

فالعرب منه مع الكُدرِيْ طَائِرَةٌ والرومُ طائِرةٌ منه مع الحَجَلِ[٣٦]

فذكر فرار العرب والروم أمام جيوش ممدوحه سيف الدولة : فالعرب تلتمس السهول بحثا عن ملجأ ، وتقصد الروم الجبال طلبا للسلامة ، وفي السهول يعيش الكدرى ، اما الجبال فهي مواطن الحجل .

ومن مقطوعة أنشدها في السجن قال يذكر الأسد :

أَهْوِنْ بطولِ الثُّوَاءِ والتَّلَفِ والسِّجْنِ والقَيْدِ يا أبا دُلَفِ
غَيْرَ اختيارٍ قَبِلْتُ بِرَّكَ بِي والجُوْعُ يرضي الأُسُوْدَ بِالجِيَفِ[٣٧]

أورد الشاعر صورة مستمدة من طباع الأسد للتمثيل على ان السجن لا يحط من إبائه وعزة نفسه ، إذ أنه قبل السجن اضطرارا لا اختيارا كما يقبل الأسد أكل الجيف إن اشتد به الجوع ، رغم ما عرف من شرف نفسه الذي يمنعه من أكل فريسة غيره ، بل عن العودة الى فريسة تركها بعد شبع[٣٨].

ويذكرنا هذا البيت بنظير له أشار فيه الشاعر الى أكل الضباع للميتة ، قال :

لاتحسَبُوا مَنْ أسرْتُم كان ذَارَمَقٍ فليس يأكل الا المَيْتَ الضَّبُعُ[٣٩]

والبيت من قصيدة أنشدها الشاعر بعد هزيمة مني بها الأمير ، فكانت صور القصيدة محاولة للتخفيف من وقع الهزيمة ، ومن هذا المنطلق تحدث الشاعر عن أسرى المسلمين فيها بقوله :

قلِ للدُّمُسْتُقِ إنَ المُسْلمين لَكُم خَانُوا الأميرَ ، فَجَازَاهُم بما صَنَعُوا
وَجَدْتموهم نِيَاماً في دمائِكُمُ كأَنَّ قتلاكُمُ إياهُمُ فَجَعُوا
ضَعْفَى تَعِفُ الأيادي عن مثالِهِمُ من الأعادي، وإنْ هم بها نَزَعُوا

فذكر أن عصيان هؤلاء الجند للأمير قد ورثهم ما منوا به من

(٣٦) التبيان ٣ : ٨٢
(٣٧) المصدر نفسه ٢ : ٢٨١
(٣٨) حياة الحيوان الكبرى ١ : ٣
(٣٩) التبيان ٢ : ٢٣٠

الأسر ، وأشار الى محاولتهم النجاة بالقاء أنفسهم بين القتلى ؛ كأنما أصابهم الرعب لما أحاط بهم من جثث ودماء ، وليس فخرا للدمستق أن أسر هؤلاء الضعفاء الذين يعف المحارب الشجاع عن أمثالهم ؛ فلا يقبل على الميتة من السباع غير الضباع[40] لخستها ودناءتها .

وقال يهجو أهل الزمان باللؤم والجبن والقعود عن المكارم ، مستعيرا أقوال العرب في صفات بعض الحيوان قائلا :

أذُمُّ إلى هذا الزَّمانِ أُهَيْلَهُ فأعلَمُهُم فَدْم، وأحْزَمُهُمْ وَغْدُ
وَأكرمُهُمْ كَلْبٌ، وأبصرهم عَمٍ وأسْهَدُهُم فَهْدٌ، وأشجعهم قِرْدٌ[41]

فقد أثبت تناهيهم في اللؤم ، حين جعل أكرمهم كالكلب الذي يضرب به المثل في اللؤم[42].

وقد اعتادت العرب أن تمتدح بقلة النوم ؛ إذ انهُ دليل على تكريس الجهد لنيل المعالي ، لذلك هجاهم الشاعر مستعيرا صورة الفهد الذي عرف بكثرة نومه فقيل (أنوم من فهد)[43]، ومن أقوال الشعراء فيه لأبي حية النميري :

بعذاريها أناساً نَامَ حِلْمُهُمُ عَنَّا وعنك وعنها نَوْمَةَ الفَهدِ[44]

أما القرد فقد عد مثلا للجبن ، فقيل «أجبن من الرَّبَّاح»[45]، وحكى عن عادات القرود في النوم من حيث تجمعها في مكان واحد وبقاء أحدها مستيقظا ترقبا للخطر[46] ما يدل على تمكن هذه الصفة من نفسه .

وعاد الشاعر الى الاستعانة بصورة القرد مرة اخرى ، حين رغب في بيان عجز غيره من الشعراء عن بلوغ شأوه في جودة شعره ، فجعلهم كالقرود

---

(٤٠) الحيوان . الجاحظ ٦ : ٤٥٠ ، حياة الحيوان الكبرى ٢ : ١٠٩

(٤١) التبيان ١ : ٣٧٤

(٤٢) مجمع الأمثال ٢ : ١٧٤

(٤٣) حياة الحيوان الكبرى ١ : ٣٠٥ ، مجمع الامثال ٢ : ٢٦٠

(٤٤) الحيوان . الجاحظ ٦ : ٤٧٢

(٤٥) مجمع الامثال ١ : ١٦٣

(٤٦) حياة الحيوان الكبرى ٢ : ٣٣١

في ولعهـا بالتقليد واقتدارها عليه ، حـتى قيل في المثل «أحكى من قرد»[٤٧]، ولكنها وقفت عاجزة امام المنطق الذى خص به الانسان فقال :

يَرُومُون شأوي في الكَلاَمِ، وإنَّما يُحَاكي الفتى -فيماخَلاَ المَنْطِق - القِرْدُ[٤٨]

ومن الحشرات التي أشار اليهـا النبر ، وبنت وردان ، والنبر : دويبة شبيهة بالقراد تلسع الابل[٤٩]، ذكرها الشاعر في قوله :

إليكَ طَعَنَّا في مدى كُلِّ صفصف بكل وآةٍ كُلُّ مالقيت نَحَرُ
إذاوَرِمَتْ من لَسْعَةٍ مَرَحَتْ لها كَأَنَّ نوالاً صَرَّفي جِلْدِها النِبْرُ[٥٠]

فقد وصف ناقته بالصلابة والشدة حين أشار إلى أن لسعة النبرة وغيره من الحشرات لا تضعفها بل يزيد قلقها للسعة من نشاطها ، ومن هذا المنطلق شبه موضع اللسعة بصرة دراهم وضعها النبر في جلد الناقة ، مستفيدا من الدلالة اللغوية للفظ مرح[٥١] بمعنى : نشط وفرح في تقديم هذه الصورة .

وذكر بنات وردان في هجائه لوردان بن ربيعة الطائي ، حيث لفت انتباهه اتفاق اسم المهجو مع اسم بنت وردان وهي : ضرب من الدود يأكل العذرة[٥٢]، مما اورد على ذاكرته سيرة الخنزير لاتفاقه مع هذه الدودة في المطعم ، فشبه المهجو بالخنزير لأنه يطلب كسبه من جهة خبيثة مثلها ، في قوله :

لَحَا الله وَرْدانا وأُماًأَتَتْ به له كَسْبُ خنزيرٍ وخُرْطُومُ ثَعْلَبِ
إذا كسبَ الانسانُ من هَنِّ عِرْسِهِ فيالؤمِ انسانٍ وياُلؤمَ مَكْسَبِ
أهذا اللَّذَيًّا بِنْتُ وردانَ بِنْتُهُ هماالطالبان الرِّزْقَ من شَرِّ مَطْلَبِ[٥٣]

ومن الدواب التي وصفها كثير من الشعراء الحرباء ، وقد أشار اليهـا

---

(٤٧) حياة الحيوان الكبرى . الدميري ٢ : ٣٣٤ ، مجمع الأمثال ١ : ٢٠٢
(٤٨) التبيان ٢ : ٩
(٤٩) حياة الحيوان الكبرى ٢ : ٤٦٣
(٥٠) التبيان ٢ : ١٥٦
(٥١) لسان العرب (مرح)
(٥٢) حياة الحيوان الكبرى ٢ : ٥٥٣
(٥٣) التبيان ١ : ٢١٩

الشاعر في قوله :

يتلوّن الخِرّيتُ من خوف التّوَى فيها، كما تَتَلُوّن الحِرْباءُ[٥٤]

وقد سبق هذا البيت وصف للطريق التي سار فيها الشاعر إلى ممدوحه الأوراجي بأنها صعبة لم تسلك «وطريقها عذراء» ، لذلك نراه يشير في البيت إلى حيرة الدليل فيها على الرغم من خبرته باختراق الصحارى والقفار ، فلم يسر في طريقه سير الواثق من السبيل الذي يسلكه بل هو في تخبط مستمر ، وقد ملك الخوف لبه خشية التيه في هذه البيداء ، فحال لونه وتبدلت سحنته مثل الحرباء التي عرفت بتلونها ألوانا كثيرة[٥٥].

وقد أضفى هذا التشبيه الى جانب اللون عنصر الحركة ؛ لما عرف من عادات الحرباء في الحركة متابعة للشمس .

وقال مشيرا الى أحد المعتقدات الشعبية التي عرفها العرب في إخراج الأفاعي والحيات من مكامنها ، حين يتولى الحواء أو الرقاء إخراجها بالعزيمة والاقسام عليها فتستجيب خارجة من مكمنها لفهمها لما يريد[٥٦]. قال :

رُقَاهُ كُلُّ أَبْيَضَ مَشْرَفِيّ لكل أَصمَّ صِلّ أُفْعُوانِ

ومايَرقي لُهَاهُ منْ نَدَاهُ ولاالمالَ الكريمَ مِن الهوانِ[٥٧]

وقد سبق هذين البيتين حديث الشاعر عن حماية عضد الدولة لأرضه من عبث اللصوص والمعتدين حيث قال :

أرُوُضُ النَّاسِ من تُربٍ وخَوْفٍ وأَرْضُ أبي شُجَاعٍ مِنْ أَمَانِ

تُذِمُّ على اللُّصُوصِ لكل تَجْرٍ وتَضْمَنُ للصَّوارِمِ كُلَّ جَاني[٥٨]

ويمكن أن نفترض ان ذكر اللص هنا أورد على ذاكرة الشاعر لفظا يجانسه أُطْلِقَ عِلي الرجل الداهية هو «صل» في نحو قولهم : «فلان صل

(٥٤) المصدر نفسه ١ : ١٧

(٥٥) حياة الحيوان الكبرى ١ : ٢٦٢

(٥٦) الحيوان . الجاحظ ٤ : ١٨٤ - ١٨٦

(٥٧) التبيان ٤ : ٢٥٩

(٥٨) المصدر نفسه ٤ : ٢٥٨

اصلال» ، وقول الشاعر :

إنْ كُنْتَ داهِيَةً تُخْشَى بوائِقُها فقد لقيت صُلاًّ صِلَّ أَصْلاَلِ[٥٩]

وقد استدعت سيرة الصلّ والأفعوان - اللذين شبه الشاعر بهما اللصوص - تشبيها آخر للسيف الذي يدفع شرهما برقى الحيات ، اعتمادا على هذا المعتقد الشعبي .

الفلك :

ورد في ديوان الشاعر عدد من الأبيات تدفع الباحث الى عقد صلة - وإن كانت ضئيلة - بين فكر الشاعر وما عرفه العرب عن عالم الفلك . وقد وجد الشاعر في متناوله طائفة من المؤلفات في هذا العلم ، أسهم في وضعها علماء النحو واللغة الذين وجدوا مادة مؤلفاتهم في أسجاع العرب وأشعارها وألفاظها المتعلقة بالنجوم[٦٠]، إلى جانب المؤلفات التي وضعها علماء العرب المتخصصون في علم الفلك : كالخوارزمي ، ويحيى بن منصور ، وموسى بن شاكر ، والبتاني ، وغيرهم بتأثير اتصال العرب بغيرهم من الأمم كالهنود والفرس واليونان ، واستفادتهم من مؤلفاتهم في هذا العلم .[٦١]

ولسنا بحاجة الى القول بأن الشاعر قد مارس حياة البادية وصحب الأعراب الذين كانوا مصدرا لمؤلفات الفريق الأول من العلماء ، بالاضافة الى ثقافته اللغوية الواسعة التي وضعت في متناوله كثيرا من مؤلفاتهم .

ويمكن القول ان استقراء هذه الاشعار يبين التزام الشاعر في بعضها بنظرة علمية أو قريبة من العلمية ، وارتباط بعضها بآراء العامة ومعتقداتها حول النجوم .

قال يذكر الشمس في مقطوعة أنشدها ارتجالا في حضرة سيف

(٥٩) لسان العرب (صلل)

(٦٠) كتاب الانواء . ابن قتيبة (المقدمة . يج)

(٦١) المصدر نفسه

الدولة :

تَكَسَّبُ الشَّمْسُ مِنْكَ النُّورَ طالعةً   كما تَكَسَّبَ مِنها نُورَهُ القَمَرُ[٦٢]

فأشار الى نظام فلكي في عدّ الشمس مصدرا لضوء القمر ، إذ يستمد منها نوره وتتعدد حالاته من الاستهلال إلى انقضاء الشهر وفقا لتأثره بنور الشمس[٦٣]، خلافا لما كان يشيع في أوساط العامة من عد الشمس والقمر كوكبين مضيئين كغيرهما من الكواكب[٦٤].

وقال يذكر الأنواء[٦٥] في قصيدة مدح بها هارون الأوراجي :

وعِقابُ لُبْنَانٍ وكيف بِقَطْعِها   وهو الشِّتَاءُ وصيفهن شِتاءُ
لَبس الثُّلُوجُ بها عليَّ مَسَالِكي   فكأنَّها ببياضِها سَوْدَاءُ
وكذا الكريمُ إذا أقامَ ببلدةٍ   سالَ النُّضارُ بها وقامَ الماءُ
جَمَدَ القِطارُ ولو رَأَتْهُ كما تَرى   بُهِتَتْ فَلَمْ تتبجَّسِ الأنواءُ[٦٦]

ويمكن القول إن اسناد الفعل للأنواء في البيت قد يوحي بأن الشاعر جعل للأنواء فعل انزال المطر اقتداء بالعرب في الجاهلية[٦٧]، وهو ما نهى عنه الرسول بقوله في حديث قدسي «قال الله أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[٦٨]، وإن كان ذكر النوء لارتباطه الزمني بسقوط المطر مما أباحه الدين .

وقد كان ارتباط الغيث بالكرم في التراث الشعري العربي دافعا قاد الشاعر إلى ذكر الأنواء ؛ لعلاقة السببية أو الزمانية .

---

(٦٢) التبيان . العكبري ٢ : ٩٩
(٦٣) نهاية الأرب في فنون الأدب . النويري ٥٠ ، ٥٦
(٦٤) كتاب الانواء . ابن قتيبة ١٢٨
(٦٥) لسان العرب (نوأ)
(٦٦) التبيان ١ : ١٩
(٦٧) كتاب الانواء . ابن قتيبة ١٤
(٦٨) المصدر نفسه ١٤

وفي قصيدة اخرى نراه يمدح كرم بني عجل ، فجعلهم يستوفون الكرم كله كما تستوفي الأنواء العام كله ؛ إذ أن الأنواء ثمانية وعشرون نوء يسقط كل نوء منها كل ثلاثة عشر يوما ، وبسقوط آخر نوء منها ينصرم العام[٦٩]. فقال :

وقَبْضُ نَوَالِ بَعْضِ القَوْمِ ذَامُ   وقَبْضُ نَوَالِهِ شَرَفٌ وعِزُّ
أَقَامَتْ في الرِّقابِ له أَيَادٍ   هي الأَطْوَاقُ والنَّاسُ الحَمامُ
إذا عُدَّ الكِرَامُ فتلكَ عِجْلٌ   كماالأَنْوَاءُ حِيْنَ تُعَدُّ عَامُ[٧٠]

وعندما أراد وصف سرعة سيره من شيراز إلى الكوفة استعان بصورة كوكب السماك ، فقال :

فَلَوْ سِرْنا وفي تَشْرِيْنَ خَمْسٌ   رَأَوْنِي قَبْلَ أن يَرَوُا السِّماكا[٧١]

فهو أسبق من الكواكب في الوصول الى الكوفة ؛ إذ ان السِّماك من الكواكب اليمانية ، ويتم طلوعه بعد الخامس من تشرين[٧٢].

ويمكن أن نفترض أن الشاعر ذكر السِّماك هنا لأنه من الأنواء المحمودة المعتمد عليها في خصب العام[٧٣]، فكأن سقوط مطر هذا النوء تيمن برجوعه الى الكوفة ، ولعل قول الشاعر في البيت الذي يليه يبدو مؤيدا لهذه الخطرة حيث قال :

يُشَرِّدُ يمن فَنَّا خُسْرَو عَنِّي   قنا الأَعْدَاءِ والطَّعْنَ الدِّرَاكَا

وقال يذكر الشعري :

وَشُزَّبٌ أَحمتِ الشِّعْرى شكائِمها   ووسَّمتْها على آنافِها الحَكَمُ
حتى وَرَدْنَ بسمنينٍ بُحَيْرَتَها   تَنِشُّ بالماءِ في أَشْدَاقِهااللُّجُمُ[٧٤]

فقد نابت الشعري عن الشمس لعلاقة الزمانية ، إذ أن الشعري من

---

(٦٩) المصدر نفسه ٧

(٧٠) التبيان . العكبري ٤ : ٧٦

(٧١) التبيان العكبري ٢ : ٣٩٥

(٧٢) كتاب الانواء . ابن قتيبة ٦٥

(٧٣) المصدر نفسه ٦٥

(٧٤) التبيان . العكبري ٤ : ١٩

نجوم الصيف ويوافق طلوعها شدة القيظ[٧٥] ، حتى قالت العرب في أسجاعها «اذا طلعت الشِّعري ، نشف الثرى ، وجعل صاحب النخل يرى[٧٦] .

ويحضرني في ذكر الشِّعرى قوله في موضع آخر :

متى مايُشِرْ نَحْوَ السَّماء بوجهه ... تَخِرُّ له الشِّعْرَى،وَيَنكَسِفُ البَدْرُ[٧٧]

إذ يمكننا أن نفترض ان الشاعر قد أورد الشعري هنا بتأثير ما يعرفه عن عبادة العرب القديمة لكوكب الشعرى[٧٨]، ويؤكد ذلك هذه الحركة العنيفة التي يصورها الفعل « خرّ » ، وما يوحي به اللفظ من الذل والخضوع .

وقال يذكر زحلا :

وأنني غَيْرُ مُحْصٍ فَضلَ والِدِهِ ... ونَائِل دُوْنَ نَيْلِي وَصْفَهُ زُحَلا[٧٩]

وقد تصور البعض انه خص زحل بالذكر دون سائر الكواكب لأنه أبعدها عن الأرض[٨٠] وبذلك يفي بمقصود الشاعر في تصوير التناهي في بعد المطلب ، وعلى الرغم من ان هذا القول يبدو معقولا إلى حد ما فان ضرورة القافية تبدو هنا دافعا ألجأ الشاعر إلى ذكر هذا اللفظ ، ولو وضع اسم كوكب آخر محل زحل لما تغير المعنى .

وأشار في موضع آخر الى الحكم الظني الشائع حول نحس زحل[٨١] :

يابَدْرُ، يابَحْرُ، ياغمامةُ، يا ... ياليثَ الشَّرَى، ياحمامُ، يارَجُلُ

أنتَ نقيضُ اسمه اذا اختلفتْ ... قواضب الهِنْدِ والقَنَا الذُبُلُ

أنت لَعمري البدرُ المنيرُ، ولـ ... كنَّك في حَوْمَةِ الوغى زُحَلُ[٨٢]

يلاحظ ان هذه الاستعارات التي صورت كرم الممدوح أو شجاعته في

(٧٥) كتاب الانواء ٤٦
(٧٦) المصدر نفسه ٥٢
(٧٧) التبيان . العكبري ٢ :١٢٦
(٧٨) كتاب الانواء . ابن قتيبة ٤٦
(٧٩) التبيان . العكبري ٣ : ٦٦١
(٨٠) المصدر نفسه ٣ : ١٦٦ ، كتاب الانواء ١٢٦
(٨١) نهاية الأرب . النويري ١ : ٣٨
(٨٢) التبيان ٣ : ٢١٦

البيت الأول قد أحدثت تقابلا بين ما يوحي به ذكر الماء من الاحياء وبين ما يحمله لفظ الحمام من الهلاك ، وهو بالاضافة إلى مدلول اسم الممدوح (بدر) أورد على ذاكرة الشاعر أقوال المعنيين بالتنجيم القائلين بسعادة القمر ونحس كوكب آخر رأوه جالبا للهلاك والدمار ، فشبه الممدوح في إهلاكه لمن حارب بكوكب زحل .

وقد اقترن ذكر زحل بالنحس لدى كثير من الشعراء ، كما نرى لدى أبي تمام في قوله :

إحدى المصائبِ حلَّت في ديار بني عمرانَ ليس لها أُختٌ ولا مَثَلُ
ألوى بتيجانهم يوم أُتِيحَ له نَحْسٌ وأَثْقَبَ نارَهُ زُحَلُ[٨٣]

ومن الكواكب النواحس في اعتقادهم الدبران[٨٤]، وقد ذكره الشاعر في قوله :

نفى وَقْعَ أَطْرَافِ الرِّماحِ بِرُمْحِه ولم يَخْشَ وَقْعَ النَّجْمِ والدَّبرانِ
ولم يَدْرِ أنَّ الموتَ فوقَ شواتِهِ مُعَارُ جَنَاحٍ مُحْسِنِ الطَّيَرانِ[٨٥]

ورد البيت في قصيدة أنشدها الشاعر بعد مقتل شبيب العقيلي الذي خرج على كافور الاخشيدي . وقد كان المتنبي في هذه القصيدة مغنيا بفكرة حتمية القضاء والقدر ، الذي أدى دوره في الصراع الدائر بين كافور وشبيب ، فحكم لكافور بالنصر وأهلك شبيبا ، كشأنه في اعطاء من لايستحق :

ولله سِرٌّ في عُلاكَ وَانَّما كَلامُ العِدَا ضَرْبٌ مِنْ الهَذَيانِ[٨٦]

ومن هذا المنطلق طرح الشاعر مزايا كل من الخصمين : فأسهب في وصف شجاعة شبيب ، على الرغم من ان موقفه كشاعر ببلاط كافور كان يحتم

---

(٨٣) ديوان أبي تمام ٤ : ١٢١
(٨٤) كتاب الأنواء . ابن قتيبة ٣٧
(٨٥) التبيان . العكبري ٤ : ٢٤٤
(٨٦) المصدر نفسه ٤ : ٢٤٢

عليه تجنب هذا المسلك في ذكر رجل عادى كافورا ، وفي المقابل نراه قد استطرد في بيان موالاة القدر لكافور حتى استغنى عن اتخاذ السلاح للدفاع عن نفسه :

فمالكَ تختارُ القِسِيَّ وإنَّما عن السَّعْدِ يَرْمي دونَكَ الثَّقَلانِ
ومالكَ تُعْنى بالأَسِنَّةِ والقَنا وجَدُّك طَعَّانُ بِغَيْرِ سِنَانِ
ولم تَحْمِلِ السَّيْفَ الطَّوِيْلَ نجاده وأنت غني عنه بالحَدَثَانِ[87]

ومنْ هنا كان وقوع النجم والدبران احدى ضربات القدر التي استوحى الشاعر فيها رأي العرب في هذا الكوكب غير المحمود . وقد جاء ذكر هذا الكوكب مقترنا بالنحس على ألسنة العديد من الشعراء ، كقول أحدهم في عبيد بن الأبرص حين تعرض للملك يوم بؤسه يريد حياة :

غَداةَ تَوَخى الملكَ يَلْتَمِسُ الحَيَا فصادفَ نحساً كان كالدَّبرانِ[88]

وقد أورد الشاعر احدى الأساطير العربية التي ربطت بين ظهور سهيل ووقوع الوباء في الحيوانات[89]، كعاداتهم في نسبة كثير من الحوادث الطارئة أو العارضة الى فعل الكواكب وقراناتها ، فقال :

وتنكرَ مَوْتَهمُ وأنا سُهَيْلٌ طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلادِ الزِّنَاءِ[90]

فما ان حل الشاعر في ديار التنوخيين حتى تالقت موهبته الشعرية وتضاءل غيره من الشعراء بالقياس اليه ؛ اذ لاوجه لمقارنتهم به فهم كما وصفهم :

وإنَّ من العجائب أنْ تراني فَتَعْدِلَ بي أَقَلَّ مِنَ الهَبَاءِ

وقد هيأت له هذه الاسطورة المقابلة بين السمو الذي مثله بالنجم ، والانحطاط الذي مثله بالبهائم ، حين جعل ظهوره سببا للهلاك الذي ألم بهم ،

---

(٨٧) التبيان . العكبري ٤ : ٢٤٧
(٨٨) كتاب الأنواء . ابن قتيبة ٣٧
(٨٩) المصدر نفسه ١٥٥
(٩٠) التبيان . العكبري ١ : ١٢

كما تحكى الأسطورة عن هلاك البهائم بظهور سهيل .

وقال مشيرا الى الجوزاء :

خَمِيسٌ بِشَرْقِ الأَرْضِ والغربِ زَحْفُهُ   وفي أُذُنِ الجَوْزَاءِ مِنه زَمَازِمُ[٩١]

وقد أورد البيت في قصيدة أنشدها عندما حاول البيزنطيون الاستيلاء على قلعة الحدث ، بجيوش عظيمة امتد زحفها شرقا وغربا ، وبلغ ضجيجها عنان السماء ويمكن القول إن استعارة الأذن للجوزاء في البيت قد بنيت على تصور العرب لنجم الجوزاء حين مثلوه بالملك ؛ إذ تراءى لهم تشكيل النجوم فيه بصورة رجل على رأسه تاج[٩٢].

وفي مجال الفخر بروعة المنطق شبه نفسه بالجوزاء ، فقال :

أنا صَخْرَةُ الوادي اذا ما زوحِمَتْ   واذا نَطَقْتُ فإنَّني الجَوْزَاءُ[٩٣]

وقد تعددت الآراء حول تعليل ايراده للجوزاء في البيت : فكان وجه الشبه لدى البعض الارتفاع او السمو[٩٤]، كما هو متداول بشكل واسع في الشعر العربي في التشبيه بالنجوم .

وقال آخرون قولا يشبه ما ذكرناه آنفا من إشارته الى تمثيلهم للجوزاء بالانسان[٩٥] ولعل الأقرب - إن سرنا في هذا الطريق - أن يكون الشاعر قد عنى تسميتهم للجوزاء بالجبار أو الملك ، وهو أكثر تمثيلا لنفاذ القول .

وذكر فريق ثالث انه خص الجوزاء لانها بنت عطارد الذي عرف لدى المنجمين بأنه نجم اللسن والفصاحة[٩٦]، ولهذا سمي بالكاتب[٩٧]، وقد أشار أليه أبو تمام فقال :

---

(٩١) التبيان . العكبري ٣ : ٣٨٤

(٩٢) كتاب الأنواء . ابن قتيبة ٤٥

(٩٣) التبيان ١ : ١٥

(٩٤) شرح ديوان المتنبي . ابن جني ٤٠٩

(٩٥) النظام . ابن المستوفي (خ ١ : ٦٣ ب)

(٩٦) الواضح في مشكلات شعر المتنبي . الأصفهاني ٩٣

(٩٧) نهاية الأرب . النويري ١ : ٣٩

أَوْ قدمتك السِنُّ خلتَ بأنّه   من لفظِك اشتُقَّتْ بلاغةُ خالدِ
أوكُنْتَ يوماً بالنجومِ مُصَدِّقاً   لزعمت أنك أنت بكرُ عطاردِ[٩٨]

وقد يبيح لنا ما نعلمه من اطلاع الشاعر على قدر من تاريخ اليونان القول بأنه خص الجوزاء لأنها تمثل لديهم رب الحكمة ، وهو لدي اكثر التأويلات ارضاء لدوافعه النفسية ، وتتمشى مع ما عرف به الشاعر من ميل الى ايراد الحكم في شعره .

وقد هيأت بعض أقوال المنجمين - الذين يجعلون للكواكب طبيعة مختلفة : اذ يقسمونها الى مصدر سعد أو نحس - هيأت للشاعر صورا من المديح تشبع ميله الى المبالغة في إثبات تفوق من يمدحهم على سائر الناس فجعلهم مؤثرين في الكواكب التي يقع في إطارها المزعوم الناس جميعا ، فقال :

فإِنَّكَ مامَرَّ النُّحُوْسُ بِكَوْكَبٍ   وقَابَلْتَهُ إِلاّ ووجهُكَ سَعْدُهُ[٩٩]

وقال :

يَقُوْلُون تأثيرُ الكواكبِ في الورى   فما بالُهُ تأثيرُه في الكواكبِ[١٠٠]

وقد فسر ابن فورجة البيت الثاني بعيدا عن أقوال المنجمين ، مستظلا بصور المعارك في الشعر العربي ، فذكر ان المقصود بتأثيره في الكواكب اثارته الغبار حتى لاتظهر الكواكب ليلا ، أو اظهاره ما يشبه الكواكب من الأسلحة التي تبرق من خلال سحب الغبار المتكاثف[١٠١].

وأراني أميل الى الوجه الأول الذي قد يؤيده قول الشاعر في البيت الذي يليه :

عَلاَ كتدِ الدُّنْيَا الى كُلِّ غَايَةٍ   تَسِيْرُ به سير الذَّلُوْلِ لراكبِ

وقد نحمل في هذا البيت رأيا للشاعر يتمشى مع ما نعلمه من ثقافته

---

(٩٨) ديوان أبي تمام ١ : ٢٠٨
(٩٩) التبيان . العكبري ٢ : ٣٠
(١٠٠) المصدر نفسه ١ : ١٥٦
(١٠١) الفتح على أبي الفتح . ابن فورجة ٦٣

الواسعة ، التي قد تنأى به عن موقف المتقبل لهذه الاحكام الظنية التي يعوزها الدليل المنطقي . فنفترض أنه أراد بذكر تأثير الخلق في الكواكب النعي على اقوال المنجمين ، واثبات فساد احكامهم . ولعله قد صدر في مثل هذا الحكم بتأثير ما بلغه من علم النجوم التعليمي ، أو بتأثير نظرة الفلاسفة كالفارابي الى التنجيم وأحكامه(١٠٢)

وقد نجد في بيت آخر للشاعر تأييدا لما ذكرنا ، وهو قوله :

تُبَدِّلُ أيّامي وعَيْشِي ومَنْزِلِي نجائب لايُفْكِرْنَ في النَّحْسِ والسَّعْدِ(١٠٣)

فقد وصف نوقه بأنها «نجائب» ، وذكر انها تعينه على اشباع ميله الى التنقل والترحال ؛ لأنها لاتلق بالا لما يعتري كثيرا من العقول من ظنون وأوهام حول ملاءمة بعض الأوقات للسفر لسعدها ، والامتناع عن الترحال في غيرها لنحسها ، بتأثير أقوال المنجمين .

---

(١٠٢) تاريخ الفلسفة في الاسلام دي بور ١٦٦

(١٠٣) التبيان . العكبري ٢ : ٦١

الخاتمة

قدم هذا البحث صورة لأثر الثقافة في شعر شاعر من القرن الرابع وقد لوحظ من تقسيم هذه الثقافة ان الشاعر كان حريصا على الاستفادة من الثقافة في جانبين : يتعلق الأول بصقل الموهبة والاستعداد لعملية النظم من خلال اتجاهه الى التراث الشعري العربي في مختلف العصور ، وتحصيله لعلمي اللغة والنحو ، لتقويم اداته في التعبير ، كما انه لم يغفل عن الاستفادة من معارف العصر فتكونت مادته الفنية من تبلور هذه المعارف التي وجدت أدوات ملائمة هيأها الشاعر للتعبير عنها .

وقد تناولنا هذه المادة في إطار الشعر الذي وردت فيه حيث لاحظنا الدوافع التي ساقت الشاعر الى ايراد بعض الاشارات دون غيره ، وعلاقتها بموضوع القصيدة ، ومدى ارتباطها بالسياق ، وهل تولدت عنه أم أقحمت عليه ؟ الى جانب ما اضافته هذه الاستعانة بالثقافة الى صورة البيت خاصة ، واطار القصيدة عامة .

وقد تبين لنا ان بعض جوانب هذه الثقافة بدا اكثر ظهورا من غيره ، وتضاءل بعضها فقل أثره في الشعر بشكل واضح .

وتعد الثقافة اللغوية من أهم جوانب ثقافته ، وقد أدت دورها في تطوير أداته واحكام فنه من ناحية ، وكانت مصدرا لجانب من معارفه كالفلك والحيوان من ناحية أخرى .

وقد بدا الشاعر في صورة العالم المتمكن من اللغة ثقة بطبعه[1] وسعة

---

(١) الرسالة الموضحة ٧٧

اطلاعه ، سواء في المناقشات التي وردت في أخباره أو في الأمالي التي صدرت عنه ، حيث بدت غزارة مادته في خروجه عن مهمة بيان المعنى الى سرد معلومات لغوية ونحوية : فيشرح المعنى بايراد شواهد متعددة ، وقد يورد للفظ عدة صيغ أو عدة مترادفات ، ويستشهد لذلك بما سمعه من الأعراب وأقوال العلماء ، الى جانب الشواهد الكثيرة من محفوظة من الشعر والقرآن والحديث .

وقد لوحظ انه كان يطيل في ردوده ويكثر من الشواهد في أحيان كثيرة بشكل واضح[٢] خاصة في بعض الألفاظ التي يُخطأ فيها ، أو يتشكك المناقش في صحتها ؛ مما يدل على حرصه على إثبات صحة استخدامه اللغوي .

ويمكن القول ان ما استقر في الأذهان من انتماء الشاعر الى مدرسة الكوفة كان وراء كثير من التأويلات التي انساق اليها الشراح لاثبات ترسمه للشذوذ الكوفي ، ولو أمعنوا النظر في بعض الأبيات لاستطاعوا تخريجها دون حاجة الى ادراجها في اطار الشذوذ الكوفي .

وقد لوحظ ان الجانب الأكبر من الأبيات التي ترسم الشاعر فيها بعض الأساليب الشاذة أو غير الشائعة كالنحو الكوفي على سبيل المثال[٣] قد وردت في شعر الصبا وفي القصائد الشاميات التي انشدها الشاعر قبل اتصاله ببلاط الحمدانيين ؛ مما يدل على انه استمد ثقافة لغوية واسعة في فترة مبكرة ، ولعل مرد هذه الظاهرة - الى جانب ما ذكرنا - تجنب الشاعر لمثل هذه الشواذ عندما وجد شعره محل نقد من علماء النحو واللغة في بلاط سيف الدولة وغيره .

كما كشف البحث عن اطلاع الشاعر على بعض مؤلفات اللغويين

---

(٢) الوساطة . الجرجاني ٤٦٠ ، ٢٥٠ ـ ٢٥٢

(٣) بلغت شواهده خمسة عشر شاهدا وقد وردت كما يلي : شاهد واحد في شعر الصبا ٤ : ٣٥ ، وأحد عشر شاهدا في الشاميات (١ : ١١٤ ـ ١١٦ ـ ١٥٨ ـ ٢٢٥ ـ ٣٨١ ، ٢ : ١٧٦ ـ ١٩٥ ـ ٢٥٣ ، ٣ : ١٨٤ ، ٤ : ٩٠ ـ ١١٥) ، وشاهدان من السينيات ١ : ٢٧٧ ، ٣ : ٥ وشاهد من الكافوريات ٢ : ١٩

والنحاة ، وناقش ما عيب عليه من إغفاله لمؤلفات لغوية أخرى .

أما في حديثنا عن الثقافة الأدبية فقد حاولنا أن نتبين الوسائل التي سلكها الشاعر للأستعانة بموروثه الشعري ، في البيت الواحد أو في إطار القصيدة كلها .

وقد لاحظنا ان الصورة الواحدة قد تكون مماثلة لمصدرها في الفكر والتعبير كجانب من التأثر اللاواعي بالمحفوظ الشعري ، وقد عني النقاد بتعقب مثل هذه الأبيات كضرب من السرقة الفاضحة في نظرهم . وقد ترد الصورة مختلفة عن أصلها في التعبير ، أو تكون ملهمة لصورة أخرى تشترك معها في الأصل الذي استمدت منه ، أو مصدرا لصور أخرى على نمطها تضاف اليها .

وقد يلجأ في تكوين صوره الى استمداد عناصر مختلفة ، من مصادر مختلفة ، ويؤلف بينها في علاقات جديدة .

وقد واكب المتنبي غيره من الشعراء في تناول المعاني التي دارت دورانا واسعا في الشعر العربي ، بحيث يصبح تحديد أصولها أمرا يحتمل الكثير من الافتراضات ، كذلك لم يغفل عن ملاحظة التطور الذي طرأ على هذه الصور المتداولة على يد بعض الشعراء .

وقد امتد تأثره بالموروث الى إستيحاء قصيدة كاملة وقد مثلنا لهذه الظاهرة بقصيدة رأينا فيها معارضته لأبي تمام ، كما ناقشنا آراء بعض النقاد في هذا الباب كابن الاثير وطه حسين . هذا الى جانب عرضنا لنماذج من تأثره بالموروث الشعري في أسلوب التعبير نحو ايراده للتشبيهات المتتالية في بيت واحد ، أو تعمده المعاظلة اللفظية ، وغير ذلك .

وقد بذلنا جهدا في تبين وسائل استعانته بموروثه الشعري . وأعاننا على ذلك كتب السرقات إلى جانب اخبار الشاعر التي هدتنا الى الدواوين التي اطلع عليها في تحديد مصادر هذه الصور ، وان كنا لانملك الجزم بعدم وجود

مصادر أخرى لهذه الصور مما لم نستدل عليه .

وقد تألفت ثقافته الفلسفية من آراء تتعلق بالبحث في اصل الوجود ومصير الانسان ، الى جانب اقوال بعض حكماء اليونان وخاصة ارسطو فيما يتصل بالفلسفة الأخلاقية .

وقد تركت هذه الثقافة اثرا في أسلوب الشاعر تناولنا بعضه عند عرضنا لكيفية تناوله لما أورده من حكم الفلاسفة وذكرنا الآخر حديثنا عن اثر الفكرة النقدية التي أثارها الفلاسفة بتأثير فن الشعر لأرسطو في إكثار الشاعر من الحكم والأمثال ، إلى جانب إقبال الشاعر على بعض الأنماط البلاغية التي تقترب اقترابا واضحا من المنطق الأرسطي .

وتناول البحث أثر المصطلحات التي استعارها الشاعر من الفلسفة في شعره ، كما ناقش بعض ما عده النقاد من آثار الفلسفة ممثلا في غموض بعض أبياته ، حيث يتبين لنا ان جانبا كبيرا منها كان الغموض فيه وليد ضحالة الفكرة ومحاولة الشاعر ابهام ابياته دون أن يكون هناك ما يستدعي ذلك من عمق في الفكرة أو ما ماثله .

وفي حديثنا عن الثقافة الدينية درسنا مدى تأثر الشاعر بأحداث الحركة الاسماعيلية التي بلغت أوجها في هذه المرحلة من تاريخ الأسلام وأثر الفكر **الاسماعيلي** في شعره وإن كنا نميل الى نفي القرمطية عنه .

وقد بحثنا أثر اتصاله بطائفة من المتصوفة في فكره وأسلوبه وامتد الحديث الى معرض الثقافة الدينية من القرآن وما اتصل به من مأثورات ومن آراء شيعية وفقهية وصوفية في شعره .

ويجدر بنا ان نشير الى اننا في حديثنا عن الأثر الفكري لبيئات القرامطة والصوفية ينبغي ألا نغفل اشتراك هاتين الفئتين في بعض آرائهما ، ذلك الاشتراك الذي قد يكون نتيجة لتداخل العلوم العقلية التي كونت المهاد الثقافي لهما ، ونضرب لذلك مثلا بفكرة الحلول التي عددناها أثرا صوفيا في

شعر المتنبي ، وقد كانت هذه الفكرة أحد عناصر الفكر الاسماعيلي .

كذلك فان جانباً من المصطلحات الفلسفية التي عرضنا أثرها في شعره قد تداولها الصوفية في أشعارهم كالجزء والكل[٤] وغير ذلك .

ويمكن القول إن بعض آثار ثقافة المتنبي الدينية والفلسفية قد أسهمت في اتهام الشاعر بضعف العقيدة أو المروق عن الدين ، سواء أكان ذلك من آراء الصوفية أو الاسماعيلية نحو الحلول والاتحاد ، أم من بعض الأبيات التي تأثر الشاعر فيها بآراء الفلاسفة التي تخالف ما جاء بالديانات السماوية من إقرار بالبعث ، أو من كيفية استخدام الشاعر للمأثورات الدينية التي لمس فيها النقاد استخفافا واستهانة بالدين على حد تعبيرهم . مما حدا بالجرجاني الى الدفاع عنه بقوله : إن الديانة ليست عارا على الشعر[٥] .

وقد حاولنا ونحن نجمع مادة البحث أن نتبين هل تميز الشاعر بثقافة خاصة خلافا لمعاصريه ، فحاولنا أن نقارنه بطائفة من الشعراء الذين عاصروه في بلاط سيف الدولة . وقد كشفت هذه القراءة المبدئية لبعض من عثرنا على دواوينهم كأبي فراس ، والصنوبري ، والسري الرفاء ، وكشاجم ، والوأواء الدمشقي أن المتنبي اشترك مع غيره من الشعراء في الإطار العام لثقافته ، وان كان قد برز في ثقافته الفلسفية في الوقت الذي قصر غيره من الشعراء عن بلوغ شأوه في هذا الباب كأبي فراس . وبدا لنا كذلك ضعف بعض جوانب ثقافته كالتاريخية والدينية خاصة جانب القرآن منها عن نظيره لدى أبي فراس الذي كان أكثر منه استعانة بالقرآن والتاريخ ، الى جانب مالاحظناه خلال بحثنا لأثر التشيع في شعره ، من ضعف صوت الشعر الشيعي في ديوانه بمقارنته بأبي فراس نفسه .

وقد يلاحظ أننا أسهبنا في حديثنا عن علاقة الحاتمي بالمتنبي ،

---

(٤) ديوان الحلاج ١٩ ، ٢٥ ، ٦٣

(٥) الوساطة بين المتنبي وخصومه . الجرجاني ٦٤

وعرضنا باهتمام واضح الرسالة الموضحة والرسالة الحاتمية ؛ وذلك إدراكا منا للدور الكبير الذي أدته هاتان الرسالتان في توجيه الحركة النقدية التي نشأت حول المتنبي ، فقد أمدتنا الموضحة بجانب كبير من آراء الشاعر ، وكشفت عن جانب واضح من ثقافته الشعرية . كذلك قدمت الرسالة الحاتمية نموذجا واسعا للبحث في تأثر الشعراء بأقوال فلاسفة اليونان .

وقد أشار إحسان عباس الى دور الموضحة في الحركة النقدية بقوله : «إن الموضحة كانت الأساس الذي وضع أبيات المتنبي المعيبة إزاء النقاد ، فكان كثير مما استخرجوه من الأبيات المستهجنة لدى المتنبي هو ما استخرجه الحاتمي ، وستكون حجج المؤيدين له (للمتنبي) منتزعة من الحجج التي وضعها الحاتمي على لسانه ، كما أن شواهد خصومه هي الشواهد التي استخرجها الحاتمي من شعره»[٦].

ونضيف الى ما ذكره احسان عباس بأن أسلوب الحاتمي في ترويج بعض الروايات الباطلة كإنكار الشاعر الاطلاع على ديواني الشاعرين أبي تمام والبحتري ، قد امتد الى غيره من النقاد كابن وكيع التنيسي في الرواية التي أوردها عن إنكار الشاعر الاطلاع على شعر نصر بن أحمد الخبزأرزي على لسان علي بن حمزة البصري[٧].

كذلك فاننا رأينا أسلوبا مماثلا لمنهج الحاتمي في إثبات الشاعر بحكم الفلاسفة - الذي مثلته الرسالة الحاتمية - في أقوال ابن جني ، وابن فورجة ، والمهلبي ، على الرغم من تناول بعض هؤلاء لما أورد الحاتمي من أقوال في الرسالة الحاتمية بالنقد .

ولو لم يتخذ الحاتمي هذا الموقف العدائي من الشاعر لكانت له آراء مختلفة حول الشاعر ، وقد نتصور لها تأثيرا مختلفا في توجيه الحركة النقدية التي نشأت حول الشاعر .

(٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب . احسان عباس ٢٧٠
(٧) المنصف لأبن الوكيع التنيسي (خ ٣١ ب)(١٨١) التبيان . العكبري ٢ : ٢٨٢

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت للتعرف على ألوان الثقافة التي حصل المتنبي عليها ، وعلى تتبع أبعاد هذه الثقافة الماثلة في شعره ، وعلى إبانة كيف عامل الشاعر معارفه حين أراد أن يدخلها في شعره . فأكون بذلك قد وفقت في دراستي ، وإلا فإنني أرجو على الأقل أن أكون قد بينت الطريق ، والمنهج ، والثمرة ، لمثل هذا البحث ، الذي أعتقد أنه جديد في ميدانه . وكل جديد لابد أن تحيط به الآراء الحانية ، والمقومة ؛ ليصل إلى ما يمكن أن يصل إليه من كمال .

المصادر والمراجع

١ - ابتسام مرهون الصفار :

أبو تمام ثقافته من خلال شعره . مطبعة الجمهورية بغداد ١٩٧٢ .

٢ - ابراهيم بسيوني :

نشأة التصوف الاسلامي . دار المعارف . القاهرة ١٩٦٩

٣ - ابن الأثير :

- الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان . تحقيق : حفني شرف . الانجلو . القاهرة ١٩٥٨

- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، تحقيق مصطفى جواد ، المجمع العلمي بغداد ١٩٥٦

- الكامل في التاريخ ، مطبعة بولاق القاهرة ١٢٩٠ هـ

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، بولاق ١٢٨٢ هـ

٤ - احسان عباس :

تاريخ النقد الادبي عند العرب . طبع دار الأمانة ومؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٧١

٥ - أحمد أمين :

- ضحى الاسلام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٦

- ظهر الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٥

- فجر الاسلام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٢٨

٦ - أحمد شلبي :

تاريخ التربية في الاسلام . الأنجلو المصرية الطبعة الثانية ١٩٦٠

٧ - الأخطل :

شعر الأخطل . رواية محمد بن العباس اليزيدي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٨٩١

٨ - أرسطو طاليس :
كتاب ارسطو طاليس في الشعر ، تحقيق شكري عياد . دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٧
٩ - الأصفهاني (أبو القاسم) :
الواضح في مشكلات شعر المتنبي ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ١٩٧٠
١٠ - الأصفهاني (الراغب) :
محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والخطباء ، مصر ١٢٨٧ هـ
١١ - ابن ابي أصيبعة :
عيون الانباء في طبقات الأطباء ، دار الفكر ، بيروت ١٩٥٧
١٢ - الأعشى :
ديوان الأعشى الكبير ، شرح محمد محمد حسين . نشر مكتبة الآداب بالجماميز
١٣ - الآمدي :
الموازنة بين الطائيين . تحقيق أحمد صقر ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٢
١٤ - امرؤ القيس :
ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤
١٥ - ابن الأنباري :
- الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٤٥
- نزهة الالباء في طبقات الأدباء ، تحقيق ابراهيم السامرائي ، مكتبة الاندلس ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٧٠
١٦ - أوس بن حجر :
ديوان أوس بن حجر . تحقيق يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨
١٧ - البحتري :
ديوان البحتري ، شرح وتحقيق : حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤
١٨ - البديعي :

الصبح المنبي عن حيثية المتنبي . تحقيق : محمد شتا ـ عبده زيادة عبد
ومصطفى السقا ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣
١٩ - بروكلمان :
تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، الطبعة
الثانية ، القاهرة ١٩٦٨
٢٠ - ابن بسام (النحوي) :
سرقات المتنبي ومشكل معانيه ، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ، الدار
التونسية للنشر ١٩٧٠
٢١ - بشار :
- ديوان بشار بن برد ، نشر وتقديم محمد الطاهر بن عاشور ، لجنة التأليف
والنشر ، القاهرة ١٩٥٧

- المختار من شعر بشار ، اختيار الخالديين ، شرح اسماعيل بن أحمد
التجيبي ، تحقيق : محمد بدرالدين العلوي ، لجنة التأليف والنشر ،
مطبعة الاعتماد ، بلا تاريخ
٢٢ - البغدادي (الخطيب) :
تاريخ بغداد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٣١
٢٣ - البغدادي (عبد القادر) :
خزانة الادب ولب لباب أنساب العرب ، تحقيق : عبد السلام محمد
هارون ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨
٢٤ - البغدادي (عبد القاهر) :
الفرق بين الفرق ، ضبط وتعليق محمد بدر ، مصر ١٩١٠ م
٢٥ - ابن تغرى بردى :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، الطبعة
الأولى ، القاهرة ١٩٢٩ .
٢٦ - أبو تمام :
ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق : محمد عبده عزام ، دار
المعارف ، القاهرة ١٩٦٥
٢٧ - التوحيدي (أبو حيان) :

الامتاع والمؤانسة . تحقيق : أحمد أمين وأحمد الزين ، دار مكتبة الحياة ، بيروت . بلا تاريخ .

٢٨ - الثعالبي :
يتيمة الدهر ، مطبعة الصاوي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣٤

٢٩ - الجاحظ :
- البيان والتبيين . مطبعة الفتوح الأدبية ، القاهرة ١٣٣٢ هـ
- الحيوان . تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، مطبعة البابي الحلبي ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٤٤

٣٠ - الجرجاني (علي بن عبد العزيز) :
الوساطة بين المتنبي وخصومه . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، طبعه : عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٦٦

٣١ - الجرجاني (أبو الحسن علي بن محمد) :
كتاب التعريفات ، ليبزيج ١٨٤٥

٣٢ - جرير :
شرح ديوان جرير ، محمد اسماعيل عبدالله الصاوي ، مطبعة الصاوي ، القاهرة ١٩٣٥

٣٣ - ابن جنى :
الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي . تحقيق : محسن غياض ، سلسلة كتب التراث ، مطبعة الجمهورية ، بغداد ١٩٧٣

٣٤ - الحاتمي (أبو علي) :
- الرسالة الحاتمية ، ضمن التحفة البهية والطرفة الشهية ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ١٣٠٢ هـ
- الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر بيروت ١٩٦٥

٣٥ - حازم القرطاجني :
منهاج البلغاء وسراج الأدباء . تحقيق : محمد الحبيب بن خوجة دار الكتب الشرقية ، تونس ١٩٦٦

٣٦ - الحلاج :
ديوان الحلاج . صنعه واصلحه : كامل مصطفى
الشيبي ، مطبعة
المعارف ، الطبعة الأولى، بغداد ١٩٧٤

٣٧ - الحلي (أبو القاسم نجم الدين) :
المختصر النافع في فقه الامامية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٣٧٦ هـ
٣٨ - الحموي (ياقوت) :
- معجم الأدباء ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، بلا تاريخ
- معجم البلدان ، تصحيح وترتيب : محمد أمين الخانجي ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى . القاهرة ١٩٠٦
٣٩ - ابن خالويه :
مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع . شرح ج . برجستراسر ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٩٣٤
٤٠ - ابن خلدون :
مقدمة ابن خلدون ، دار الشعب ، القاهرة . بلا تاريخ .
٤١ - ابن خلكان :
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨
٤٢ - ابن دريد (أبو بكر) :
جمهرة اللغة ، حيدر آباد الدكن ١٣٤٥ ه
٤٣ - دعبل :
ديوان دعبل الخزاعي . تحقيق : محمد يوسف نجم ، طبع دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٢
٤٤ - ابن دقماق :
الانتصار بواسطة عقد الأمصار . المطبعة الأميرية ، بولاق ، الطبعة
٤٥ - الدميري :
حياة الحيوان الكبرى . المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٦ ه
٤٦ - دي بور :
تاريخ الفلسفة في الاسلام . ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٤

٤٧ - ذو الرمة :
ديوان شعر ذي الرمة ، تحقيق : كارليل هنري هيس . طبع كمبردج ١٩١٩

٤٨ - الراعي :
ديوان الراعي النميري . تحقيق : ناصر الدين الحـاني . المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٦٤

٤٩ - ابن رشد :
تلخيص كتاب ارسطو طاليس في الشعر ، ضمن كتاب 'فن الشعر' تحقيق عبد الرحمن بدوي . النهضة المصرية . القاهرة ١٩٥٤

٥٠ - ابن رشيق القيرواني :
- قراضة الذهب في نقد أشعار العرب . تحقيق : الشـاذلي بو يحيى ، الشركة التونسية للتوزيع . تونس ١٩٧٢
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقـده . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، الطبعة الرابعة بيروت ١٩٧٢

٥١ - ابن الرومي :
ديوان ابن الرومي ، اختيار وتصـنيف كامل كيلاني ، مطبعـة التوفيق الأدبية ، بلا تاريخ .

٥٢ - زكي مبارك :
النثر الفني في القرن الرابع . دار الكتب المصرية . الطبعة الأولى ١٩٢٩

٥٣ - الزمخشري :
- أساس البلاغة . دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٣
- شرح المفصل لابن يعيش . ط ادارة الطباعة المنيرية . بلا تاريخ

٥٤ - زهير :
ديوان زهير بن أبي سـلمى . صـنعة : أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، الدار القـومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤

٥٥ - ابن زولاق :
أخبار سـيبويه المصري . تحقيق : محمد ابراهيم سـعد وحسـين الديب ، مطبعة النصر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣٣

٥٦ - ابن سعيد الأندلسي :
المغرب في حلي المغرب . تحقيق : زكي محمد حسن وشـوقي ضـيف وسـيدة

كاشف . جامعة القاهرة ١٩٥٣ .
٥٧ - السموأل :
شعر السموأل . تحقيق وشرح عيسى سابا . مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥١
٥٨ - ابن سنان الخفاجي :
سر الفصاحة . تصحيح وتعليق : عبد المتعال الصعيدي ، مطبعة صبيح . القاهرة ١٩٥٣
٥٩ - سيبويه :
الكاتب . المطبعة الأميرية ، بولاق ١٣١٦هـ
٦٠ - سيدة كاشف :
مصر في عهد الاخشيديين ، دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٧٠
٦١ - السيوطي :
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، طبع عيسى الحلبي ، القاهرة ، بلا تاريخ
٦٢ - ابن شاكر (محمد بن شاكر الكتبي) :
فوات الوفيات ، ط مصر ١٢٩٩ هـ
٦٣ - شفيق جبري :
أبو الطيب المتنبي . مطبعة ابن زيدون . دمشق ١٩٣٠
٦٤ - الشماخ :
ديوان الشماخ . تحقيق : صلاح الدين الهادي . دار المعارف بمصر ١٩٦٨
٦٥ - الشهرستاني :
الملل والنحل . تحقيق : عبد العزيز محمد . مؤسسة الحلبي . القاهرة ١٩٦٨
٦٦ - شوقي ضيف :
الفن ومذاهبه في الشعر العربي . دار المعارف ، الطبعة السابعة ، القاهرة ١٩٦٩
٦٧ - الصاحب بن عباد :
- الأمثال السائرة من شعر المتنبي . تحقيق : محمد حسن آل ياسين . مطبعة المعارف . بغداد ١٩٦٥

- الكشف عن مساوىء شعر المتنبي . تحقيق : محمد حسن آل ياسين . مطبعة المعارف . بغداد ١٩٦٥

٦٨ - الطباخ (محمد راغب الطباخ الحلبي) :
اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ط حلب ١٩٢٣

٦٩ - ابن طبا طبا :
عيار الشعر . تحقيق : طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥٦

٧٠ - الطبري (محمد بن جرير) :
تاريخ الرسل والملوك . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . دار المعارف القاهرة ١٩٦٠

٧١ - طرفة :
ديوان طرفة بن العبد البكري . مكس سلفسون طَبع ، برطراند ١٩٠٠

٧٢ - الطرماح :
ديوان الطرماح . تحقيق : عزة حسن . وزارة الثقافة والارشاد ١٩٦٨

٧٣ - طه حسين :
مع المتنبي . دار المعارف . الطبعة العاشرة . القاهرة
- العاملي : المخلاة ، طبع مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ .

٧٤ - العباس بن الأحنف :
ديوان العباس بن الأحنف . شرح وتحقيق : عاتكة الخزرجي . دار الكتب المصرية ١٩٥٤

٧٥ - عبد الرحمن شعيب :
المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث . دار المعارف . الطبعة الثانية ،القاهرة ١٩٦٩

٧٦ - عبدالعزيز الأهواني :
ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر . الانجلو المصرية ١٩٦٢

٧٧ - عبدالقادر القط :
حركات التجديد في العصر العباسي . ضمن 'الى طه حسين في عيد ميلاده

السبعين، دار المعارف ١٩٦٢
٧٨ - عبدالوهاب عزام :
ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام . دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٨
٧٩ - أبو عبيدة (معمر بن المثنى) :
- نقائض جرير والفرزدق . تقديم : بيفان (انتوني اشلي) طبعة ليدن ١٩٠٥ - ١٩٠٧
- القصائد الهاشميات . بعناية : محمد شاكر الخياط . مطبعة الموسوعات بمصر .
- مجاز القرآن . تحقيق : محمد فؤاد سزكين . الخانجي . القاهرة ١٩٥٤
٨٠ - العجاج :
ديوان العجاج . تحقيق عبد الحفيظ السلطي (رسالة دكتوراه مقدمة الى آداب القاهرة)
٨١ - العسكري (أبو هلال) :
- ديوان المعاني . مكتبة القدس ١٣٥٢ هـ
- كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي البجاوي . طبع عيسى الحلبي . الطبعة الثانية . القاهرة . بلا تاريخ
٨٢ - ابن عقيل :
شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة . الطبعة الرابعة عشرة . القاهرة ١٩٦٤
٨٣ - ابو العلا عفيفي :
التصوف الثورة الروحية في الاسلام . دار المعارف . الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٣
٨٤ - علي بن الجهم :
ديوان علي بن الجهم . نشر : خليل مردم . دمشق ١٩٤٩
- علي بن حمزة البصري :
التنبيهات على ما في المقصور والممدود لابن ولاد ، ضمن المنقوص والممدود للفرّاء ، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي ، دار المعارف ، القاهرة ، بلا تاريخ .

٨٥ - ابن العماد :
شذرات الذهب في أخبار من ذهب .مكتبة القدس ١٣٥٠ ه

ه

٨٦ - عمر رضا كحالة :
معجم قبائل العرب القديمة والحديثة . المطبعة الهاشمية .
دمشق ١٩٤٩

٨٧ - عمرو بن قميئة :
ديوان عمرو بن قميئة . تحقيق : حسن كامل الصيرفي . مجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية - مجلد ١١ - القاهرة ١٩٦٥

٨٨ - العميدي :
الابانة عن سرقات المتنبي . تحقيق : ابراهيم الدسوقي البساطي . دار المعارف ، القاهرة ١٩٦١

٨٩ - غرونباوم :
دراسات في الأدب العربي . ترجمة : احسان عباس وآخرين . دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٥٩

٩٠ - الفارابي :
- احصاء العلوم . تحقيق : عثمان أمين . دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٤٩
- جوامع الشعر ضمن كتاب 'فن الشعر' لأرسطو تحقيق : محمد سليم سالم . المجلس الأعلى للشؤون الأسلامية . القاهرة ١٩٧١
- رسالة في قوانين صناعة الشعراء ضمن 'فن الشعر' لأرسطو . تحقيق : عبدالرحمن بدوي . النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٣

٩١ - أبو فراس :
ديوان أبي فراس . تحقيق : سامي الدهان . بيروت

٩٢ - ابن فورجة :
- شرح مشكلات ديوان أبي الطيب . تحقيق : محسن غياض . مستلة من مجلد المورد - المجلد الثاني ، دار الحرية للطباعة . بغداد ١٩٧٣
- الفتح علي أبي الفتح . تحقيق : عبد الكريم الدجيلي . دار الحرية للطباعة . بغداد ١٩٧٤

٩٣ - قاسم غالي :

تاريخ التصوف في الاسلام ، ترجمة صادق نشأت . مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٢

٩٤ - ابن قتيبة :

- الشعر والشعراء . تحقيق : أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٩٦٧
- كتاب الأنواء في مواسم العرب . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن . الطبعة الأولى ١٩٥٦

٩٥ - القزاز القيرواني :

كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة . تحقيق : المنجى الكعبي . الدار التونسية للنشر ١٩٧١

٩٦ - القشيري (عبد الكريم) :

الرسالة القشيرية ، المطبعة الميرية . القاهرة ١٢٨٤ هـ

٩٧ - قيس بن الخطيم :

ديوان قيس بن الخطيم . تحقيق : ابراهيم السامراني وأحمد مطلوب . مطبعة العاني . بغداد ١٩٦٢

٩٨ - كثير :

ديوان كثير بن عبد الرحمن الخزاعي . جمع وشرح : احسان عباس . دار الثقافة بيروت ١٩٧١

٩٩ - كعب بن زهير :

شرح ديوان كعب بن زهير . صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٩٥٠ ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥

١٠٠ - الكميت بن زيد الأسدي :

القصائد الهاشميات ، تحقيق وشرح : محمد شاكر الخياط ، طبع مصر ١٣٢١هـ

١٠١ - لبيد :

شرح ديوان لبيد بن ربيعة . تحقيق احسان عباس . سلسة التراث العربي ، الكويت ١٩٦٢

١٠٢ - المتنبي :

- ديوان أبي الطيب المتنبي المسمى بالتبيان . شرح ابي البقاء العكبري . تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . مكتبة

الحلبي . الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٥
- ديوان المتنبي . تصحيح : عبد الوهاب عزام . لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٤٤ .
- ديوان أبي الطيب المتنبي المسمى بالفسر . شرح : عثمان بن جني . تحقيق : صفاء خلوصي . الجزء الأول ، مطبعة الجمهورية . بغداد ١٩٧٠
- ديوان أبي الطيب المتنبي . شرح علي بن أحمد الواحدي . طبع برلين ١٨٩١

١٠٣ - ابن مجاهد :
السبعة في القراءات . تحقيق : شوقي ضيف . ط دار المعارف . القاهرة

١٠٤ - محمد عبدالفتاح عليان :
قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . القاهرة ١٩٧٠

١٠٥ - محمد عبدالله عنان :
تاريخ الجامع الأزهر . طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٥٨

١٠٦ - محمد مصطفى حلمي :
- ابن الفارض والحب الالهي . دار المعارف . القاهرة ١٩٧١
- الحياة الروحية في الاسلام . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٥

١٠٧ - محمد مندور :
النقد المنهجي عند العرب . دار نهضة مصر للطبع والنشر . الطبعة الثانية . بلا تاريخ

١٠٨ - محمود قاسم :
في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام . الانجلو المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٥٤

١٠٩ - مسلم :
ديوان مسلم بن الوليد . دار المعارف ١٩٥٧

١١٠ - مصطفى الشكعة :

فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين . الانجلو المصرية . القاهرة ١٩٥٨
١١١ - مصطفى ناصف :
نظرية المعنى في النقد العربي . دار القلم . القاهرة ١٩٥٨
١١٢ - المعتز :
ديوان ابن المعتز : محيي الدين الخياط . مطبعة الاقبال . بيروت ، بلا تاريخ
١١٣ - المعري (أبو العلاء) :
رسالة الغفران . تحقيق وشرح : بنت الشاطيء . دار المعارف ، الطبعة الأولى . القاهرة ١٩٥٠
١١٤ - ابن منظور المصري :
- اخبار أبي نواس . شرحه وضبطه : محمد عبد الرسول وعباس الشربيني ، مطبعة الاعتماد . القاهرة ١٩٢٤
- لسان العرب . الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر . القاهرة
١١٥ - الميداني :
مجمع الأمثال . بولاق ١٢٨٤
١١٦ - النابغة الذبياني :
ديوان النابغة الذبياني . تحقيق : شكري فيصل . دار الفكر ، بيروت ١٩٦٨
١١٧ - نصر بن مزاحم العقيلي :
وقعة صفين . تحقيق : عبد السلام هارون . الطبعة الأولى . القاهرة ١٣٦٥
١١٨ - النويري :
نهاية الأرب في فنون الأدب . دار الكتب المصرية . الطبعة الثانية ١٩٢٩
١١٩ - الهذليون :
شرح أشعار الهذليين . الطبعة الأوربية ، لندن ١٨٤٥م
١٢٠ - ابن هشام الانصاري :
مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب . حققه : مازن المبارك ومحمد على حمدالله وراجعه سعيد الأفغاني . دار الفكر . الطبعة الثانية ١٩٦٩
١٢١ - يحيى هويدي :
محاضرات في الفلسفة الاسلامية . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥

١٢٢ - يوسف خليف :
حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني الهجري . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٨

المخطوطـــات

١ - أبو كثير (عبدالرحمن المكي الشافعي) :
تنبيه الأديب الغريب ، معهد المخطوطات العربية
٢ - المتنبي :
ديوان المتنبي ، دار الكتب المصرية ، ١٢٩ أدب
٣ - محمد عزت عبدالموجود :
الظواهر اللغوية والنحوية في شعر أبي الطيب المتنبي ، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٦٣
٤ - ابن المستوفي :
النظام في شرح ديوان المتنبي وأبي تمام ، معهد المخطوطات العربية (٧٨٣ أدب)
٥ - المهلبي (أحمد بن علي) :
كتاب المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي معهد المخطوطات العربية (٧٠٣ أدب)
٦ - ابن وكيع التنيسي :
المنصف للسارق والمسروق في اظهار سرقات أبي الطيب المتنبي ، مخطوط بمكتبة الدكتور حسين نصار الخاصة .

دوريـــــات

١ - أحمد أمين :
هل كان المتنبي فيلسوفا ، مجلة الهلال ، أول اغسطس ١٩٣٥

٢ - محمد كامل حسين :
المتنبي والقرمطية ، مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، المجلد الثامن عشر ١٩٦٤
٣ - محمد مهدي علام :
فلسفة المتنبي من شعره ، صحيفة دار العلوم ، السنة الثالثة ، العدد الأول يونيه ١٩٣٦
٤ - محمود شاكر :
أبو الطيب المتنبي ، مجلة المقتطف يناير ١٩٣٦

المصادر الاجنبية

1. Blachere:
About — Tayyib Al Matanabbi Un poete arabe arabe du IV Siecle de Hegire, Adrien — Maisonneuve, Paris 1935.

2. Massignon (Louis): Motanabbi devant le Siecle Ismailian de l'Islam, Opera Minora, Liban, Dar Al Maaref, 1963.

الفهرست

تصميم الغلاف : بدروس بدروسيان
الخطوط : خالد الخالدي
الاشراف الفني : عبدالحافظ جاسم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٣٦٦ لسنة ١٩٧٨

دار الحرية للطباعة - بغداد

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والأعلان

دار الحرية للطباعة - بغداد
١٩٧٨